أسرار كنز
وادي الجن

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: أسرار كنز وادي الجن
التأليف: سيد إبراهيم كَلستان
ترجمة: هدير محمود
موضوع الكتاب: أدب مترجم
عدد الصفحات: 240صفحة
عدد الملازم: 15 ملزمة
مقاس الكتاب: 14*20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2025/3154
الترقيم الدولي: 978-977-8796-28-5

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

رواية
مترجمة

أسرار كنز وادي الجن

تأليف

سيد إبراهيم كَلستان

ترجمة

هدير محمود

حكاوي
للإبداع الفني

في هـذا المشـهد، معظـم النـاس مزيفـون... وأي تشـابه بينهـم وبـين أشـخاص حقيقيـين هـو أمـر مؤسـف بالنسـبة للأشـخاص الحقيقيـين.

فريق من المهندسين انطلقوا لرسم خريطة للوادي الضيق، حتى وصلوا إلى طريق غير ممهد (واعر). منذ أن انطلقوا، وبدأ الحمالون يحملون أمتعتهم من الخلف، شرع الرجل الذي كان يسير في المقدمة بالحديث عن جمال التلال، وأخذ النهر يجري واصفًا عشقه لوطنه الذي يمتلك سحرًا وجاذبية لا تقاوم. كان يتحدث عن الزوايا البعيدة، عن السهول الفسيحة، الينابيع و الحصي المتدفق، الجبال النائية، القري الهادئة، و السحاب الذي يظلل البحار، عن حرارة الشمس، الصخور التي تبدو كأجساد عمالقه من قرون مضت جفّت فجأة بفعل صواعق البرق الأولي منذ بدء الخلق، عن الكورات الزجاجية المتناثرة في تل "سيلك"[١] بمحافظة كاشان، عن الأحواض الحجرية الواسعة الممتدة لعدة فراسخ في وادي "كوه منـد"[٢] ، عن سهول أزهار التوليب في خوزستان قبل العيد، والحرارة المحترقة في مستنقعات تلك المنطقة بعد العيد، عن حقول النعناع في جبل دماوند شمال إيران في الصيف، وعن الشجيرات ذات أغصان متناثرة التي تتراقص أوراقها مع النسيم الدافئ المحمّل بالغبار في سهول الساحل القريب من بحر فارس، وكأنها تندب حزناً

(١) تل سيلك: موقع أثرى فى كاشان بإيران، يضم بقايا حضارات قديمة، يعد جزءًا مهما من التراث الثقافى الايرانى، مما يجعله اقدم المستوطنات البشرية فى المنطقة.

(٢) وادي كوه منـد: في محافظة بوشهر جنوب إيران، يتميز بجمال طبيعي وتضاريس خلابة ويعد وجهه للسياحة.

مدينة بم في محافظة كرمان [١]، مدينة بوئين زهرا في محافظة قزوين شمال غرب إيران، وقامة أشجار السرو الرفيعة بأوراقها الراقصة تحت أشعة شمس الصيف، وجذوع أشجارالصفصاف والبلوط القديمة في وادي "تامرادي"في مدينة ياسوج بمحافظة كهكيلويه وبوير أحمد[٢]، وأزهار ذات اللون الفضي عند مدخل سهل آمل، حيث تستلقي في نهاية الصيف باتجاه الجبال كأنها تستحضر ذكراها. ليالي القمر، والصحراء المحاطة بجبال زرقاء، خفيفة كالحلم، وأمواج السراب الهادئة، تتخللها خطوط السياج البعيد مع شجيرات الشوك وظلال شجرة الدردار، وعلى مسافة بعيدة وسط الصحراء تحت وهج الظهيرة، من خان قديم شبيه بالنزل، مهجور ومحطم، ومن مكان تركه البدو الرحل، أصحاب الماشية، الذين يتنقلون مع مواشيهم بين الفصول، حيث لا تزال آثار خيامهم باقية وتفوح في الأرجاء رائحة مواشيهم. رائحة خريف وادي "سوهانك"وسكون الشتاء عند سفوح جبال البرز في شمال إيران الذي يتميز بتضاريسه الجبلية وغاباته الكثيفة. في يوم كانت فيه الرياح تثير غباراً يجعل التراب على التلال الطينية يبدو أكثر احمراراً، وصوت المروحية في الأسفل يدفع الصيصان للهرب في الأزقة

(١) بم: هي مدينة في محافظة كرمان جنوب شرق إيران، تشتهر بموقعها التاريخي والأثري.

(٢) وادي تامرادي: يقع في جنوب غرب إيران، يتميز بمناظره الطبيعية ويعتبر وجهة شهيرة للسياحة.

الضيقة والمنحدرة، بينما تنبح الكلاب بصوت خافتاً. وكلما تقدموا، ازداد اللون الأحمر كثافة مع الأرض الرطبة. في الليل، كانت ألسنة اللهب الهائلة لغاز مدينة كجساران في جنوب غرب إيران تضيء السماء فتبدو الجبال وكأنها تهتز، فتهتز الجبال وكأنها تتنفس مع الأضواء الحمراء والظلال المرتجفة. وفي القرية، كانت بساتين التفاح والكمثرى تفيض بالزهور، ينعكس مشهدها المتماوج علي سطح البحيرة التي كانت مالحة، بينما يحمل هواء الأزقة روائح الربيع ممزوجة بعبق الحقول.

تأمل المنظر من حوله، فرأى خط التلال المحيطة، والحقول المتناثرة، والأراضي المزروعة، وشجرة الجوز العتيقة (القديمة) في الأسفل، ومن بعيد كانت القمة المكسوة بالثلوج تظهر بوضوح. كان الحمالون يقتربون حاملين الصناديق وأدوات القياس. هز الرجل رأسه ببطء وقال: "عندما يُحفر النفق ويصل الطريق إلى هنا"، ثم أشار قائلاً: "تماماً هنا"، وقاموا بتثبيت ثلاث أدوات قياس لتحديد المواقع وقياس المسافات على منحدر التل. أخرج الرجل جهاز الرؤية من علبته وثبّته بإحكام على القاعدة، وضع عينه عليه وأخذ يديره ببطء، فرأى على منحدر التل في الجانب الآخر من الوادي رجلاً منشغلاً بحراثة الأرض مع بقرته، وكأنه كان شبه نائم وفي حالة من النعاس.

المحـراث كان يشـق الأرض بصعوبـة حيث كانـت التربة صلبة وممزوجـة بالحـصي والحجـارة. وسـار الرجـل والبقـرة معـا بهدوء وصـبر، ببـطء إلي الأمـام. سـلوكهما في حراثـة الأرض كان أشـبه بنبضـات القلـب أو أنفاس هادئـة، كأن ينبـع من الطبيعـة ذاتها بلا إرادة أو قصـد. وعندمـا يقتربـان مـن الحجـارة الكبـيرة المتناثـرة، كان الثـور يميـل جانبـا متفاديًـا إياهـا، وكانـت الأجيـال المتعاقبـة مـن الأبقارتقـوم بهـذا الفعـل ذاتـه. أحيانا كانـت الأبقـار تتعثر أو تتوقـف لحظـات، إمـا بسـبب دهشـه غريزيـة أو تعـب عضلاتهـا، فيضربهـا السـائس بلطف، ثـم تواصل السـير من جديـد. كان هذا الـضرب الخفيـف يحـدث بشـكل متكـرر، كانـت خطواتهـا تتعثـر أحيانًـا مثلـما تنزلـق الحوافر عندمـا يتحطـم الطين تحتهـا أو ينفلت مـن تحـت أقدامهـا. في هـذه المـرة، عندمـا انزلقـت الأبقار بسـبب ثقلهـا، غـاص المحـراث في الأرض بعمق حتي علـق. وكلما زادت البقـرة في محاولات التقـدم، ازداد انزلاقها، وأدرك الرجل أن الجهد بـات بـلا جـدوي. كان هنـاك حجر تحـت الـتراب مليئًـا بالجذور. خـاف الرجـل أن ينكـسر المحـراث أو ينقطـع حبـل ربـط البقـرة، ففـك الحـزام مـن خلفهـا. ورغـم أن البقـرة تحـررت إلا أن عادتها أبقتهـا ثابتـه في مكانهـا، وكأنهـا لم تشـعر بعـد بالحريـة التـي نالتها.

بـدأ الرجـل يحفـر بيديـه ثـم باسـتخدام طـرف حجـر حـاد محـاولا إزالـة التراب من حـول الصخـرة الكبيرة. اسـتمر في الحفر

والتفريغ حتي يخف الضغط عن المحراث ويتمكن من إخراجه. وعندما ضغط وحرك عصا المحراث. اهتزت الصخرة قليلا. وبدأت الحصي تتساقط من حولها.. إلي الأسفل في حفرة. في البداية تشققت الأرض حول الصخرة. وبدأ التراب ينهار ثم مع دفعة أخري تحركت الصخرة بالكامل من موضعها، وأخيرا، بعد دفعة أقوي انقلبت علي جانبها وسقطت. تحت الصخرة كان هناك ثقب ضيق بمدخل محاط بحجارة، صغير، أكبر قليلا من حجم قبضة اليد وقف الرجل حائرا، منهكا، تتملكه رهبة غامضة،من الثقب كانت الأودية المعلقة تصعد في ضوء الشمس، تظهر للحظة علي حافة النور والظلام، ثم تختفي في عالم النهار وتتلاشي، أدار الرجل رأسه فرأي البقرة – لم يرًسوي عينيها تحدقان به بعمق. كانت الشمس مشرقة، القمة البيضاء المغطاة بالثلج في الأفق. وكأن لا أحد يراقب بعد الان. انحني الرجل ببطء، ونظر عبر الفتحة الفارغة إلي الأسفل. كان الظلام يحيط بالمكان ورائحة الرطوبة تفوح منه، رائحة رطوبة قديمة عالقة. من شدة خوفه من أن تكون هناك أفعي أو كائن سام آخر يختبيء في الحفرة، بدأ الرجل بحذر يلامس الحجارة الصغيرة المحيطة بفتحتها محاولا زعزعتها. نزع إحداها وبدأ يزيح التراب بلطف، ثم واصل إزالة المزيد حول الفتحة. شيئا فشيئا تلاشي خوفه، وأخذ يغرس يده في التراب المفكك كأنها مجرفة ليخرج ما فيها. اتسعت الفتحة تدريجيا، لكن بسبب

كثـرة الحفر تحـت الحجـر الأول، تدحـرج الحجر فجـأة بفعل وزنه وسـقط بعنـف فـوق الفتحـة، محطـما حافتهـا تمامـا. انزلـق الحجـر وسـقط في عمـق الحفـرة المظلمـة، وصاحبـه صدي طنـين للحظة، ثـم عـم الصمـت. سـاد الصمـت التـام، لم يكـن هنـاك هـذه المرة ذلـك الحيـط الرفيع مـن الغبـار الذي يتسـلل عبر شـقوق التراب، بـل بـدا وكأنه عمـود ضخم مـن الأحجـار اللامعة، يهبـط بقوة ثم يتناثـر فـوق البئـر و يتـلاشي، أصبحـت الفتحـة الآن واسـعة بعـد سـقوط الحجـر، وبـدا واضحـا أن الحجـر كان إما غطـاء أو علامة تشـير إلي فتحـة في قبـة صغـيرة تعلـو البئـر. الرجـل نـزل بحـذر مـن فوهـة البئـر الضيقـة. وعندمـا نـزل قليـلا وأصبح رأسـه علي مسـتوي الأرض، شـعر أن قدمـه تبحث عن موضـع للثبات ولكنه لم يجـد شـيئا. ازداد خوفـه، وكان يريـد العـودة، ولكـن قدمـه التي تحركـت بحريـة اصطدمت بعائـق، فتمكن مـن إزالة العائـق، لكنه وقـع في الفخ. سـقوطه أحدث صوتًـا، وكأن قاع البئر أو أي شـيء في الأسـفل كان قريبـا. حـاول الرجـل جاهدا أن يدفع نفسـه باتجاه ضـوء الشـمس السـاطع، وكانـت القمة تظهـر بوضوح مـن بعيد، خلـف التـلال الداكنة المظللـة، حرك قدمـه مرة أخـري، محاولا أن يثبـت نفسـه، لكنه شـعر وكأن لا مفـر من السـقوط في العمق. كان متيقنـا في داخلـه أنه سـيهوي إلي القاع في النهاية، حتـي اهتز الجدار مـرة أخـري بفعل حركـة قدميه، فسـقط، تصاعد صوت سـقوطه. وفقـد توازنـه فانزلق وسـقط. سـقوطه كان قصيرا حتـي وصل إلي

قاع الحفرة. لكن الخوف أو الذهول جعلا هذا السقوط القصير يبدو طويلا، وكأن قاع الحفرة يقع في الجانب الآخر من العالم. عندما فتح عينيه خُيل إليه أنه كان يحلم أو ربما لا يزال في حلم، أو أن حلما جديدا علي وشك البدء. العالم في الأعلي كان مشرقا بشكل مبهر مقارنة بنور الحفرة الخافت، حتي أن كل ما كان يراه هو بياض ساطع يعمي البصر، أما في الداخل، داخل الحفرة، امتد المشهد إلي ما لا نهاية في ظلام ساكن، وكأنه عالم خيالي، أو صورة من حلم، كل ما كان ماديًا، إن وُجد بدا وكأنه بلا زوايا واضحة، غارق في نور خافت، مكتملا، مطفا الحواف، ومعلقًا في الفراغ بلا ثقل. وكل ما كان، إن كان هناك شيء، في جانبي الممر، علي طرفي الطريق الذي كان يبتعد أكثر فأكثر، كان يبدو وكأن الجسم يختفي تدريجيا، وكأن يفقد توازنه، ويغرق في نومه، خوفه، وأخطائه، ينزلق إلي الظلام. كان الظلام كثيفا لدرجة أنه لم يكن يري شيئا لدرجة أن العين لم تستطع أن تدركه، ولم تستطع أن تألفه أو تتصالح معه، نهض الرجل نصف قيام. مستندا إلي ركبتيه وكفيه، فرأي الأرض علي الجانبين مغطاه بألواح حجرية متراصة ومتجاورة، وعلي كل واحدة منها كانت هناك أشياء ما، كأنها تحمل وجع السقوط ورهبة الظلام، بدأ يزحف علي أربع كطفل صغير يتعلم المشي لأول مرة، يشق طريقه في هذا الممر المظلم. علي الصخرة الأولي كان هناك خوذة نحاسية ذات قرنين، وهو ما بدا واضحا من لونها المحمر بفعل الصدأ.

كانـت الخـوذة مقلوبة عـلي ظهرها فـوق الصخرة، وعندمـا أدارها رأي بداخلهـا عظمـة جمجمـة بشرية. كانـت الجمجمة فارغـة تماما. لم يتبقـي فيهـا شـيء سـوي صفيحـة عريضة للجبـين وقنـاة ضيقة تحـل محل الأنـف. بين القرنـين، وعلي اللوحـة الأماميـة، كان هناك تجويـف قديـم كأنه نتيجة ضربـة عنيفة من جسـم ثقيل ومسـتدير. تأمـل القرنين بخـوف، ولمس أطرافهـما بأصابعه المرتعشـة، ثم أدار الجمجمـة بحـذر بـين يديـه وأعادهـا إلي مكانهـا بخـوف ممـزوج بالـتردد. عـلي الحجـر كان يـري عقـدًا دائريـا أخـضر مصنوعا من النحـاس، كان يخـشي أن ينظـر إلي الأحجـار التاليـة. زحـف عـلي يديـه وركبتيـه نحو الحجـر الثاني، ثـم الثالـث، الرابـع، والخامس، وصـولا إلي الأحجـار البعيـدة. كل حجـر كان يحمـل شـيئا مـن القلائـد و الأقـراط والخواتـم، إلي التيجـان والخـوذ والرمـاح والسـنان، الـدروع، الخناجـر، الأحزمة والأسـهم، علـب الكحل، الأمشـاط، المغـازل ، الدمـي، الإبـر، الأجـراس، مبخـرة العـود، الجـرار والمرايـا، كانت المرايا سـوداء وقـد فقدت بريقهـا، حتي أنه لم يكـن بالامـكان رؤيـة أي شـيء فيهـا. وكلـما تقدم الرجـل أكثر، رغـم أن عينيـه بـدأت تتأقلـمان مـع الظـلام، إلا أن رؤيتـه ازدادت سـوءًا لأن الضـوء كان يتلاشـى تدريجيًا. حتى توقـف، تغلب عليه الخـوف. التفت حولـه. بدا الضوء باهتًا أسـفل الفجوة التي سـقط منهـا، لكن عـلى جانبي الجـدار ظهرت انحنـاءات متكـررة، وكأن صفًـا من أنصـاف الدوائر مصطفـة، والضوء ينعكس عـلى حوافها

البارزة بلون باهت. شعر بأن التنفس أصبح صعبًا، وكأن قلة الضوء جلبت معها نقصًا في الهواء.

وفجأة أدرك أن كل تلك الأحجار لم تكن سوى قبور.

عندما خرج من البئر، شعر وكأنه في قمة العالم. كانت الأرض والتل الذي كان يحرثه كل عام بالمحراث ويزرع فيها بذوره القليلة، ويطلب محصوله الضئيل منها بتوسل. أما الآن فقد بدا وكأنها قمة برج مراقبة تطل علي العالم. وكأن عرشه فوق السماء، نظر إلي الوديان و إلي التلال التي كانت أمامه ساكنة، ثم أطلق صيحة. كانت الرياح تتسلل بهدوء بين سيقان الأعشاب الجافة كأنها تتنفس. وكانت الفرحة أكثر من مجرد صرخه. لم يكن الطيران ممكنا، فدارت دوره ثم دوره أخري، واستمرت الدورات تتوالي. قفز فجأة، وكانت الصرخات والقفزات، الدوران، والرقص كأنها ممتزجة معا. كان يركض و يتقلب علي الأرض، وينزلق وسط الأضواء المتلألئة. وعلي التل، غير مبال بالأنحدار أو بسرعته المتزايدة، كان يتجه نحو الوادي.

حتي اكتشف غياب البقرة، كانت قد اتمت العمل الذي كلفها به مشرف الحقل، ثم عندما ذهب الشخص الذي كان يضرب علي جانبيها وكتفيها يمر بالقرب من البئر، بدءت تسير ببطء علي المنحدر بحثا عن الطعام. كانت تأكل في الطريق وعند سفح التل استقرت وأخذت تأكل بصبر وترمي روثها

بارتياح... حينها رآها الرجل، فركض نحوها صارخًا: "أين أنت يا حيوان؟" وعندما وصل إليها، كان أول ما فعله هو ضربها، كعادته قال لها: "هيا، تحركي!" أسرعي فلن أتحمل المزيد!" ثم ضربها مرة أخري، فانطلقت البقرة. كان الرجل يرقص و يصفق ويقول: "انتهي التل والجبل، اصعدي للأعلي تقدمي يا ابنة فلان." كان يتمني أن تسير البقرة معه بنفس خطاه لكن دون أن تسبقه. حاولت البقرة التحرك بضرباته وركلاته، وبذلت بعض الجهد، لكن عنادها الفطري وانصياعها لغريزتها جعلاها تتوقف فجأة، تتباطأ وتظل واقفه دون أن تتوقف. اضطر الرجل إلي جرها بنفسه. كانت البقرة تعاني من الحبل الذي يربطها، لكن غريزته كانت تخبرها أن عليها السير ببطيء، بل ألا تسير علي الإطلاق. تحت شجرة اللوز المظلة، أصبح الرجل عاجزا. كان في طريقه إلي بيته، ليبشر زوجنه بأن زمن الرفاه والراحة قد حل، لكن البقرة لم تشأ أن ترافقه. كان علي قمة العالم. لكنه لم يستطع إجبار البقرة علي التحرك، كان يملك الثروة ولكن الحيوان لم يشاركه فرحته،لم يتمكن من نقل إرادته إلي البقرة، قوته ومكانته الجديدة ضيقت الخناق علي صبره الريفي القديم. رأي أنه لن يتمكن من فرض قوته علي البقرة أو علي الأقل ليس بالطريقة المعتادة، ثم أدرك ما هي البقرة؟ كانت بقرة صفراء اللون بينما كان البحر من الذهب والزمرد يلمع تحت الجبل! ففجأة تذكر الله وحمد الله.

عندما تُمنحك كل هذه النعم، فماذا يجب أن تفعل؟ الشكر. بالطبع. يجب أن تقدم فدية أو قربان البقرة كانت تعلم ذلك.

عندما أمسك الرجل باللجام عن قصد وغضب، جر البقرة نحو الأمام فانطلقت ببطء كانت ترفض السير، تاره تتوقف تماما وتاره أخري تسير بخطوات بطيئة، تقاوم حتي اللحظة الأخيرة لكتها كانت تقترب من تلك اللحظة، وعندما شعرت أن الوقت قد حان، استسلمت وبدأت في السير بذيل مائل وقرون منخفضة. سحبها الرجل بقوة نحو جدار المنزل وحمل معها جوزة كانت أوراقها صفراء بسبب الخريف وكانت تتساقط. فصرخ قائلا: "أم علي!". كانت المرأة داخل المنزل بجانب البركة تغسل وكان ابنها أحمد علي بجانبها، قالت المرأة: "جاء والدك يا علي" دخل الرجل من الباب، وكان فريد يصرخ " يا علي"وعندما رآها أضاف اسمها إلي حديثه وهو يعبر عن فرحته، صفق بيده ورقص، ثم بركله عشوائية أطاح بالإبريق والصحون والأطباق النحاسية التي كانت علي الأرض، رفع المرأة وأدارها في الهواء، ورفعها عن الأرض، واستمر في الرقص بينما كان يردد كلمات غيرمترابطة كأغنية بلا معني. كانت المرأة في حالة من الدهشة، بينما كان الطفل يضحك. فجأة، سكت الرجل مرة واحدة، وعندما لاحظ علي وجه المرأة أنها في حالة دهشة ولا تعرف ما يجري خطرت له فكرة شيطانية.

فكر في أن يحتفظ بالسر لنفسه، بعد صمت طويل، قال فجأة "سكين!" ارتجفت المرأة، أما الرجل فقد استأنف رقصه وغناءه، وهو يكرر "سكين ، سكين!" ثم استكمل طريقه. صعد بسرعة علي السلالم المكسورة، حتي وصل إلي الشرفة، ثم أغلق الباب خلفه وركض إلي الغرفة وهو لا يزال يغني، بصوت مكرر، وكلماته الوحيدة كانت "سكين!" كانت المرأة خائفة. ولم تعد كلمات التهدئة المكررة تؤثر فيها. تسلل الرعب من الاعتداء والدماء عبر دهشتها وحركاتها المرتبكة. خرج الرجل من الغرفة وهو يحمل سكينا في يده، يتقدم نحوها بابتسامة غير مبالية بينما هي كانت تتراجع إلي الخلف. لم تستطع تمييز الحد الفاصل بين المزاح والتهديد. بينما كانت السكين تتحرك باتجاها باستمرار. كانت المرأة علي وشك المغادرة لكن الرجل قفز فجأة وأمسك يديها الناعمة وسحبها بقوة. جرها من علي السلم إلي الأسفل وركض بها مسرعا عبر الفناء حتي خرجا من باب المنزل. استمر في الجري وهي تجري معه، حتي وصلا إلي حيث كانت البقرة منشغلة في تناول عشائها الأخير. فجأة توقفت المرأة وسقطت للخلف، إذ أدركت أن زوجها ترك يدها واندفع نحو البقرة يحاول إجبارها علي الاستلقاء، حينما فهمت ما يجري صرخت: "هرب!". بدأت المرأة تركض وتصرخ طلبا للمساعدة، تنادي الجميع في الأزقة وبين بساتين القرية، من فوق الاسوار وخلف الأبواب المغلقة والمفتوحة، استغاثت المرأة بكل من صادفته

في طريقها: عند النهر بخالة معصومة التي كانت منشغله بغسل الملابس وبالسيد الذي كان يتوضأ مستخدما إبريق ماء، وبالشيخ الذي كان في عزله منزله يحاول نطق حروف الفاتحة والسورة في صلاته بإتقان.

كما طلبت المساعدة من الراعي الذي كان يعيد قطيع القرية إلي الحظيرة، لكنه رد عليها بلا مبالاة قائلا: "وما شأني أنا؟" وأخيرا اتجهت إلي كبير القرية، الذي كان يجلس بكل هيبته ووقاره علي شرفه منزله يقشر رمانة.

صاحت المرأة: "يا كبير القرية، أستحلفك بالله ساعدني! والد علي قد أصابه الجنون!". كان كبير القرية منشغلا بالأكل حين قالت المرأة: "هل جـَّن؟ نعم، لقد جنَّ." وأضافت مستغيثة: "بالله عليكم، أسرعوا للمساعدة!. لقد أخذ السكين ويريد ذبح البقرة!" رد كبير القرية بلا مبالاة "يذبحها؟ كيف تجرأ! واستمر في الأكل لكن إصرار المرأة وتوسلاتها كانت أقوي من متعته في الأكل. فأضطر إلي التوقف. مستندا إلي عمود الشرفة الصلب، نهض بصعوبة وهو يئن ويتمتم: "يا لها من مشقة أن تكون كبير القرية. لا يستطيع الإنسان تناول الرمان براحته."

وجدت المرأة أخاها في بستان الفاكهة وهو ينثرالسماد بالأشجار. اتكأت برأسها علي صدره وبدأت تئن. كانت تتنفس بصعوبة من كثرة الجري، وفي وسط شهقاتها أخبرته

القصة قائلة: "إذا خسرنا البقرة، فلن يتيقي لنا شيء."

وفي خضم ركضها المستمر، بين الوضوء المتكرر لعشر مرات ومحاولات إتقان التلاوة والتجويد، وانتظارعودة القطيع إلي الحظيرة، وبينما كان كبير القرية منشغلا بأكل الرمان كان الوقت قد فات وضاعت البقرة. وجدت البقرة ملقاة بلا حياة، بجانب أحشائها وكروشها شبه الفارغة، وقد جُردت من رأسها وجلدها. عيناها الكبيرتان المفتوحتان، المنفصلتان عن جسدها تحدقان في الدم المتناثر علي الأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار الصنوبر والجوز في صدمة من الموت. وفي الأرجاء كانت الديدان والمخلوقات تزحف لنهب الجثة – الصغيرة منها وكذلك الأكبر حجما.

كان الرجل قد أشعل نارا صغيرة بأغصان مكسورة وأوراق جافة، يفرك يديه ليبعث فيهما الدفء حين سمع فجأة أصواتا ورأي مجموعة تقترب من بين أشجار الغابة الصغيرة. كان في مقدمتهم شيخ، كبير القرية، أحمد و سيد و السيدة معصومة، وجعفر الذي كان قد تلقي مؤخرا ركلة حمار قوية بشكل مفاجيء، وما زال يده ملفوفة ومعلقة برقبة شال اليد برائحة البيض الفاسد والكبريت، راكبا علي نفس الحمار. وخلفهم كانت زوجته وأخوها، الذي كان يتقدم بخطي سريعة. وما إن وصل قبل الآخرين حتي صفع صهره بقوة علي وجهه، شتمه وأعقبه بركلة.

انهالـوا عليـه بالـضرب. كانـوا قـد جـاؤوا لإنقـاذ البقـرة مـن المـوت، لكـن بعدما فـات الأوان، أفرغوا غضبهم عليـه بدلا منها. ضربـه الجميـع، حتـي جعفـر، حتـي قـرب بغلـه وضربه مـن فوق بقدمـه الأقـل ألفـا عـلي كتيفـه ورقبته. أمـا الكائـن الوحيـد الذي لم يـؤذه في تلـك اللحظـة فـكان بغـل جعفـر الـذي لم يجـد مسـاحة كافيـة للحركـة في ذلك الازدحـام. حتي زوجته شـاركت في ضربه اسـتمرت في ضربـه حتي أنهكهـا التعب وسـقطت، لكنهـا قبل أن تسـقط تأكدت أن تمثـل دور الإغـماء بإتقان. عندما سـقطت المرأة، أتيحـت الفرصـة للتخفيـف مـن التعـب، أطلـق سراح الرجـل. أمسـك احمـد بجعفـر وأنزلـه مـن فـوق البغـل ثـم أخـذ السـيد المـرأة ووضعهـا عـلي بطنهـا فـوق ظهـر الدابـة وأعطـي زمامهـا للسـيدة معصومـة. بعـد ذلـك توجه نحـو جثـة الحيـوان المذبوح. أمسـكوا بأرجلـه وسـحبوه وهـم يـرددون "عـلي، علي" أمـا جعفر الـذي كان يشـتكي من قلـة الدواب. فقـد حصل أخيرا علي سـاق بقـرة، وأظهـر كأنه يسـحبها بـكل قوتـه، وكان يعرج أثنـاء مرافقته للجميـع، عـلي أمـل أن يحصـل عـلي نصيبه.

كان الرجـل في ظلمـة الليـل يفـرك ذراعـه المصابـة، لم يكـن يشـعر بـألم ولا يـري دمـا أو كـسرا. هز كتفـه مـرة واحـدة، وقال: "هـه". وهـو يـدرك أن كل هـذا لا يعـدو كونـه تفاصيـل صغيرة. لكنـه كان عـلي يقـين مما هـو أهـم. كان يراهم كيف يسـحبون الجثة

بقـوة. زعـماء القريـة وأقاربه المقربـون كتفا إلي كتف، يقـودون بقرة نحيلـة (هزيلـة) قُدمت للتضحيـة، أمعاؤها خاويـة وجافة كقرونها بسـبب شـدة الجوع. كانـت التضحيـة في الأصـل لهم لكنهـم الآن يجرونهـا عـلي الأرض كما لـو كانـوا ينهبونها.

بجشـعهم، أو ربـما بفعـل صرخاتهـم "عـلي! عـلي!". جذبوهـا بعنـف حتـي تجـاوزوا البغل الـذي كان يجره. ثـم ابتعـدوا، تاركين خلفهـم أثـر جر الجثـة عـلي أوراق الخريـف المتناثرة، ونـارا صغيرة بـدأت تخفت شـيئا فشـيئا، ورأس البقـرة المسـكينة مقطوعا بجرح غـارق في الـدم، وحنجرتهـا المبتـورة إلي نصفين. كانت عـين البقرة تحدقـا، ربـما فيهـم، او في الجثة التـي كانت جزءا منهـا قبل لحظات، لكنهـا الآن انفصلت واختفت وراء أشـجار التـوت بجانب القناة.

كانـت المرأة لا تـزال منهكة علي ظهـر البغـل، وكان زمام البغل بيـد معصومـة، كانوا جميعـا يتبعون ناهبـي القربان، الذيـن لا تزال هتافاتهـم "عـلي! عـلي!". تـتردد مـن بعيـد محجوبـة عـن الأنظـار بسـبب الدخـان الـذي غطـي ألسـنة اللهـب. توجـه الرجـل مـرة أخـري إلي جانـب النهـر ليغسـل يده.

قبـل لحظـات، كان يغسـل الدمـاء والسـكين، أمـا الآن فقـد انشـغل بأشـياء أخـري. وسـط كل ذلـك لم تصمـد النوايـا الطيبـة قليـلا.. غسـل وجهه بالدمـاء. في الوادي، غسـل وجهـه بالماء وفي الـوادي لم يعد للشـمس أثـر، وظلال الغـروب الزرقـاء كانت تمتد

فـوق جـذوع أشـجار الصفصـاف والتـوت. عندما نهـض الرجل مـن جانـب النهـر قـال "آخ" وضـع يـده عـلي ظهـره، ثـم انحنـي قليـلا لتخفيـف الألم، وقـال "آخ" مـرة أخـري كان يحـدث نفسـه "كـم هـم حمقـي لم يفهمـوا شـيئا" حين يكـون القلـب ثابتـا وواثقا لأي سـبب تبدو حماقـة الناس وعـدم فهمهم أكثر وضوحـا_ عادةً أكثـر ممـا هـي عليـه في الواقع.

كان يـري قبـل سـاعة أن كل ما يملكـه في هذه الدنيـا لا يتجاوز قطعـه صغـيرة مـن الحقـل، وبقـرة، وزوجـة، وقلـة مـن المعـارف والأرقـاب. لكـن في هذه الفـترة القصيرة تغير كل شـيء. الأقارب أصبحـوا غربـاء، الزوجة تركته، البقرة اختفـت، ولم يعد بحاجة إلي الحقـل. ولكـن ما أهمية ذلك؟ فقد أصبح وكأنـه في حلم أو حكاية، يملـك الذهـب والبحـار المليئـة بالجواهـر، والثـروات التي حصل عليهـا. لم يعـد وحيـدا... أو ربـما كان الأفضـل أن يكـون وحيـدا.

هـؤلاء الذيـن خضعـوا للاختبـار أثبتـوا أنهـم لا يسـتحقون قرابتـه، ولم يكونـوا أهلا لها. تكفيه ابتسـامه سـاخره ليـدرك ذلك. ابتسـم بسـخرية، وأسـند ظهـره إلي جـذع شـجرة صفصـاف، وانزلـق ببـطء حتـي جلـس عـلي الأرض ثـم أطلـق ابتسـامه سـاخرة أخـري ، وكأن كل شـيء بـات واضحـا في عينيـه.

ثـم سـمع صـوت خشخشـه. التفـت برأسـه، فـرأي أحمـد علي ابنـه الصغـير يحـدق بـه بخـوف وارتبـاك وعندمـا ادرك الطفل أن

والـده قـد رآه، غـص بالبـكاء ولم يسـتطع أن ينطـق بكلمـة. كان الطفـل قـد بقـي وحيـدا في المنـزل بعـد أن شـاهد والديه يغـادران معـا بعـد عـودة والـده بفـرح وضجيـج، شـعر بالملـل خـرج مـن الفنـاء يلعب ويمـشي، حتي رأي والده أسـفل التـل يجمع الأوراق وينفـخ فيها ليشـعل النار. بدأ الطفـل ينزل التل بحـذر متجها نحو والـده، لكنـه فجـأة رأي الهجـوم. أصابـه الخـوف ووقـف عاجـزا أمـام ضعفـه كطفـل بـلا قـوة، حتـي إن دموعـه لم تسـعفه وبعد أن انـصرف الآخـرون، رأي والده وحيـدا. لم يجرؤ عـلي التحرك. كان خوفـه هـذه المـرة مختلفـا، خـاف مـن وحـدة والـده. ثـم أدرك أن والـده قـد رآه. الرجـل رأي طفلـه. اندهـش وقال:"تعال يـا بني، أيـن كنت؟"لكـن الطفـل وسـط بكائه و شـهقاته كان يـردد: "لن أتي". أمسـك الرجـل بطفلـه واحتضنـه وقبّلـه كان يقـول: "مـاذا حـدث؟"لا تبـك. لا تبـك يـا أحمد يـا بنـي، لم يحدث شـيء"لكن الطفـل كان يبكـي بحرقـة. فقـال الرجـل :"لمـاذا البـكاء؟ هـل الرجـال يبكون؟"ثـم مسـح دمـوع الطفـل عـلي وجنتيه.

وأضاف: "لم يحدث شيء"ثم تساءل في نفسه: "وماذا قد يحدث أيضـا؟ لابـد أنـه رأي عندمـا ضربوني."فقال: "أيـن ضربوك؟ من يكـون هذا الكلـب؟ أن يضربوني أنـا؟ ليحلموا بذلـك! تبا لهم!". كأنه وجد الحل في الانكار، أو طريق المواجهة في الادعاء والتحدي.

ثـم قـال: "لا تبك. سـأذهب لأشـتري لك شـيئا. مـاذا تريد أن أشـتري لـك؟"لم يكـن الطفل يعـرف معني الـشراء، لكنـه أجاب: "لا شـيء"كان جوابـه النـافي رفضـا مطلقـا لـكل شـيء. لم يكـن هنـاك فـرق في طبيعـة السـؤال، إذ كان الجـواب دائـما نفيـا قاطعـا. كان الـرد لا علاقـة لـه بالسـؤال، بل تعبـيرا عن الحـال. لكن الأب سـأل :"ماذا اشـتري لـك؟"ولم ينتظر الإجابـة المعتـادة التي كانت دائـما "لا شيء"فسـأل مـرة أخـري: "هـل أجلـب لـك ملابـس جديدة؟"ويتخيلـه ألبسـه ملابـس جديدة.

لكـن دمـوع الطفـل لم تتوقف. سـأله: " هل تريد قوس وسـهم (لعبـة السـهم) وتخيلـه وهـو يصـوَب نحـو الهـواء، كان الطفـل يبكـي بحرقـه. سـأل: "هـل تريـد سكينا؟"وشـق بخيالـه الهـواء، كان الطفـل يشـهق. سـأل: "هـل تريـد ألعـاب نارية؟"وكأنه فجر الهـواء. لكـن الطفـل هـز رأسـه بالنفـي. قـال الأب: "لا تبكـي. سأشـتري لـك نايًـا صغـيرا بنفـسي. هـل تريـده؟ ولكـن الإجابـة بقيت كـما هـي: "لا".

كآن الطفـل أراد شـيئا ولم يـصرح بذلـك، فقـال الرجـل مـرة أخـري: "سأشـتري لـك نايـا، لا تبكي."ثـم قبّلـه. ولكنـه عندما أراد أن يشـتمه بتلـك العاطفـة البسـيطة من التعلـق. وصلته رائحة أخـري ــ إمـا آتيـه مـن بعيـد مـع الهـواء النقـي للـوادي، أو مـن أعـماق افـكاره المخفيـة. استنشـق الرائحـة، تغـيرت نظراته فسـأل

طفلـه الـذي كان علي الأقـل الآن البراءة نفسـها أمامه: "هل تشـم الرائحـة؟ هل تشـم؟".

لكنـه هـو قد شـمها وكان ذلـك كافيا. قـال: إنها رائحـة كباب. يشـوون الكبـاب، رائحة الكباب تـأتي من كل مـكان. "كان الطفل يبكـي بهدوء.

الرجـل ببـطء وبتقطـع، اسـتمر قائـلا: لا تبكـي، انظـر، البقرة تقـول. هل تسـمعها؟ البقرة تقـول: "ضحيت بي بلا سـبب لأجل هـؤلاء. أنا جسـدها لكنك قتلتنـي عبثا. قتلتني لأجلهـم أردت أن تعطينـي لهـم، لكنهـم اختطفوني منـك، أخذوني منك "هل تسـمع مـا تقوله البقرة؟ أردت أن تقسـم لحمـي بينهم، فليأكلوه كأنه سـم بينهـم. "لم يكن يُسـمع سـوي صـوت المـاء. الطفل لم يفهـم كلمات والـده، لكـن نبرة صوتـه الحانية أزالـت كل مخاوفه. شـعر بالراحة، وذاب ضعفه في شـعورعميق بالتعلق بوالده. أسـند جسده الصغير إلي صـدر أبيـه، ودفن وجهـه المبتل في دفء أنفاسـه. أما الرجل، قد كان يقـف علي الحـدود الفاصلة بين المحبـة والكراهية. كان غروب الـوادي، ألـوان الأشـجار، تعاقـب الفصـول، القمـح، العصافير، صـوت الماء، وجسـد طفله الصغـير، كل ذلك يمثـل المحبة. كانت تلـك المحبة حـاضرة، مترابطة وعاديـة، لكن الكراهية كانت شـيئا آخـر موجـودة دائـما لكنهـا متفرقـة، سـطحية تظهـر في التفاصيـل الصغـيرة دون أن تقـوده إلي أماكـن بعيـدة. إلا حينـما ظهـرت

السلطة، فجأة ووقعت في يديه أو أنه وقع في قبضتها. في كلتا الحالتين، أصبح ذلك التواضع المفروض عليه، الذي كان درعه الواقي من ضعفه، زائدا عن الحاجة. لكنهم ضربوه، كان تلقي الضرب هذه المرة غير متناسق مع شعور جديد بالثراء الذي انتابه. في الماضي كان تلقيه للضرب يتماشي مع طبيعة كل ما هو حوله، وكان يستسلم له بلا مقاومة. لكن الآن، فقد بدا وكأنه اعتداء. اعتداء ليس علي ذاته القديمة التي اعتادت القبول، بل علي ذاته الجديدة تلك التي بدأت تشعر بقربها من القوة والتفوق والتميز. الذين ضربوه لم يدركوا هذا التغير فيه، لم يروا الاختلاف الذي أصبح جزءًا من كيانه. لكنه، في أعماقه، كان يشعر بهذا التميز. هذا الإحساس خفف من الألم، لكنه جعل الاعتداء أكثر إيلامًا في معناه. لم يعد قادرًا على التسليم، وبدأت الكراهية تتشكل داخله. السلطة، التي كانت لا تزال في طورها الخام، ساعدت الكراهية على أن تتجمع، لتتحول من شظايا مبعثرة إلى شعور واحد متصل. أصبح هذا الشعور يواجه تلك المجموعة الحمقاء الجاهلة التي لم تدرك حدودها. ضربوه وأخذوا منه البقرة. الكراهية التي كانت تتماسك بفعل السلطة أخذت تنمو، وبدأت تولّد مشاعر جديدة، مشاعر لا مكان فيها للمحبة. ومع ذلك، كان الرجل لا يزال يقف على الحافة، بين المحبة والكراهية. قبّل طفله، ضمه إلى صدره، وأبقاه في حضنه للحظة. ثم رفعه، وقف، ومضى في طريقه. كان قادمًا من بعيد.

الجبل شامخ في الأفق، لكنه بدا في ضباب الضوء وكأنه هادئ، شفاف، ينزلق بنعومة وسلاسة. السهل الممتد أمامه كان فارغًا، وخط الطريق البعيد يلمع تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة. فجأة انطلق سرب من الحمام البري، طائرًا بسرعة نحو الأفق، ولم يبَق سوى صوت خفق أجنحته يتردد في السماء الصافية. كان الرجل يضم صندوق إلى صدره بقوة، يخشى أن يسقط منه أثناء انحداره في الطريق المتعرج، فيتحطم أو يصاب بأذى.

الصائغ ألقى نظرة على السلسلة، لكنه كان منشغلاً بالتفكير في الرجل: من هو؟ من أين جاء؟ وماذا يريد؟ بدقة تعكس مهارته المهنية، لكنها في الحقيقة كانت اهتمامه الشديد بالرجل وهويته. أخذ السلسلة من يد الرجل من خلف واجهة متجره المليئة بالمرايا، وأمعن النظر فيها جيدًا. ثم اقترب من حجر المحك لمقياس أصالتها، ومرر السلسلة عليه برفق. أخرج عصا زجاجية مغموسة بماء النار بحذر من زجاجة صغيرة، ومررها على الحجر بهدوء. أعاد العصا إلى مكانها ونظر إلى الرجل بحذر، فتلاقت نظراتهما للحظة، لكن كلاً منهما سرعان ما أدار وجهه. الصائغ عاد بنظره إلى الحجر، حيث أكدت ماء النار ما كان يعرفه مسبقًا، بل وتيقن منه تمامًا. كان الرجل يحدق في الأطباق الفضية والعقود والقلائد الذهبية التي تتلألأ خلف زجاج الخزانة المبطنة بالمخمل، لكن المخمل وأضواء المحل كانت

تجذبه أكثر من تلك القطع الذهبية الصغيرة. أدرك أن الصائغ يراقبه بنظرات مختلفة، لكنه آثر الصمت. كان يعلم أن عليه أن يصبر. أطال الصائغ الصمت عمدًا، مدّه مرة بعد أخرى، حتى أدرك أن الرجل صامد وعنيد. فسأله أخيرًا: ما اسمك؟ تفاجأ الرجل قليلًا، ثم ترك الصمت يطول مجددًا قبل أن يرد بعناد: وما دخلك باسمي؟ تأمل الصائغ قليلًا، وهو يضغط على جناح أنفه، وقال: أعتقد أنني رأيتك في مكان ما من قبل. فقال الرجل: "ربما رأيتني." الصائغ وكأنها المرة الأولى التي يسأل فيها، قال: "من أين أنت؟" كان الرجل ينظر في عينية مباشرة، لكنه لم يقل شيئا. عاد الصائغ يتفحص السلسلة، ينقلها من يد إلى أخرى وكأنه يحاول آن يقدر وزنها وكأنه بلا اهتمام وبطريقة عابرة، سأل: "قلت لي ما اسمك، صحيح؟"

أجاب الرجل: "لم أقل شيئًا، قلت لك ما دخلك باسمي." ثم حدّق فيه بعمق وكأنه يقول: هل فهمت الآن؟ جيد؟ ماذا ستقول الآن؟ ثم أضاف: "إذا لم ترد، أعدها إليّ." تفحصه الصائغ للحظة، بدا كأنه يجهّز نفسه للرد، وقال: "هذه مسروقة."

لم يكن الرجل يتوقع ذلك، فوجئ للحظة وقال: "مسروقة؟" لكنه سرعان ما استعاد هدوءه وقال: مسروقة؟ نعم، هل ستشتري المسروقات أم لا؟ عندما رأي الصائغ أن الرجل عنيد، حرك رأسه، لمعت في عينيه ضحكة خفيفة وقال:

"أنت عنيد، أليس كذلك؟" الرجل لم يكن يعرف هذا المصطلح الذي يستخدمه أهل المدينة، ألقي نظرة علي الصحون الفضية، القلادات، والعقود. ابتسم الصائغ وقال: "قلت إنك قوي ومتين." ثم قبض يديه بقوة ليؤكد معنى الكلمة. فهم الرجل مغزى الكلام ورضي دون أن يقول شيئا. قال الصائغ: "اسمع، سأخبرك شيئا." حوّل الرجل نظره نحو الأقمشة المخملية. قال الصائغ: "هذه المرة الرابعة التي تجلب لي مثل هذه الأشياء." نظر الرجل إلى القلائد بعد أن حوّل نظره عن المخمل، لكنه فجأة تذكر وقال: "ألم تكن تقول إنك لا تتذكر أين رأيتني من قبل؟" ابتسم الصائغ وقال: "رائع. سأكون صريحًا، أنا خائف منك، أخافك بالفعل. أريد أن أشتري منك، لكن بصراحة أنا خائف.".

أعجب الرجل قليلاً بهذا الكلام، وشعر ببعض الزهو. وكان هذا تمامًا ما يريده الصائغ. ثم قال الصائغ: أخاف منك، حقًا. أرى أنك ذكي جدًا، قوي، عقلاني. أخشى أن تكون أذكى مني. خذ هذه الأشياء، لكنني لا أستطيع اتمام الصفقة معك حتى أشعر بالراحة تجاهك. أنا خائف منك، هذا هو السبب. بينما كان يحدق في عيني الرجل، دفع السلسلة على سطح صندوق المرآة باتجاهه، وقال: "أعطها لأولئك الآخرين الذين بعت لهم من قبل." الرجل لم يكن يعرف ما يجب عليه فعله الآن، وكان يتوخى الحذر خشية أن يكون الأمر خدعة. ظل يحدق فيه دون

أن يأخذ السلسلة منه. عندها قال بهدوء: "لم أبعها لأي أحد." الصائغ، الذي كان لا يزال ممسكًا بطرف السلسلة، كان يعلم أن الخطاف سيعلق بها. رفع يده وقال: "إذا أردت بيعها لأي شخص – كن حذرًا. انتبه."

كانت السلسلة مستلقية كحلقة على الزجاج، جاهزة. قال الرجل: "أي حذر؟ إنها ليست مسروقة."

الصائغ، بنبرة الناصح الأبوي، قال مرة أخرى: "كن حذرًا." لم يكن لدى الرجل ما يقوله سوى أن يخفض السعر، لكنه لم يذكر شيئًا عن السعر ولم يكن يعرف ما يقوله. فظل صامتًا. الصائغ كان يرى مسار تفكير الرجل، فقال بطريقة غامضة: "هل قال لك الآخرون كم قيمتها؟" أجاب الرجل بنبرة مليئة بالصدق والتوتر: "لم يرها أحد. جئت إليك مباشرة." الصائغ، بمكر، أصر مرة أخرى وقال: "أولئك الآخرون... أولئك الأكثر عددًا." بدأ الرجل يتوسل تدريجيًا، رغم أن كلماته كانت تحمل نبرة اعتراف حازم، وقال: "لم أذهب لأي مكان آخر. منذ البداية جئت إلى متجرك. كنت أمر من هنا ونظرت، ورأيت أنك رجل عاقل، فجئت إليك. الأولى اشتريتها بسهولة، واللاحقة أحضرتها مباشرة إليك." كان الأمر قد انتهى. الصائغ كان يعلم أنه يجب الآن دفع ثمن هذا الاعتراف الملتمس بسرعة، حتى لا يبقى أي شعور سلبي قد

يتسبب بخسارة مستقبلية. فقال: "ألم أقل لك إنك عاقل؟ لم أقل ذلك عبثًا. قلت لك إني أخاف منك لأنك عاقل. أنت عاقل جدًا. الحمد لله أنك عاقل." ثم مد يده وأخذ السلسلة مرة أخرى وسحبها نحوه وقال: "يمكننا العمل معًا بشكل جيد... إذا كان لديك المزيد." انفتح الرجل وقال بسرعة: "لدي المزيد -" لكنه توقف فجأة. ثم بحذر وبنبرة توحي بأنه غير متأكد أو كأنه يشك بنفسه، قال: "هل لدي المزيد؟." قال الصائغ: "أنا ما أعرف... من أعطاك، كم أعطاك، كم لديك، الله يبارك فيك." وكان يدير السلسلة بين أصابعه. ثم سأل: "هل أحد يعلم إذا كان لديك المزيد؟. أحس الرجل أن الصائغ قلق بسبب سؤاله، وأنه قد تنازل لأنه راض بحصته البسيطة، ولا يهتم من أين جاء المال أو كم هو.. استسلامه وقلقه وقناعته التي رآها فيه جعلته مطمئنًا. تعويض ضعفه وقلقه السابق عن نفسه، جعله أكثر قوة. جلس بثبات ورأى المستقبل أمامه، فقط عليه أن يكون حذرًا، ألا يفرط في التوتر، وألا يخاف من خطط الآخرين، لكن لا يجب أن يخاف من الآخرين أنفسهم. انظر إلى الصائغ كيف كان يترقب، مثل قطة تحدق في جحر فأر، تنتظر. خف من نيته، ولكنك تعلم جيدًا أنك يمكنك استخدامه لصالحك، اصطياده، ويمكنك أن تجعل الأمور تدور لصالحك، فقط عليك أن تكون حذرًا. ثم نظر في عيني الصائغ الثابتتين، وأجاب بثقة، مهددًا وموعدًا: "أنا والله."

كانت عين الرجل تبدو أوسع من وجهه كله، وكأنها وحدها، داخل إطار معدني دائري، قد احتلت كامل ملامحه. لكن عندما أبعد العدسة المكبرة العريضة، عاد وجهه إلى حالته الطبيعية، وجه نحيف وعينان عاديتان متشابهتان. وضع الرجل كأسًا صغيرًا من الذهب المنقوش على الطاولة أمامه، ثم أنزل نظارته التي كانت مثبتة على جبهته، حتى غطت زجاجاتها الداكنة عينيه. عندها، اختفت ملامح وجهه تمامًا، لم يعد هناك أي تعبير يمكن قراءته أو حتى تخمينه، فقد بات جامدًا بشكل كامل. لم يبقَ سوى صوته، كان الصائغ يترقب الكلمات، ينظر إلى شفتي الرجل بانتظار ما سيقول. أخيرًا، تحركت الشفتان وقالتا: "هذه المرة نظيف." ابتلع الصائغ ريقه بصعوبة. تحركت الشفتان مرة أخرى تحت النظارة الداكنة وقالتا: "يحاول أن يخدع؟" رد الصائغ بصوت متردد: "يطالب بسعر مرتفع أيضًا." قالت الشفتان بثبات: "لا يحق له ذلك. اجعله يبيع بالمثقال فقط، لا تشترِ القطع. لا تدعه يعرف قيمة ما يملك. سعر المثقال، مهما كان، خمسة ريالات وعشرة قروش، تفاوض على السعر صعودًا ونزولًا. لكن لا تشترِ القطعة. اشترِ بالمثقال فقط."

قال الصائغ: "وماذا لو لم تُغسل الزخارف التي بداخلها؟" مد الرجل يده، التقط صحيفة من الطاولة بجانبه، ووضعها فوق كأس الذهب. ثم قال: "إن لم تُغسل فلا تُغسل. لا تطمع. حتى

لـو أصبحـت ثقيلـة، كم سـيزيد وزنهـا؟ عندمـا يحضرهـا، حرّكها قليـلًا، ثـم قـم بوزنهـا. "كان الصائـغ يـدرك أنـه لا يسـتطيع رؤية مـا وراء الزجـاج الداكـن. فطأطـأ رأسـه. سـأل الصـوت: "كيف تبـدو؟ كـم عمرها؟"

كان الصائـغ مـترددًا. كان يعلم أنـه يجب أن يكون حـذرًا، لكنه لم يكـن يعـرف ما الذي سـيفكر فيـه الرجل الجالس أمامـه الآن، أو إلى أي مـدى سـيصدق ادعاءاتـه وأكاذيبه، وما الذي سـيفعله إذا لم يصدقـه. رغـم أنـه كان يعرفـه منذ سـنوات طويلة، إلا أنـه لم يرَ فيه شـيئًا سـوى تجسـيد غامـض لانتظار مخيـف ومهـدِّد، أو هكـذا بدا لـه. حتـى عندما لم يكن يـراه، كان يشـعر بوجـوده. في العمل، كان حضـوره يضغـط عليه ويشـعره بالاختنـاق، لكنـه كان دائـمًا يلجأ إليـه طلبًـا لحل مشـاكله المسـتعصية، ويلتمس منه العون والشـكر. وعندما كان يذهب إليه، كان دائمًا هناك مسـافة تفصل بينهما، حاجز دائـم الوجـود، معتم لكنـه لامع، رقيـق لكنه غير قابـل للكسر. أو عـلى الأقل هكـذا كان يبدو – تمامًا مثل عدسـات النظـارة الداكنة.

لم يجـد الصائـغ حيلـة سـوى الكـذب. قـال: "إنسـان طويل... طويـل جدًا"

وأشـار بيديـه ليصـف طول شـخص قـروي قصـير، وأضاف: "عريـض الكتفـين... في الخمسـين. "لكن النظـارة لم تتحـرك، ولا تزال سـوداء عائمة في الفراغ. ثم قالت الشـفاه : "من أي بلد هو؟"

كان صائـغ الخرائـط يغـيّر مواقع المدن عـلى الخريطـة بالكذب. قـال: "أظـن أنـه مـن جهـة كرمـان جنـوب شرق إيـران. أسـتنتج ذلـك مـن لهجتـه، لكنـه يدّعي أنه مـن كاشـان في محافظـة أصفهان وسـط إيران."

أزاح الرجـل الصحيفـة جانبًـا ليظهـر الكأس. ربـما كانت عيناه تعيـدان النظـر في الكأس، وربـما أدرك الكذب. قـال الصائغ: "ربما هـذا ليس الشـخص الحقيقي." وبنظـرة ماكرة وغامضـة، تجمع بين مراقبـة النظارات وترقب الشـفاه، ظل ينتظر إشـارة صغـيرة، نوعًا مـن الرفـض أو القبـول. لكـن النظـارات لم تتحرك. قـال الصائغ: "لـو كان الشـخص الحقيقـي، لكان الأمـر واضحًا." بقيت الشـفاه ثابتـة، والنظـارات معلقّـة بـلا حـراك. قـال الصائـغ: "الشـخص الحقيقـي يمكن تمييزه بسـهولة، وعندهـا تكون الأمـور واضحة."

ثـم، بنظـرة أكثر دهـاءً وصدقًـا في مكرها، أضاف: "أخشـى أن يقع في أيـدي الآخرين."

خلـع الرجـل نظارتـه عـن وجهـه ومسـح عدسـتيها بمنديـل أخرجـه مـن جيب سـترته العلوي. بـدت عيناه، بلا نظـارة، كحُفر متجعـدة عـلى وجنتـي شـيخ كبير السـن بـلا أسـنان، كأنّـه لم يخلع النظـارة مـن أجـل تنظيفهـا فقـط؛ حتى بـلا نظـارة، لم تكـن هناك نافـذة تكشـف شـيئاً عـن إحساسـاته، ولا عـن عمق مشـاعره. ثم قـال: "أخشـى أن تفسـد الأمـر." رد الصائغ بسرعـة: "حتى الآن

أنا من جلبه. هذه هي المرة الثامنة التي أحصل فيها على مثل هذه القطع، وجلبتها لك." ثم ابتلع ريقه بصعوبة وأضاف: "لكن... أخشى أن تقع في أيدي الآخرين." لم يظهر أي تغيير في تلك الحُفر المتجعدة، فقط قال الرجل بصوت ثابت: "لا يوجد آخرون." حاول الصائغ أن يبحث عن نظرة أو تعبيرًا في عينيه، لكن الرجل أعاد النظارة إلى وجهه بثبات. ثم أمسك بالكأس الذهبية الصغيرة، وقف، وغادر خلف الطاولة. في الضوء الخافت الذهبي والأحمر، في المساحة الواسعة التي كانت مقر عمله، وبينما كان يمر بجانب أشياء قديمة ومهجورة، قال بصوت بدا أقل حدة لكنه ظل يحمل نفس النبرة القاسية: "إلى أين يمكن أن تذهب؟ أي مكان تذهب إليه، لن تهرب منا. أينما ذهبت، في النهاية ستنتهي هنا."

لو فكر ولو للحظة في ارتكاب أي خطأ، سيقع في قبضتنا مباشرة!"

كان قد وصل إلى الطرف الآخر من الجدار في مكان عمله، منشغلاً بفتح قفل الخزنة الكبيرة. عندما فتح الباب ووضع الكأس الذهبية داخلها، لم يكن الصائغ يراه بوضوح. وحتى لو رآه، كان ذلك غير ضروري؛ صوته كان كافيًا. قال الصوت: "إذا كان عاقلاً، فإنه دائماً يعود إلى مكان واحد فقط! يعود إليك. أنت تعرف ذلك جيداً. تعرفه تماماً. ومن الجيد أن تبقى مدركاً

لهذا. "ومع أن نبرته أصبحت أكثر ليونة، إلا أن تلك الليونة أضافت إلى حدة إحساسه وقسوته. ثم قال: "إذا أفلت، تذكر هذا جيداً! إذا أفلت، فسيكون ذلك من بين يديه هو. وأنت حينها ستكون الوحيد الذي يقع في الفخ." "انتبه جيداً، لا تكن أنت الضحية!" ثم في نهاية صمت طويل وممتد، جاء الصوت الثقيل لإغلاق الباب، يليه صوت دوران قفل الرقم السري.

في البيت، كان الصائغ يتحدث إلى زوجته ليلاً قائلاً: "أعرف أنه يريد إخافتي، لكن لا أظن أنه يكذب. أو على الأقل يبدو أنه قادر على التفاهم مع الكبار (الاشخاص ذو نفوذ) . هل يمكن فعل شيء دون الكبار أصلاً؟.

كانت الزوجة تشرب الشاي، استمعت جيداً، فكّرت ثم قالت: "إذا أردت أن تخاف بلا سبب، فلا فائدة من ذلك." كان الصائغ يخلع ملابسه وقال: "أخشى أن لا يتحقق الأمر." قالت الزوجة: "حتى الآن كل شيء تحقق."

أخرج الصائغ رداءً من الخزانة وبدأ يرتديه وقال: "حتى الآن، كل ما كان ينبغي فعله، فعلته. كل ما أُحضر، غسلته بالماء ليكون نظيفاً من الأوساخ. قلت إنه من كرمان، وقلت إنه يقول إنه من كاشان. لم يصدق أنه يقول الحقيقة. ولم يظن أنني أكذب، أو على الأقل أظن أنه لم يظن ذلك." دخلت الخادمة ومعها كوب شاي جديد، أخذت الكوب الفارغ السابق وغادرت.

قال الصائغ مرة أخري: "لكن إذا فكّر أن يصبح مساعده ـ انتهى الأمر. هذا الرجل الذي يلاحقني، يلاحقه أيضًا. وهو متحالف مع كبار النفوذ أيضًا."قاطعت الزوجة حديثه، ونهضت قائلة: "كن شجاعًا! افعل عملك. امضِ وشاهد إلى أين يمكنك الوصول. كلما كان مقدرًا أن لا يتحقق، سيظهر بسرعة. أراد الصائغ الهروب من كلام الزوجة وإصرارها المستفز، فقال: "الوقت الآن هو الأسرع!"وغادر الغرفة. ذهب إلى الحمام، وهو يردد بصوت عالٍ: "لو كان الأمر لمرة واحدة فقط، لقلنا إنها مجرد مرة وستنتهي بسرعة. لكن الآن، إذا تحركت، أخشى أن ينقلب رزقي رأسًا على عقب. يدي ليست ممسكة بشيء على الإطلاق. إذا تحركت، قد أجد نفسي أهوى إلى القاع تمامًا."ودخل المرحاض وجلس على فتحة الصرف. تبعت الزوجة الباب وقالت من الخارج: "أين قاع أعمق من هنا؟ ماذا يعني لن يتحقق؟ لماذا لا يتحقق؟ اجتهد، وسيحدث!"

الصائغ الذي كان يبذل جهده، بينما يحاول بصعوبة، وبشيء من اليأس قال: "ربما بذلت جهدك... ولم تنجح أيضًا."على بعد أميال، كان رجل قروي منشغلًا بجمع قطع الذهب التي كان يضعها في وشاحه. الصائغ توضأ، وعاد إلى الغرفة، وأخذ سجادة الصلاة وفرشها في زاوية، وبدأ يقرأ الأدعية بصوت خافت. كانت المرأة ترى أن الوقت يُهدر بلا فائدة، فقالت

بغضب: "لقد تعبت من بطئك وتخاذلك! أنت ضعيف، بلا شجاعة. لا تستطيع أن تقطع الطريق في منتصفه. تريد أن ينجح عملك، تتمنى ذلك ولكنك لا تملك الجرأة. العمل الذي تخاف أن تقوم به بنفسك، تتمنى أن يتم لوحده. الله قدّر لك، ولكنني أنا من يجب أن أعطيك القلب والشجاعة؟."أقام الصائغ الصلاة وقال: "الله أكبر."

من خلف زجاج الغرفة، في ظلام الليل، كانت تظهر ملامح رجل غريب. كان للرجل جبهة عريضة واضحة. كان لديه لحية وشارب رقيقان، وعينان حادتان زرقاوان، لكنهما بدتا سوداوتين في الصورة. ومع ذلك، كان يمكن رؤية بريق الذكاء حتى في الصورة. الرجل الغريب، الذي كان يحمل رمحًا ويحركه، كان يضحك لأنه رأى كلمات المرأة متكسرة، مثل تلك المرأة التي صممها هو بنفسه للعرض المسرحي منذ سنوات، بل قرن من الزمان. لو لم يكن الصائغ يصلي، ربما دخل الرجل الغريب ليشاهد المرأة، لكنه رأى هذا الفعل من الصائغ إهانة للقيمة واحتقارًا للإنسانية. كان مستاءً من التمجيد الذي يولد عن الخوف والطاعة العمياء، كان يقول: "إن الاحترام للخالق ينبع من الخلق نفسه وفي حدود المخلوقات فقط. وبالنسبه له كانت متعة الحب هي الصلاة الحقيقية."لكن في تلك الغرفة، لم يكن يري أي أثر للحب. لوح بيده ورمحه قائلا "تصبحون

عـلى خير" وذهـب، ثم اختفـي مـع الريـاح. كان الصائغ مشـغولًا بعـادة الصـلاة، بينما واصلـت زوجتـه الحديث: "حظك كان سـيئًا عندمـا جـاء إليـك، كان في حلـم. جاء إليك هـذا الأحمـق. إذا فتح عينيـه سـيرى وسيشـعر بالنـدم. القـروي جـاء إليـك، ثـم ذهـب إلى جانبـه؟ أنـت دائـمًا تفكـر في تلـك الأفـكار الملتوية. هـل يمكن أن يكـون التفكـير بهـذه الطريقـة؟ هـل يمكـن أن يكـون خوفًا أو سـذاجة؟ مسـتحيل! هل يمكن أن يخدعك؟ لا، أنـت اخدعه. أره الخـوف. انظـر من أيـن تأتي الريـاح ووجهها في نفـس الاتجاه. الآن أنـت في المقدمـة، لا تفعـل شـيئًا يجعلـك تتأخـر أو تعـود للخلف. هذا السـاذج يعـرف كل شيء عنـا، لكننا أيضًا نعـرف كل شيء. لا تجعلـه يعـرف! لا تدعـه يفهـم مـن هـو الرجل ومـن أين جـاء. ما أحـضره الرجل، لا تعطـه إياه بسرعة. أعطه الأشـياء السـيئة أولاً. إذا قـال لـك اشـترِ بالميـزان، فبِـع لـه بالميـزان. بِع لـه أشـياء يمكن بيعهـا بالميـزان. اكسرهـا، حطمهـا، أذبها، امحُ نقوشـها. الأسـاس هـو ذلـك القروي نفسـه! عليك أن تتمسـك به بكلتـا يديك، وتجد طريقـة لتقييـده وإبقائـه تحت سـيطرتك. ليـس هذا فقط، بـل تأكد أيضًـا أن لا أحـد آخـر يتبعـه أو يأخـذه منك!"

كان الصائـغ في آخـر صلاتـه، فقال "أشـهد" ثم قال: "السـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاته" تقبل الله.

مـن القريـة إلى سـفح الجبل، ومن سـفح الجبـل إلى السـهل. في السـهل كان هناك طريق يمتد في كلا الاتجاهـين إلى المدن. كان عليه أن يقطـع الطريق حتى المنعطف سـيرًا على الأقـدام. هناك، بجانب المقهـى، كان ينتظـر حتى يجـد مكانًا فوق الحمولة (عـلي البضائع)، أو بجانـب السـائق إذا وجـد مسـاحة. كان يركـب ويذهـب. كان يفضـل الجلـوس فوق الحمولـة. هنـاك، كان وحـده، أو في الغالب وحـده، ولم يكـن أحـد يسـأله عـن محتـوى ممتلكاتـه التـى يحملها، أو عـن موطنـه، أو إلى أيـن يذهـب، أو عـن عملـه، أو حتـى عـن اسـمه. فـوق الحمولة، رغـم تكـرار الذكريات التـي تـراوده دائمًا، كان بإمكانـه رؤيـة السـهل والطريـق بأكملـه. كان يسـتطيع أن يسـتلقي عـلى ظهـره وينظر إلى الغيـوم والسـماء، أو أن يمدد نفسـه عـلى بطنه ليهـرب من التعـب بالتفكـير والتأمل. سـواء كان يمشي أو يركـب، فوق الحمولة (الشـاحنة) أو بجانب السـائق، مسـتيقظًا أو نائـمًا، كان يمسـك بممتلكاتـه التـي كانت ملفوفـة بقطعة قماش أو موضوعـة في حقيبـة، عـلى صدره بإحـكام. ممتلكاته كانـت دائمًا تسـافر مبـاشرة مـن القريـة إلى المدينـة أما مـا كان يعود مـن المدينة، فـكان في كيـس صغـير معلق عـلى رقبته، مخفيًـا تحت قميصـه. كان يأخذهـا حتـى مـا وراء التلال. هنـاك، كان يدفنها تحـت الصخور، ويغـيّر أماكـن دفنهـا باسـتمرار. الآن كان يقـف بجانـب الطريـق ينتظر شـاحنة لنقـل البضائع. بالقـرب منه، بجانـب المقهى، كانت عربـات الـركاب، وشـاحنات البضائـع، وحافلـة كبـيرة فارغـة

تلمع تحت أشعة الشمس، بينما كان ركابها يتناولون الغداء تحت سقف مصنوع من الخيزران حول بركة صغيرة مغطاة بالبلاط الأزرق. كانت النافورة ترقص وترنم فوق الماء، وصوت الملاعق والشوك كان يتداخل مع زقزقة العصافير التي تجلس على أغصان أشجار السرو والرمان بجانب غرف المقهى. في المطبخ، كان صاحب المقهى منشغلاً بتدخين النرجيلة، عندما فجأة رأى الرجل. لقد رآه ذات يوم يجلس على عتبة المقهى ثم يركب ويغادر. وبعد بضعة أيام، رآه مرة أخرى. ومرة أخرى، ثم مرة أخرى. بدأ يتساءل في نفسه: "من يكون هذا الرجل الذي لم أره من قبل، ولكنه الآن يظهر هنا باستمرار؟" فكر: "إنه ليس بائعًا متجولًا، لأنه لا يحمل معه أي شيء من المدينة. وهذه الحقيبه الصغيرة التي يجلبها من القرية ولا يعيدها، ليست مشمشًا مجففًا، ولا فاصولياء، ولا حمصًا، ولا أي شيء يمكن أن يكون شيئًا حقيقيًا. إذن، ما هي؟" ثم فكر: "دعك من الحقيبه، من هو أصلاً؟ ما عمله؟" وعندما رأى الرجل قال: "آه! ها هو قد ظهر مرة أخرى". ثم بسرعة وضع النرجيلة جانبًا وركض نحوه قبل أن يغادر، ليمسك به ويسأله ويكتشف من هو. هذا الفضول كان يقتله! لكنه في منتصف الطريق توقف، وأعاد ترتيب نفسه، وقال بهدوء لكن بصوت عالٍ: "تفضل." ثم كرر: "تفضل، اجلس."

الرجل أدار رأسه ليرى إن كان هناك أحد ينظر إليه. رأى قهوجيًا يقف عند العتبة يدعوه للجلوس. خلف القهوجي كان هناك زجاجة كبيرة من البيبسي، أكبر بعشر مرات من حجم القهوجي، متربة ومشققة، معلقة على الحائط. قال الرجل: "تسلم."اقترب القهوجي حتى وصل إلى تحت ظل السقف المصنوع من الخيزران، وقال مجددًا: "تفضل اجلس، قد تتعب."قال الرجل: "تسلم"، وصعد درجات العتبة. القهوجي، بحسن نية وبحثًا عن زيادة في حسابه، قال: "إذا أردت، اجلس في الداخل، فالجو بارد بالخارج."الرجل جلس على الكرسي بجانب الدرج وقال: "إذا جلست في الداخل، لن أتمكن من رؤية السيارة عندما تصل."القهوجي، وهو يفكر في الحساب ويحاول البحث عن كلمات لمواصلة الحديث، نادى بصوت عالٍ: "حسن، شاي!"ثم جرّ كرسيًا وجلس عليه، وأسند ظهره على الطاولة الحديدية وسأل: "هل أنت ذاهب إلى قزوين أم رشت؟"الرجل، وهو يمسك بحقيبته على ركبتيه وينظر إلى الطريق، قال: "ذاهب إلى طهران." أحضر مساعد القهوجي الشاي. تردد الرجل في أخذه. دفع القهوجي الكوب نحوه وقال: "بسم الله."

قال الرجل: "تسلم."

القهوجي وهو يراقب الرجل وحقيبته، قال: "تفضل، اشرب، الجو بارد، سيعجبك."

الرجل، بشيء من الامتنان، أمال رأسه قليلاً، وضع قطعة من السكر في فمه، وصب الشاي في الصحن، ثم نفخ عليه ليبرده. القهوجي استند أكثر سأل القهوجي: "من أي قرية أنت؟" ثم ركز عليه بنظرات دقيقة، منتظرًا إجابته.

قال الرجل: "حسين آباد". سأل القهوجي: "من أي قرية أنت؟" ثم ركز عليه بنظرات دقيقة، منتظرًا إجابته، قال الرجل: "حسين آباد." واصل القهوجي طرح الأسئلة بشكل عشوائي وقال: "ألم تتوقف أعمال البناء في المدينة؟" كان ينتظر الجواب، لكنه سمع الرجل يحتسي الشاي بصوت عالٍ. الرجل هز كتفيه مرة أخرى دون إجابة، دليلاً على جهله بالأمر. القهوجي، وكأنه لم يكن مقتنعًا تمامًا بأن الرجل يعمل في البناء، أصبح متأكدًا الآن أنه ليس له علاقة بأعمال البناء. ثم انتقل لموضوع آخر وسأل: "قرية حسين آباد؟" هز الرجل رأسه تأكيدًا.

القهوجي، وكأنه يتحدث مع نفسه، قال: "حسين آباد! منذ سنوات وأنا أجول هنا وهناك، ومع ذلك لا أعرف أين تقع حسين آباد." الرجل أشار بيده نحو الاتجاه وقال: "تلك الناحية، الوادي في الجهة الأخرى، القرية الثانية لا يوجد حتى الآن طريق يمكن أن تسلكه الدراجات النارية."

سأل القهوجي: "هل لديك دكان هناك؟"

ضحك الرجل بسخرية وقال: "لا يا رجل، دكان؟" القهوجي، الذي لا يزال يحاول التماسك، قال: "تذهب إلى المدينة، قلت لنفسك إنك ذاهب للتسوق!." الرجل احتسى الشاي من الصحن مجددًا وقال: "لا"، ثم أضاف: "لدي عمل."

القهوجي كان يحاول معرفة الطريقة المناسبة لطرح المزيد من الأسئلة. ولأنه لم يكن لديه ما يقوله، قال: "قلت إنك ذاهب للتسوق." ثم، وكأنه يشعر بالنعاس، قال مع تثاؤب: "أراك تأتي وتذهب منذ فترة."

فجأة، ارتبك الرجل وأخذ نظرة خاطفة من فوق الصحن بحذر. التثاؤب لم يخدعه، بل زاد من شكوكه. القهوجي، خوفًا من أن ينتبه الرجل، تجنب النظر إليه. لكنه لم يكن يعلم أن الرجل الآن ليس فقط منتبهًا بل أصبح مرتابًا. فقال القهوجي: "قلت إذا كنت ذاهبًا للتسوق، أحضر لي بعض الأشياء أيضًا." الرجل مسح فمه بيده، نهض من مكانه ونظر إلى نهاية الطريق. سأله القهوجي: "لماذا وقفت؟"

الرجل استدار، ومن داخل كيسته، التي يحمل فيها المال، أخرج ورقة نقدية من فئة عشرين ريالًا وقال: "كم حساب الشاي؟" القهوجي لم يصدق أن الرجل قد أصبح مرتابًا، فسأله: "لماذا وقفت؟ هل وصلت السيارة؟" الرجل قال بحزم

وباختصار: "كم الحساب؟"القهوجي رد قائلاً: "لا شيء، لا داعي." الرجل ظل يهز الورقة النقدية أمام القهوجي، فقال الأخير: "السيارة لم تصل بعد، خذ كوب شاي آخر."ثم توجه نحو السماور جهاز تحضير الشاي. ولكن عندما استدار، وجد أن الرجل قد ذهب بالفعل إلى الطريق. القهوجي نظر إلى الورقة النقدية. وبعد قليل، وصلت شاحنة، وصعد الرجل إليها، بينما وضع القهوجي الورقة النقدية في جيبه. كان يعلم أن الرجل لن يعود ليطالب بالباقي. وكان يعرف أنه هو من يجب أن يذهب إلى حسين آباد بنفسه. عندما لاحظ مساعد القهوجي أن سيده يذهب مرارًا عبر الطرق الوعرة إلى قرية وراء الجبل، وأحيانًا حتى سيرًا على الأقدام، بدأ يشك في الأمر. وفي يوم ما، جاء ضابط إلى المقهى لزيارة القهوجي. قال المساعد: "إنه ليس هنا مجددًا."

كان الضابط خبيرًا في تحليل الأصوات، خاصةً إذا كانت تتعلق بعالم الجريمة. بالنسبة له، لم يكن للكلمات حاجة عندما يتعلق الأمر بما هو غير قانوني؛ الصوت وحده كان كافيًا. المساعد لم يحاول إخفاء شعوره خلف كلمات أخرى، لأنه لم يكن يخاف الضابط. بل على العكس، كان يخفي الأمر لجعل الشك يبدو أكثر وضوحًا. الضابط أدرك من صوته أن هناك شيئًا ما، وفهم أيضًا أن ما يجري كان متعمدًا وكأنه دعوة. فقال: "حسنًا، هيا."

مساعد القهوجي ببراءة مزيفة أجاب: "ماذا تقصد؟"

قال الضابط: "تكلم، أسرع!"وعندما رأى أن الشاب لا يجيب، قال: "أأنت أصم؟ أم أنك فقدت النطق؟"أنزل مساعد القهوجي نظره نحو الأرض، وبدأ يحكي قصة ذهاب معلمه كل أسبوع، معبراً عن اعتقاده أن المعلم صاحب المقهي متورط في تجارة الممنوعات. كانوا الآن جالسين في حديقة صغيرة خلف المقهى تحت شمس عصر خريفية، وكان العسكري يحتسي الشاي بهدوء. أما مساعد القهوجي، فقد كان يجلس وكأنه قد تلقى صفعة، ينظر بصمت وأمل نحو الضابط، منتظراً قراره. بعد أن أحرقه الضابط بصمته الطويل، سأله مجدداً: "هل نشب بينكما شجار؟ قال مساعد القهوجي: "عن أي شجار تتحدث؟ تعال الآن و قم بعملك".ردّ الضابط: "إن كنت صادقاً، فمعلمك قد انتهى أمره."قال مساعد القهوجي: "لماذا أكذب؟ هل لدي مصلحة في ذلك؟ أنا متأكد تماماً. لم يكن يذهب إلى تلك الأماكن أبداً، لكن في الفترة الأخيرة ذهب عدة مرات. إما أنه يتعاطى الأفيون أو الهيروين. لماذا يذهب هناك كثيراً؟"

حاول الضابط أن يتخيل الاحتمالات المختلفة التي يفكر فيها مساعد القهوجي، ثم قال بابتسامة ساخرة: "هل رأيت ذلك بنفسك؟ هل رأيت أي شيء؟"رد مساعد القهوجي: "لم أرَ شيئاً. ماذا يمكنني أن أرى؟ الأمر واضح، أليس كذلك؟"قال مساعد القهوجي بكل ما لديه من تبرير أو ولاء: "أقسم أنني لا

أفعل ذلك لمصلحتي الشخصية. أنت تعرف جيداً أننا خدمك".

نظر الضابط إلى عينيه، وكأنهما عينا صياد يتهيأ للإيقاع بفريسته، بنظرة متفحصة حادة. كان الضابط ينظر إلى عيني الشاب بابتسامة ساخرة، وقال بازدراء ومكر: "موظف حكومي!" رد الشاب: "لا، أنا من الحرس. أنا معلم، ولا أفعل هذا." قال الضابط: "كفاك مزاحاً يا صديقي، لا تلف وتدور. تهريب الأفيون وبيع الهيروين، هل هذا عمل جيد؟" أجاب الشاب بعناد: "النميمة هي النميمة، لن أفعل ذلك." ثم اتجه نحو الأطفال الذين كانوا يلعبون كرة القدم بجانب الحقول الزراعية. كان الضابط يسير خلفه. الطريق كان يمر عبر ممر ضيق بجانب المقبرة. أصوات صرخات لعبة كرة القدم اختلطت مع تلاوة حزينة من سورة الرحمن. قال الضابط ساخرا: "إن لم يتعاون موظف الدولة مع موظف الدولة فهل ستفعل ذلك عمتي؟ في أمر يخدم مصلحة الناس، هل يُعتبر ذلك تجسساً (نميمة) ؟ تلميذه يقول إنه يهرّب المخدرات. هل هذا جيد؟ إما يفعل أو لا يفعل. وإذا كان يفعل، فهو يسيء. الضرر سيقع على الناس. واجبك وواجب كل إنسان شريف أن يمنع ذلك. أنا أقول لك، إنه واجبك، تجاه الله، وتجاه عقلك، وتجاه وطنك." بينما كان يفتح ذراعيه ليظهر اتساع الوطن، وكأنه يحتضن المقبرة، توقف للحظة ليترك كلماته تأثيرها. صوت

التلاوة الحزين: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" كان يعلو وسط ضوء المقبرة الذهبي خلفه، يكسر الصمت المحيط.

ثم استأنف حديثه وقال: "يجب أن تؤدي واجبك. أين يكون في هذا الأمر نميمة أو تجسس؟ إذا كان الرجل يقوم بعمل ما أو لا يقوم به، عندما تراقبه ستدرك ما إذا كان قد ارتكب مخالفة أم لا، ولن تكون تهمة باطلة. سيتضح الأمر. وفي النهاية، هذا عمل جيد. أين التجسس في هذا؟ التجسس للأجانب هو الشيء السيئ. أنا الحكومة. هل أنا أجنبي؟" كان الشاب الآن واقفًا، يده على أكتاف تلاميذه، وظل الضابط يغطي صدره.

قال الشاب: "أنت ضابط، وأنا معلم. هل أتيت إليك لأطلب منك أن تعلّم هؤلاء الأطفال؟" توقف قليلًا ليترك كلماته تتغلغل في ذهن الضابط. وخلال صمته، كانت أصوات لعبة كرة القدم وتلاوة القارئ تتداخل.

ثم قال: "أنا لا أقوم بأي عمل يضر الناس." واستدار مرة أخرى متجهًا نحو لعب الأطفال لكرة القدم.

عندما خرج المعلم الشاب من المنزل، تبعه صهر الرجل الريفي. قال المعلم: "تاجر تهريب، عزيزي؟ شخص لا أعرفه ولا من أهل القرية؟ إنهم يخدعون. لقد جاء إلي أيضًا وكان يريدني أن أكون حذرًا. إنهم يخدعون." الآن، كانوا يمشون في الزقاق، وكان الأطفال يلقون التحية على المعلم. فكر صهر

الرجل الريفي وقال: "أنتم تقولون الحقيقة. وبالمناسبة، أعني القهوجي، هو أيضًا كان يسأل دائمًا عن والد علي. أعتقد أنه يطالبه بدين. لقد سأل عن أختي معصومة مرتين أو ثلاث مرات. وسأل عن السيد أيضًا."

الشاب المعلم قال: "أنا نفسي لم أره. ربما... ربما يكون هو الآخر مفتشاً. لا بد أنه جاء ليتجسس. إنهم يخدعون."كانوا يسيرون في الزقاق، وكان الأطفال الذين في طريقهم إلى المدرسة يلقون التحية عليه باستمرار. قال صهره: "هناك خدعة في الأمر بلا شك."فقال الشاب المعلم: "هذا واضح جداً. القهوة والتهريب مجرد ذرائع."قال صهره: "بالطبع، أنتم متعلمون."ثم أشعل الشاب سيجارته وسأل: "كيف حال السيدة معصومة؟ هل ابنها أحمد علي بخير؟"قال صهره وهو منشغل بمشكلته: "إذن، ماذا أفعل؟"فأطلق الشاب المعلم دخان سيجارته وقال: "انسَ الأمر. تصرف وكأنك لم تر الضابط أصلاً. إذا جاء مرة أخرى وسألك ماذا فعلت، قل له: ماذا تعني؟ لا أتذكر، لقد نسيت. انسَ الأمر تماماً، وكأنك لم تر الضابط. لا ضابط رأيت، ولا قهوجياً، ولا أنا، ولا حتى نفسك."

كان صهر الرجل عائدًا إلى منزله وقت الظهيرة، وهو يمر عبر منعطف الزقاق الريفي، غارقًا في أفكاره وحاملًا معوله على كتفه. فجأة التقى بكبير القرية الذي كان قادمًا من نهاية

الزقـاق. نـاداه كبير القريـة: "يا فتـى! توقف دعني أراك!" اسـتدار الصهـر ورأى كبـير القريـة، فأصبـح أكثـر تهذيبًـا، وتوقـف جانبًـا قائـلًا: "السـلام عليكـم يا كبـير القريـة." كان يبدو أن كبـير القرية مشـغول البـال، فرد عليـه: "وعليكـم السلام." واسـتمر في المشي. سـار الصهـر خلفـه بخطـوات قليلـة، يمـشي بجـواره. سـأله كبير القريـة: "ماذا كان الضابط يخبرك؟" شـعر الصهر بعدم الاسـتعداد للإجابـة، فقـال: "الضابـط؟ أي ضابط؟"

رد كبـير القريـة بعينـين مليئتين بالغـرور، وبنبرة فيهـا مزيج من الهيبـة والقلـق، رغـم محاولته إخفـاء اضطرابـه الـذي كان واضحًا بسـبب شـدته: "ذاك الـذي يأتي ليتحـرى الأخبـار ويتقصى."

صهـر الرجـل رأى أنـه مـن الأفضل أن يقـول: "لم أره". شـيخ القريـة، في سـعيه للتأكـد من سـلامته وإبعاد الخطر عن نفسـه، قال محـاولًا بـث الخـوف في الرجـل: "جاء ليشـتكي مـن رضـا... لقد ضربته..." صهـر الرجـل، الذي وجد نفسـه فجأة بحاجـة إلى تبرئة نفسـه، قال: "لقد ضربنـاه، كان مجنونًا." الرجل صُـدم وقال: "لقد قتـل البقـرة المسـكينة، كنـت هنـاك بنفسـك. شـكوى؟ مـن ماذا؟ ومـن من؟" كبـير القريـة زاد مـن الضغـط وقـال: "جـاء ليشـتكي مـن رضـا. ضربتـه وأخذت أثـاث بيتـه وكل شيء يملكـه". صهر الرجـل خـرج عن طـوره ولكنه قال متوسـلًا: "أي أثـاث؟ لم يكن لديـه شيء. المسـكينة معصومـة لا تجـرؤ حتـى عـلى العـودة، وإذا

عـادت، فـلا شيء هنـاك. الرجـل مجنـون، ليس هنـا أبـدًا. يتجول بـين القـرى بحثًا عـن عمل. خـذوه إلى مستشـفى المجانـين. "الآن صـار الخيـط بيـد كبـير القريـة، فقـال بـإصرار وحـزم: "والله إنـه مجنـون، يجـب أخـذه إلى مستشـفى المجانـين، قبـل أن يتسـبب في مصيبـة في النهاية. "ثـم بنـبرة وديـة ومتعاونة قال بحسـن نيـة: "يا كبـير القريـة، افعل شـيئًا". كبـير القرية عـاد إلى القلق وسـأل: "لم تـأتِ الشرطـة تبحـث عنـه؟ لا معصومـة ولا ابـن خالك؟ "قـال صهـر الرجـل، مطمئنًا: "لا أحـد، أبدًا. "سـأل كبير القريـة، وكأنه يسـأل نفسـه: "إذًا مـاذا يريـد؟ " أجـاب صهـر الرجل، مسـتريحًا: "أنـت كبـير القريـة، كيـف لي أن أعرف؟ "

سـأل كبـير القرية نفسـه ومسـاعديه: "هـل يُمكـن أن يكون قد جـاء للتجسـس علينا؟ "انعكـس نـور الغـروب الأحمـر في النظارة السـوداء التي كان يرتديهـا أحد الرجلين. الجـدار الطيني، الأبواب المتفحمـة بفعـل الدخـان، الحجـارة المنخفضـة والمرتفعـة الملطخـة بالأوسـاخ في أرض الفنـاء، وجـذع شـجرة الـسرو الوحيـدة، كل شيء كان مغطـى بلـون الغـروب الأحمـر. أمـا الأماكن التـي كانت الظـلال تكسـوها، فقد بـدت بلـون أزرق داكن.

المسـاعد الثـاني، وكأنـه اسـتوحى شـيئًا مـن قـاع كوب الشـاي الـذي شربـه، قـال: "هل تقصـد الشرطي؟ "هـز كبير القرية رأسـه بغضـب بينـما كان دخـان نرجيلتـه يتصاعـد بصـوت عـالٍ وقـال:

"إنهم ضد رزق الناس. منذ الأزل، كانت الغابة موجودة، وكنا نصنع الفحم منها، والآن يقولون إنه ممنوع! كلها أكاذيب وخداع." الرجل ذو النظارة السوداء ألقى نظرة نحو المساعد الثاني الذي أضاف قائلاً: "ربما هذا هو سبب مجيئه." قال كبير القرية، بعقلية صاحب السلطة: "آه! بالطبع! تقول هذا وكأنك عرّاف؟ نعم، يا أخي، نعم، هذا هو السبب، بالتأكيد. يريدون أن يتركوا الحطب يتعفن بدلًا من استخدامه. آه، نحن نحمل اسم كبير القرية. إذا كنا كبار القرية ولا نملك الحق في قطع الحطب، فما الفائدة؟ أي حياة هذه؟"

في نظارة الرجل السوداء، انعكست صورة حمراء بلا بريق بعد الغروب. المساعد الثاني، أثناء صب المزيد من الشاي في كوبه، قال: "والله! عجيب!"

القلادة، الخاتم، القرط، الحُلي، الخنجر، المهماز، الخوذة، الدرع، السيف، المطرقة، الكأس، الشمعدان، الأواني... كان يجمعها كلها ويضعها في حقيبة، ثم يأخذها إلى المدينة ليبيعها للصائغ نفسه. صرخت المرأة قائلة: "لا أعرف! لقد تعبت من هذه الحياة البالية. حياتي وصلت إلى نهايتها." ثم قالت بحدة، ولكن بمرارة وثقل: "عمر الإنسان ليس كعمر نوح. أنا أريد المال، أريد حياة، لقد سئمت!" وبدأت تتحرك في المكان، لتعود مجددًا تصرخ: "تخلص منه دفعة واحدة وانتهِ!"

كان الصائغ جالسًا بجانب المدفأة، يحاول تقليم أظافره، محاولًا قمع غضبه العميق وشعوره بالضعف والعجز أمام سيل الانتقادات المستمر من زوجته. كان يمارس ضغطًا على مقص الأظافر، مركزًا على تقليم الأظافر بعناية كأنها تجسيد لوجود زوجته، يزيلها قطعة قطعة، تقل وتختفي في خياله، على الرغم من أنها كانت لا تزال تجوب عرض الغرفة وطولها، تواصل كلامها وتقول: "إذا تركته وشأنه ليحضر لك ما تريد، فلا فائدة. قد تراه يومًا وقد أصابته مصيبة، أو قبضوا عليه، أو ندم، أو قهروه، أوانفجر – لا أعلم!" قال الصائغ تحت وطأة سيل التوبيخ: "لكن ماذا أفعل؟" لم يكن يقصد طلب النصيحة أو التوجيه، بل كانت مجرد "آهة" تنهيدة يائسة. ولكنه سمع زوجته تقول: "اخدعه، أرعبه، أغره، خدّره، لا أعرف – أوقعه في الفخ!"

ازداد خوف الصائغ عندما ساد الصمت. كان رعب وجود خفي ومترصد، أثقل عليه من صخب انفعالاتها الواضحة. أخذ يعيد يديه إلى مقص الأظافر، دون نية لتقليمها هذه المرة، متظاهراً أنه منشغل بتسويتها. صرخت المرأة: "إذن، أين هو الآن؟" بعد لحظة، دخلت الخادمة تحمل صينية الشاي إلى السيدة، ولاحظت أن المرأة شاردة وكأنها غارقة في التفكير العميق. لكنها لم تري، ولم يري أحد، أن القدر كان يستعد لتغيير مساره. مدت المرأة يدها بلا مبالاة، أخذت الفنجان، وضعت

قطعة سكر في فمها، شعرت بحرارة الشاي على شفتيها. فجأة، اهتزت للحظة، ثم توقفت عن الحركة. برق في عينيها ضحكة غامضة، تفتحت ملامحها بخبث، وأشارت برأسها بهدوء. ثم التفتت إلى زوجها بعينين مليئتين بالمكر والثقة، وقالت: "اعطه وعداً. اجعله يأتي إلى هنا."

كان الرجل القروي ينظر مبتهجًا إلى اللهب الذي كان يرتعش خلف الزجاج الدائري، ويداه متشابكتان أمام أنبوب المدفأة الشفاف، يستدفئ بحرارتها. كان جالسًا على الأرض، ولم يسبق له أن رأى مدفأة كهذه من قبل. قال: "نحن في مدينتنا الحضرية لدينا كُرسي."ردّت زوجة الصائغ من على أريكة مخملية، بابتسامة ودودة مملوءة بالمكر: "الكُرسي انتهى زمانه."وكأن الرجل القروي أراد أن يتفاخر، قال: "مكاننا بارد جدا"ثم، وهو غارق في حساباته القروية الصغيرة، قال: "الناس في القرية يلقون علينا الحسد."قالت زوجة الصائغ: "حين يكون لديك مال، من هم الناس؟"وأضاف الصائغ: "بالمال يمكن أن تعمي أعينهم. يصبحون خدمًا لي."في هذه اللحظة، انحنت الخادمة لتقدم الشاي للرجل. كانت خصلات شعرها قد أفلتت من وشاحها المتسخ، تتدلى على كتفيها الممشطين واللامعين، تفوح منها رائحة عطرة. ارتدت قميصًا حريريًا أحمر وتنورة من جلد الغزال. خلف القماش الأحمر الشفاف، كان صدرها يهتز بشكل

مثير، وكأنه على وشك السقوط (قميصها الأحمر وتنورتها الجلدية تبرزان جمالها). أما ساقاها، فلم تكن مرئية تحت الجلد، لكن من رائحة جلد الغزال الفواحة وطول رموشها الاصطناعية، كان من السهل تخيل كل التفاصيل. كان الرجل القروي يحدق، وعيناه تلمعان، وفمه المفتوح بصمت يمتلئ باللعاب، بينما يسمع زوجة الصائغ تقول: "الإنسان يجب أن يعيش. يعيش حياة مريحة، في منزل جميل، مع طعام ساخن... والأهم من ذلك كله، مع امرأة جيدة."

قاطع الرجل القروي حديث المرأة قائلاً: "يجب أن تكون جميلة، ممتلئة، تجلب الراحة للرجل. ليست كالأرنب الهزيل ضعيفة البدن. لكنه، حين أراد أن يضيف شيئًا آخر، أدرك فجأة أن ما سيقوله قد يوقعه في مأزق. فعضّ شفتيه أمام نظرات المرأة الحادة، وكأنه يعترف في صمت: "يا للمصيبة."جلس الأربعة الآن حول المائدة يتناولون الطعام. قال الرجل القروي: "أنا متزوج."كرر ذلك بإصرار، وضغط على كلماته: "أنا متزوج."فسأله الصائغ بابتسامة ماكرة: "وكم واحدة لديك؟"رد القروي متسائلاً: "أليست واحدة أكثر من كافية؟"التفت الصائغ إلى زوجته وقال: "واحدة فقط؟"ثم توقف قليلاً وأضاف: "واحدة، بلا تشبيه، يا الله. كم عينًا لديك؟ واحدة؟ لا، اثنتان. كم إصبعًا في يدك؟ واحد؟ لا، عشرة. كم سنًا في

فمك؟ اثنان وثلاثون. وكم شعرة في رأسك؟ الله وحده يعلم. لكن الله كم كان لديه من أنبياء؟ لا تعرفين؟ حسناً، كانوا مئة وأربعة وعشرين ألفاً. كلهم كانوا أدوات لتحقيق الرسالة. والمرأة، هي أداة الرجل. وكلما زاد العدد، كان أفضل."

ضحك الأربعة بصوت عالٍ، كل منهم لأسباب مختلفة تماماً.

وضعت المرأة خطة شاملة لتعليم الخادمة الصغيرة فنون الإغراء. شملت الخطة كل شيء: من الإشارات ونظرات العيون، إلى رفع الحاجب بطريقة مغرية، وضم الشفاه، وثني العنق، وإظهار الأنفاس الساخنة بفعل الشهوة. علّمتها كيف تقف، وكيف تمشي، وكيف تنام، وكيف تنزلق، وكيف تئن، وكيف ترتجف. في البداية، لم تفهم الفتاة جيدًا. لكنها بدأت تدريجيًا تستوعب. اجتمعت الخبرة السابقة مع موهبتها الطبيعية، ما ضمن ظهور إعجاب جديد ومبهر. ربما كان المستوى أعلى مما يحتاجه الرجل القروي، لكن الحرص الزائد لا يضر. وما إن بدأت عجلة التقدم بالدوران، حتى أصبحت تطورها الطبيعي وتسارعها أكبر من الاحتياجات الأولية. أما سيد إسماعيل، فكان يعمل في سوق بيع كل ما هو قديم ومستعمل: من الأقفال المكسورة والسلاسل المقطوعة، وحلقات أبواب قديمة، إلى قطع الستائر والخواتم، وزنجير الدراجات الصدئة التي فقدت صوتها، والأحجار الكريمة الصغيرة المتسخة، والخناجر،

والأحجار الكريمة، والمقصات، والمواقد، والنرجيلة، وأباريق الشاي، والزجاجات المختلفة بأشكالها وألوانها، وأدوات طبية كالحقن وأوعية الري، وحتى أنابيب المصابيح. بالإضافة إلى أشياء أخرى كالصحون المتشققة، والمزهريات القديمة، والسيوف الصغيرة، وصدف البحر، ومعدات تقليدية، وحتى الملابس المستعملة المكدسة، وأصناف الحلوى المتنوعة المصنوعة من الطحين والزيت، التي تغيرت ألوانها بحسب نوع الزعفران والكركم المستخدمين، ودرجة قدمها، والتي كانت تُجمع من تبرعات زوار القبور يوم الجمعة. سيد إسماعيل – السوق الذي يشبه مقبرة، حيث كل شيء قديم، لكنه يبقى ينبض بالحياة، محاولاً العيش حتى بعد الموت. جاء الرجل القروي إلى هناك ليشتري لنفسه ملابس جديدة تزين هيئته.

رفعت الفتاة الستار واقتربت من الرجل حتى لامسته بجسدها، وقالت: "تفضل"كان الرجل في ملابسه الجديدة التي اشتراها للتو، والتي كانت فضفاضة قليلاً عليه. شعر بالدفء وهو يفكر أن الملابس ربما كانت تحتاج أن تكون أكثر ضيقاً. دخل إلى الغرفة. الفتاة تقدمت أمامه وقادته إلى الداخل، ثم أجلسته على الأريكة، وقالت: "سيأتون الآن". جلست بجانبه، ووجهها مغطى بطبقة من المساحيق التي كانت تتساقط. كانت رموشها الصناعية على وشك السقوط، لكن عينيها وأسنانها

كانتا ملكاً لها، وكلتاهما لامعتان وحادتان من دون أن تُبعد عينيها عن عيني الرجل، مدت يدها إلى الطاولة وأخذت كعكة من الحمص، واقتربت بها نحو فمه. لمع بريق في عيني الرجل من حضور الحلوى، لكن الفتاة سحبت يدها إلى الخلف قبل أن يقترب. الرجل، وعيناه مثبتتان في عينيها، دفع بفمه نحو الحلوى، لكنها أبعدتها إلى الجهة الأخرى. استمرت يده وفمه في الملاحقة، بينما عينا الرجل لم تتحركا أبداً، وظلت ثابتة على عينيها، وكأن فمه يتحرك تلقائياً بحثاً عن الحلوى. بدأ ريقه (اللعاب) يتساقط من زاوية فمه، إلى أن ألقت الفتاة الكعكة داخل فمه وابتسمت ابتسامة ساخرة. عندما وضعت الكعكة في فم الرجل وبدأ يمضغها ببطء، كانت أصابع المرأة تتحرك بخفة على فخذ الرجل. أدارت المرأة لسانها على شفتيها، بينما كان لعاب الرجل في فمه. عيناه اتسعتا، ويد المرأة امتدت، بينما أنفاسهما تتلاحق وتتداخل. لمست أيديهما بعضها البعض عدة مرات، ثم أمسكت المرأة بيد الرجل وسحبتها نحوها. ضغطت عليها قليلاً، ثم تركتها علي فخذها، ارتجفت حاجباها، ويدها انزلقت ببطء على فخذ الرجل، حتى أمسكت به. كانت شفتاها نصف مفتوحتين، ولسانها يتحرك في فمها، بينما الرجل كان يحاول ابتلاع ريقه لكنه ارتجف بشدة من وقع اللحظة. قرب عربة الشواء عند زاوية الشارع، كانا يقفان منتظرين. كان الدم الممزوج بالملح يتساقط من أطراف أسياخ الكبد

المشوي فوق الفحم، يصدر صوت وهو يفرقع. عندما تغير لون قطع الكبد، رشّ بائع الكباب عليها المزيد من الملح، ثم رفع الأسياخ وقدمها للرجل القروي، الذي كان يرتدي ملابس أهل المدينة. الرجل تذوق قطعة صغيرة ليتأكد من أنها ليست ساخنة جداً، وحين وجدها مناسبة، نفخ على قطعة أخرى ليبردها، ثم قدمها للفتاة قائلاً: "إنها جيدة، تناوليها"، ومنحها السيخ. كانا يبدوان سعيدين، لكن الفتاة كانت مطأطئة رأسها وصامتة. عندها قالت المرأة: "يا للعار عليك! لن تتغيري أبداً. تريدي أن تبيعي شرفك مقابل بضعة أسياخ من الكبد المشوي؟ يا لكِ من مسكينة!"

الصعود لم يكن يثير الدهشة، ولم يلفت الانتباه بما يكفي ليشغل الأفكار أو يجذب الأنظار. لذلك بقيا صامتين، دون أن يتبادلا الحديث، فقط بين حين وآخر كانا ينظران إلى بعضهما، وأحيانًا أكثر إلى الناس المتكدسين داخل المصعد (آسانسور) الضيق الذي يصعد بهم. حتى اهتز المكان قليلًا، ثم شعروا بأن المصعد قد توقف. انفتح الباب، واندفع الجمع وهم يضغطون على بعضهم البعض إلى الخارج عبر الممر، فتبعاهما أيضًا. كان الممر مغطى بالكامل بالمخمل، مزينًا بأطراف من تطريز بخيوط ذهبية. بين الحواف، كانت هناك صفوف من الأزرار المثبتة، وكأن الحائط جزء من أريكة أو مرتبة واقفة بشكل عمودي.

وضع الرجل إصبعه على أحد البروزات بين الأزرار وضغطه، فانغمس الإصبع قليلاً إلى الداخل. في نهاية الممر، كان هناك باب مزدوج يشبه نصفَي مرتبة مثبتة بإطار خشبي. تجاوزا الباب ليجدا على الحائط نصف عربة بارزة للخارج، وموضوعة داخلها باقات من الزهور. كانت العربة مصنوعة من الجبس، بينما الزهور كانت بلاستيكية. ثم انفتح أمامهم صالة طويلة واسعة، فيها ستائر مخملية حمراء متدلية أمام نوافذ عريضة وطويلة. امتلأت الصالة بالطاولات، وخلفها جلس أناس يأكلون. في كل زاوية، هنا وهناك، كان النادلون يرتدون زيًا موحدًا من المخمل الباهت قليلاً، وكانت آثار الزمن والعمل تبدو واضحة على أكمامهم وظهرهم، تآكل لمعان الزخارف الذهبية بفعل بخار الطعام والرطوبة. على جانبي الصالة، بعيدًا عن بعضهما، كانت المدينة تظهر من خلف زجاج ضبابي واسع. من جهة، بدت المدينة بلون الأرض، ببيوتها المنخفضة وسقوفها القديمة المتآكلة، وأشجارها القليلة، وكأنها مسترخية في حضن الطبيعة. ومن الجهة الأخرى، ظهرت المباني بألوان داكنة وفاتحة، بزجاجها، وبلا أشجار، وأسقفها المسطحة وأعمدتها، وصفوفها الممتدة خلف بعضها البعض على منحدرات التلال وصولًا إلى أقدام الجبال. الجبال هناك كانت شاهقة، ساكنة، متناسقة كأنها منحوتة بدقة. بعضها كان مغطى بالثلوج، وبعضها عارٍ بصخوره الجرداء. بدت الجبال كأنها حامية وديعة لهذه المباني،

لكنها في الوقت ذاته تقلل من عظمتها وتُظهرها صغيرة وهامشية. أما الآن، أمام هذا المشهد، كانوا يأكلون بشغف وعجلة، وكأن المائدة الملكية بأكملها قد صُفّت أمام أعينهم. كانت الفتاة جالسة على الأرض عند قدمي المرأة، تحكي لها عن جمال المكان الذي زارته وعن روعة الطعام الذي تناولته، بينما كانت تمسّد ركبة المرأة بلطف. فقالت المرأة: "أعلى قليلاً." كان تدليك الفتاة يمنح المرأة شعورًا بالراحة والانتعاش، وكانت سعيدة بحديثها الذي جاء على هواها. ثم، بتنهيدات من اللذة وبنبرة مازحة تحمل في طياتها عتابًا خفيفًا، قالت: "كُلي، كُلي! لا تُفرطي في الأكل حتى لا تصبحين مثل جثة هامدة من السمنة لا تستطيع الحركة!". وأثناء ذلك، كانت تضرب بخفة على فخذ الفتاة وتقول مازحة: "يجب أن تديري قدمك!"

دَارَ الرجل الطبقَ وأخذ يُحدّق في النقوش المُنقوشة عليه. كان العقرب أمام عينيه. عرفه فورًا. نظر إلى ذيله، كان يعلم أن السم في ذيله، لكنه لم يفهم سبب وجوده هنا. كانت هناك نقوش أخرى، لكنه لم يعرف ما هي بعض منها. لم يتعرف على القوس، ولا السطل، ولا الجسمين، ولا حزمة القمح؛ لم تكن الصور مألوفة وبسيطة. أما الأسد، الميزان، والماعز، فكانت أفضل النقوش. دار الطبق. بمنشار، قطع كلا القرنين الذهبيين من خلف أذن التمثال، وفي يد التمثال كان ثمرة رمان ذهبية... قطف ورقتها

بالمقص، ثم بدأ بتشكيل الثمرة بمطرقة وقلم. أمام الماعز الذهبي الكبير، الذي كانت عيونه من الزمرد، وكان له منقار وذيل مثل النسر، كان هناك شمعة ضخمة، مثل عمود طويل، بشعلة كبيرة بحجم طوبة، على فتيل سميك بحجم حبل— الشمعة والفتيل والشعلة، كلها من الذهب. وبملاقط، قطع الشعلة أيضًا. أو بدأ يستخدم المجرفة أيضًا. كان يمسح كل الحصى الذهبية التي كانت على التراب الفضي للأضرحة وأمام التماثيل.

أربعمائة ألف مصباح كانت وصفًا أدق، لأن كلمة "النجفة" لم تكن لتوفي ذلك الشلال المذهل من الضوء والكريستال حقه، وهو شلال يعلو لارتفاع يعادل قامة سبعة رجال مصطفين فوق بعضهم. كانت النجفة معلقة بخطاف مربوط في سقف الطابق السابع، متدرجة في موجات متتالية من الزخارف المتدلية، حتى تصل إلى مستوى اليد إن رفعتها عند دخولك من باب المتجر، لتقف في منتصف البهو الكبير بجانب حوض مغطى بالبلاط الأزرق. كان حجم النجفة استثنائيًا لدرجة أنه لم يكن هناك مكان يتسع لها، فاضطروا إلى تصميم مساحة مخصصة فقط لتحتضنها. في الحقيقة، يمكن القول إن بناء المتجر بأكمله كان مرتكزًا على احتضان هذه التحفة. بدا الأمر وكأنهم بنوا بحرًا من أجل سفينة أو قدّمًا من أجل حذاء فريد. ومع ذلك، لم يكن هذا البناء مجرد هندسة معمارية، بل إعلانًا مبهرًا يعكس تفرد

السلع المعروضة. وقف الرجل الريفي والفتاة المرافقة والمرأة صائغة الذهب، ومعهم الشاب المنتمي لعائلة المرأة، مبهورين أمام هذا المشهد الاستثنائي الذي لا مثيل له في الشرق القريب أو البعيد أو حتى الأوسط. وقفوا مذهولين، رغم أن رؤوسهم ظلت مرفوعة إلى أعلى بقدر ما استطاعوا، حتى كادوا يسقطون إلى الوراء. وبخطوات بطيئة وحذرة، صعدوا واحدًا تلو الآخر السلالم المتحركة التي حملتهم إلى الأعلى، بخفة وكأنهم يطفون على الهواء. كانت السلالم أشبه بالأجنحة التي رفعتهم في عالم بدا وكأنه حلم، حيث كل شيء يلمع ويتلألأ. كل ما حولهم كان مصنوعًا من الزجاج البراق، يعكس الضوء في كل اتجاه. ومع ملابسهم المزينة بالأحجار الكريمة والعطور والحرير، بدوا وكأنهم أنفسهم جزء من هذا العالم اللامع. كانوا في رحلة للتسوق، يبحثون عن مستلزمات منزلية، بينما هم غارقون في سحر هذه التحفة المعمارية التي أبهرت أبصارهم. الرجل لم يعد يرتدي ملابس بسيطة. كان يخيط ثيابه بتوجيه من زوجة الصائغ عند مصمم أزياء خاص. كان هناك تغيير حتى في خلفية ملابسه. لقد أدخل العديد من التحف الثمينة إلى السوق، مما جعله يبدو متحررًا من قيود المال المعتادة. كان تخطي هذه الحدود نوعًا من الوجود الجديد، يضيف إلى وجوده قوة وهيبة وهوية، ويفرض نفسه على هذا العالم. كان اطمئنانه (ثقته) إلى ثروته يحميه من الشك، وتمنحه جرأة التفاؤل والإقدام. كانت

ثروته تنمو بسرعة، وهذه السرعة زادت من اعتزازه بنفسه ومن إحساسه بالتفرد. غير أن هذا الشعور بالفخر اليوم كان تعويضًا عن مرارة الأمس، وفي الوقت نفسه تذكيرًا بجراح الماضي، مما زاد من رغبته في الانتقام من الإهانة السابقة. ومع كل هذا التغيير، لم يتجاوز حدوده الطبيعية. أما الفتاة، فكانت تغيّر ملابسها ثلاث أو أربع مرات في اليوم. الأنوثة والدلال كانا يتراقصان في جسدها وروحها باستمرار. كما كانت تُكثر من الطعام، وتضع المساحيق والألوان على وجهها، ثم تقف أمام المرآة وهي ترى نفسها كأنها تُعرض للبيع، فتهمس لنفسها بإعجاب: "برافو!" أما الشاب، وهو أحد أقارب زوجة الصائغ، فكانت مهمته بسيطة. لم يكن يفكر بشيء سوى أن يُصبح مشهورًا في عالم الفن. لم يكن يهمه المجال الذي سيحقق فيه الشهرة؛ فمجرد شهرة "الفن" كانت تكفيه، رغم أن السينما كانت الأهم بالنسبة له. في هذا السبيل، كان قد تعلم بعض المصطلحات الرنانة، ورسم خططًا كبيرة لمستقبله: قبعة قماشية، منظار يتدلى من صدره، نظارتان سوداوان (إحداهما أكثر قتامة لأوقات التصوير)، وسلسلة من الصور لنفسه: تارةً وهو ينظر بعُمق من خلال كاميرا التصوير، وتارةً وهو يُعطي التعليمات للممثلين أو يُشير للفنيين، وتارةً وهو يقول للفنيين "كات" أو "موتور"، وتارةً وهو غارق في التفكير. لكنه في الوقت الحالي، لم يكن متأكدًا؛ هل عليه أن يُطلق لحيته أم لا؟ وإذا فعل، فهل

تكـون خفيفـة أم كثيفـة؟ كان صبـورًا، لكنـه كان يتـوق إلى أن يجلـس معـه الآخرون ليناقشـوه فيُبهرهـم بكلامه، قائـلًا على غرار أهـل زمانـه: "انظـروا... الموضوعـات العاطفيـة.."، "التوظيـف البديـع للبسـاطة"، "عظمـة الخطـوط النبيلـة مـن السـخرية"، " الفنـان الفرنـسي جـان لـوك غـودار..."، "وسـائل الإعـلام..."، ثـم يُعيد: "انظـروا مجـددًا..."، "السـخرية"، "التقاليـد"، "الجيل الشـاب"، " اسـلوب سـينما فيلـم سـوبر ٨"، "الحقيقـة"، "قلـق الـروح"، "سـهر وردي والحـلاج"، و"أم الـشرق"... ورغـم كل هـذا، لم يكـن يعـرف شـيئًا عـن أي مـن تلـك الكلـمات، باسـتثناء "الحـب والعلاقـات"، الـذي لم يكن يعرفه سـوى معرفة سـطحية مـن تجاربـه الفرديـة المتواضعـة. وفي النهايـة، بعـد أحاديثـه الرنانة التـي كان يسـتعرض فيهـا ثقافته المزعومـة، كانوا يختتمون الجلسـة قائلـين له بابتسـامة: "شـكرًا لك".

كان الآخـرون وكأنهم يعيشـون في حلم ويشـاهدونه، باسـتثناء المـرأة التـي كانـت مسـتيقظة. بينـما كان الرجـل والفتاة مسـتغرقين في تأمـل زجـاج المعروضـات، وكان الشـاب الطامـح إلى الشـهرة في عـالم الفـن يتأمـل انعـكاس صورتـه في الزجاج، متخيـلًا كلمات مثـل "شـكرًا" وأحيانًا "أوسـكار"، اقتربـت المـرأة بهـدوء من بائع المعـرض وهمسـت في أذنـه قائلـة: "لا تشـغل بالـك، قل أي سـعر تريـده، لا يهـم، فقـط تذكـر أن نصـف مـا تطلبـه يجـب أن يكـون

مـن نصيبنـا. فهمت؟ "أثـر التقـدّم، وخصوصًـا التطـور التقنـي، بـدأ بالتسـلل تدريجيًـا حتـى إلى داخـل الكهـوف. كان الرجل دائم التفكـير فيـما ينبغي عليـه فعله لحمايـة كنـزه الثمين داخل رأسـه إذا مـا وقعت حجـارة أو صخور عليه أثنـاء نزوله في البئـر. وبينما كان غارقًـا في هـذه الأفـكار، لفـت انتباهـه ذات يـوم صنـدوق عرض في أحـد المتاجـر كان يحتوي عـلى أدوات تخص الدراجـات النارية. هـذه المـرة، عندما اسـتعد للنـزول إلى البئـر في عزلة الجبـال الهادئة، بـدا وكأنـه في هيئـة رائـد فضـاء. كان يرتـدي خـوذة برتقاليـة، ونظـارة ذات عدسـات عريضـة، وسـترة مصنوعة من البلاسـتيك الأزرق، وأحذيـة خاصة لتسـلق الجبال. في محاولاته السـابقة، كان يحمـل معـه جهـاز راديو مـزدوج الموجـة، ويتركـه داخـل الكهف ليسـتمتع بالبرامـج الشـيقة أثنـاء انشـغاله. في تلـك اللحظـة، كان منشـغلًا داخـل الكهـف بتحضـير موقـد يـدوي صغـير اسـتعدادًا لإلقـاء خطاب بعنـوان: "البُعـد الاجتماعي لكرة القـدم من منظور تعزيـز أسـس التعـاون في القرى." كانت رائحة النفـط تنتشر داخل الكهف بسـبب تسربـه من الموقد الذي كان مشـتعلًا مـن دون لهب واضـح. الرائحـة كانـت نفـاذة جـدًا. أخـيرًا، قـام الرجـل بتعديل شـعلة الموقـد باسـتخدام إبرة صغـيرة حتى اشـتعلت بنفخـة هواء قويـة محدثـة صوتًـا حادًا. نفخ الشـعلة عـدة مرات حتـى أصبحت زرقـاء مسـتقرة، ثـم وجههـا نحو يـد تمثال ذهبـي مغطـى بالكامل بالزمـرد والياقـوت، ويمسـك في يـده تمثـالًا صغـيرًا عـلى هيئـة

أفعى. في البداية، أحرقت الشعلة الغبار القديم المتراكم على التمثال، ثم بدأت شيئًا فشيئًا في تليين جسد الأفعى الملتوي، حتى ذاب تمامًا. انفصل رأس الأفعى عن جسدها وسقط على الأرض. حرارة الشعلة ألحقت أضرارًا بيد التمثال الذهبي، حتى بدت وكأنها أُكلت بفعل التآكل. نظر الرجل إلى التمثال وكأنه يتفحص فريسته المستقبلية. ثم بصق على نهاية رأس الأفعى الذائب على الأرض، لكن بصاقه لم يؤثر فيه بشيء. بدا رأس الأفعى وكأنه متجمد من جديد.

الثلاجة. سخان المياه. المكيف. السخان. المدفأة، موقد الغاز. غسالة الملابس. التلفزيون. الراديو. غرامافون المزود بآلية تغيير الأسطوانات التلقائي. كانت هذه الأجهزة الكبيرة. بالإضافة إلى كل الأجهزة الصغيرة الأخرى التي كانت تُباع حينها، مثل عصارة الفواكه، محمصة الخبز، مفرمة اللحم، المبشرة، صانع القهوة، ماكينة صنع الآيس كريم، المكنسة الكهربائية، المكواة، وقدر الضغط. ثم الأرائك المذهبة بأسلوب لويس المختلف، طاولة الطعام بأرجل تشبه أعمدة تخت جمشيد، سرير على الطراز الإسباني مع لوحة فنية أصلية من عمل الفنان قوللراقاسي (تضاف لإبراز قيمة وفخامة الأثاث). ثم المزهريات، النسور، الحمام، الملائكة، الطاووس، الأسود الجالسة والمستلقية والقائمة، تماثيل النساء العاريات، البرك والنوافير، تمثال رستم-واقفًا بيد

عـلى خاصرتـه وأخـرى منحنيـة- وكلهـا مصنوعة من الأسـمنت ومطليـة بطبقات فضيـة وذهبية. كانـت عيون النسر حمـراء وتضيء بالبطارية.

وفي يـوم مـن الأيـام، تذكّر أنـه قد اشـترى للطفل نايًـا صغيرًا، لكنـه رأى أنه وسـط كل هذه الأشـياء الثمينـة والإمكانات المتاحة، مـن المؤسـف أن يقتنـي مجـرد نـاي. ذهـب إلى المتجـر ولم يجد شـيئًا أصغـر مـن الفلـوت، لكنـه أراد شـيئًا أكـبر مـن كل شيء. بالطبع، كان البيانـو الكبـير هـو الأضخـم، لكنـه لا يمكـن النفـخ فيـه، وبالتـالي لم يكـن يشـبه النـاي ولم يكـن ليُقنـع الطفل.

بـين كل مـا يُنفـخ فيـه، اختـار التوبـا (آلـة نفـخ نحاسـية كبيرة الحجـم تُسـتخدم في الفـرق الموسـيقية الكلاسـيكية والجـاز) لأنها كانـت أكـبر حجـمًا وبراقة لأنهـا مصنوعة مـن النحاس. اشـتراها، لكنـه اعتقـد أن التوبا أكـبر بكثير من حجم الطفـل، والنفخ فيها قد يتطلـب صدرًا وأنفاسًـا أقـوى، لذلك أضاف مجموعـة طبول الجاز أيضًـا، والتـي كانت تحتـوي على طبل كبـير، واثنين أصغـر، وزوج مـن الصنوج (الأطبـاق الموسـيقية أو الصفائـح الرنانـة)، ومثلث، وبـوق، وصنـدوق، وزوج مـن الملاعـق الصغـيرة، ودف. وكل واحـدة منهـا تُصدر صوتًا مختلفًـا. وأمر بأن يتم تلميـع التوبا جيدًا.

أصـاب الـبرق عينـي الجـدي، في الواقـع، بنقـرة قرن شـيطان، ضرب بهـا تحـت عـين الماعـز التـي كانـت مـن الزمـرد، فانتزعها.

ثم حمل خوذته الذهبية التي كانت فوق قبر، ووضعها على رأسه. ثم أخذ فأسًا من قبر آخر. كان يتمنى لو كان هناك مصور ليلتقط له صورة. لكن كان فقط الماعز بعينيه الزمرديتين أمامه. كانت الماعز تبادره بنقارها وأجنحتها كعقاب. شعر ببعض الخوف. تذكر الراديو ورأى أنه بدلا من صفير الخوف، ينبغي أن يُترك هذا العمل للراديو. أدار الزر. كان رجل ديني يتحدث، لكن بدا وكأن هناك عيبًا فنيًا في بث كلامه، كأن شريط التسجيل يدور بالعكس، من الأسفل إلى الأعلى. على أي حال، لم يكن هناك فارق، لأن الصوت ونغمته وطريقة التعبير كانت كافية. لم يكن له معنى، لكنه كان يحمل روحًا. في مثل هذه الحالة، سواء دار الشريط في كل اتجاه كان يدور بشكل صحيح و الصوت كافٍ. ربما بسبب جذب صوت الرجل الديني، تمكن من التغلب على خوفه من عين الجدي، وفي تلك اللحظة، انتزع الحجر الكريم من قرن الماعز. لم يعد الماعز يحدق به. لم يعد لديه إلا عين واحدة - ثم انتزع الرجل العين الأخرى بضربة ثانية. نظر الرجل بتأن إلي ما حوله، أراد أن يرى إذا كان هناك أي صراع متبقٍ في الزوايا المظلمة. في كهف قبور المحاربين المتحللة، كان صوت الروحانية المعكوس من الراديو هو الوحيد الذي يُسمع. لم يعد يخاف. شعر بأنه قد تحكم في نفسه. انطلقوا في الطريق. كان واضحًا أن توزيع الأثقال بشكل صحيح لن يُسمَع بالفعالية في أذن سكان القرية. عندما تم تجهيز كل شيء جيدًا،

بـدأوا السـير معًـا في طريقهـم. سـار الحمالـون. مـن هنـاك، بدأت الحمـير، ثـم العُربـات، وأخـيرًا ناقـلات الأثقـال الأخـرى، كل شيء كان مُعـدًّا مسـبقًا. جمعـوا الحمالـين، والحمـير، والعربـات، بما فيـه الكفايـة في بدايـة الطريـق. كانـت المـرأة الصائغـة هـي العقـل المدبـر لهذه الترتيبـات، وقد أُسـندت مهمة تنفيذ الخطة إلى الشـاب الـذي كان يطمـح إلى الشـهرة في فنـه، الطريـق الـذي كان يمر بين الجبـال والأوديـة كان مجرد مسـار ضيـق، لكن المهارة والعـادة التي كانـت ثمـرةً للـتراث الفـردي والجماعـي كانـت تسـاعد الحمالين. كانـت المشـكلة الأساسـية هـي التحمـل، لكـن بمجـرد أن يعتـاد الشـخص عـلى المهنـة، يصبـح الفـرق بـين الصعب والسـهَل شـبه معـدوم. والوظائـف التـي تتناسـب مـع طبيعـة الظـروف ليسـت صعبـة في تنفيذهـا. كان هنـاك مـال لإنفاقـه، وكانـت الحمالة تحتاج فقـط إلى التحمـل، وكانـت الحمـير جاهـزة، والهـدف كان نقـل الأثقـال بـأي وسـيلة، لـذا لم يتطلـب الأمر جهـدًا كبـيرًا للإشراف عـلى تنفيـذ الخطـة. بالطبـع كانـت أقـدام الحمـير تغمـر في الحـصى حتـى الركـب، وكانت فروع الأشـجار تصطـدم بالطبـول وتطرق الجـرس. وكانـت الحـزم المصنوعـة مـن الـورق المقوى عـلى ظهور الحمـير تتعـرض للخـدش بسـبب الحبـال أو ضربـات الأغصـان. كانـت الثريـات تتأرجح على العُربـات لدرجـة أن الزخارف كانت تتصـادم وتنفصـل أو تتحطـم. كان عنق الطيور، رغم ربطه بشـدة، يتعـرض للخـدوش، وكان جسـم الحيوانـات يظهر عليـه علامات

التصدع. وعلى الرغم من أن الأرائك كانت مغلفة بأكياس من النايلون للحفاظ على المخمل، فإن النايلون كان يتلف تحت الأرجل ببطء، كما لو كان بنطالاً قديماً لشاب ناشئ. ومع مرور الوقت، كان الأساس الذهبي للأرائك يفقد بريقه. ومع ذلك، كانت القافلة الطويله تسير نحو القرية، وكان صوت حركتها يتردد بين الجبال. كان الحمالون يغنون أحيانًا، يرددون الصلاة علي النبي أحيانًا، وأحيانًا يلعنون العين الشريرة. في إحدى المرات، سأل أحدهم "هل كانت هذه القرية بحاجة لكل هذا؟" فرد عليه الآخرون "أنت الذي لا ترى كيف يرسل الله رزقك". حتى وصلت القافلة إلى القرية. عندما مرّت الثريات، الأرائك الذهبية، الطيور، والطبل عبر الأسطح الطينية للمنازل في القرية، صعدت النساء إلى الأسطح لمشاهدتها، وركض الأطفال في الشوارع حول الحمالين. كلما قال أحد الحمالين "من كان محمديًا فليصلِّ"، كانت أضواء البلور، وشكل الطبول، وتألق الذهب، يلفت انتباه الجميع. حتى أولئك الذين لم يكونوا محمديين أو لم يعرفوا كيفية الصلاة، كانوا يرددونها. لم يكن أحد يعرف ما هذا، ومن أين جاء، ولمن هو. في هذه الأثناء، كان الرجل وزوجته وطفله هناك. وكان أيضًا شقيق الزوجة موجودًا. كان ينظر بعينين ضيقتين إلى خط الحمالين وأثقالهم بشك وريبة، وكان يهز رأسه. الزوجة، بسبب الصوت المتكرر للصلاة وقرع الأقدام على الأرض، تسلقت الجدار

لتفهم ما يحدث. ثم صاحت "علي، علي!"وأخذت الطفل، ففتحت الباب ورأت أن القافلة قد توقفت أمام منزلهم، وبدأ الحمالون في تنزيل الأثقال،كانت المرأة تعيش في بيت أخيها. منذ أن قتل الرجل البقرة وهاجمته الناس وضربته قائلين إنه مجنون، بقيت المرأة في بيت أخيها. كان الرجل في البداية يعيش وحده في البيت. ثم أصبح يغيب باستمرار ويقول إنه يبحث عن عمل. أما المرأة مع أخيها، فقد أخذوا ما تبقى من أثاث البيت الفقير وغادروا، تاركين المنزل خالياً. ومع مرور الوقت، أصبح الرجل يعود إلى المنزل بشكل أقل وأقل حتى صار شبه نادر. أحياناً كانوا يرونه من بعيد يذهب إلى أرض مهجورة. كانوا يقولون إن المجنون ذهب ليبكي على أيامه السيئة، وعلى عمله الضائع، وبقرته التي قتلها، حتى أنه في أحد الأيام لم يعد أبداً، ولم يفكر أحد في السؤال عنه، أو عن مكانه، أو عن ما حدث له. كانوا يقولون إنه مجنون غبي، أضرّ بنفسه بسبب حماقته، وإنه يستحق أن يكون الآن ذليلاً ومشرداً. ولكن اليوم، توقفت قافلة طويلة أمام منزله، وبدأت تفريغ حمولات غريبة وغير مألوفة أمام باب المنزل. أخذت المرأة طفلها لمشاهدة ما يجري، ولكن عندما أنزلته على الأرض، خطا الطفل خطوات قليلة نحو الطبول، فانزلق فجأة على المنحدر وبدأ يتدحرج، محققاً عدة تقلبات حتى استقر أمام قاعدة جناح إسمنتي قوي. هرعت الأم، التي قفزت منذ اللحظة الأولى لتحاول الإمساك

بـه، لكنهـا هي الأخـرى انزلقـت وكادت تسـقط فـوق الطفل، مما كان سـيؤدي إلى سـحقه. لكنهـا في اللحظـة الأخـيرة وصلـت إليه ومـدت يدهـا لتلتقطـه. وفجـأة، اصطـدم رأسـها بهيكل إسـمنتي ممتـد بقـوة. صرخـت مـن الألم صرخـة عاليـة، أضافـت إلى بـكاء الطفـل وزادتـه صراخـاً وجزعاً.

جـاء الأخ مسرعـاً. وعندمـا رأى المشـهد، بصـق عـلى الأرض ثـم ركل الهيـكل الإسـمنتي. فسـقط جنـاح الطائر، وانكـسر طرفه المتعـرج ووقـع، لكـن الشـاب الـذي كان ينظـم عمليـة إيصـال الأغـراض لم يلاحـظ ذلـك، لأنه كان مشـغولاً مـع العـمال بتفريغ الصناديـق وربـط الحبـال بعنايـة، كـي لا تتعـرض الأغـراض لأي خـدش. كان المطـر، خفيفـاً، قـد بـدأ ينهمـر ببطء.

في هـذه الأثنـاء، كان هنـاك عربة غارقـة في الطين عـلى الطريق. حـاول سـائق العربـة إجبـار الحصـان عـلى الحركـة باسـتخدام عصـاه (أداة جلديـة تسـتخدم لقيـادة الخيـول) ، عـلى أمـل أن يتمكـن الحصـان مـن إخـراج العربـة. فحـاول الحصـان جاهـداً، لكـن ذلـك أدى إلى اهتـزاز الحمولـة فـوق العربة: طـاووس ذهبي اللـون ذو عنـق طويـل، يبـدو وكأنـه زرافـة. ومـع الضغـط الناتج عـن المحاولـة، انكـسر العـود الطويـل المخصـص لربـط العربـة، وأُصيـب الحصـان بجـروح. أما عـلى ظهر العربـة، فقـد كان هناك تمثـال لمـلاك مسـتلقٍ عـلى ظهره فـوق كومة مـن القش. مـع اهتزاز

العربـة، انزلـق التمثـال نحـو حافـة العربـة، ممـا زاد مـن ثقلـه على أحـد العجـلات، فغاصـت العجلـة أكثـر في الوحـل، وانحرفـت العربـة مـن تحـت الحمولـة بشـكل أكـبر. وفي النهايـة، خرجـت العجلـة الأخرى تمامـاً من مكانهـا وارتفعت في الهواء. سـقط تمثال المـلاك أكثر على الطـاووس الذهبي، ممـا أدى إلى انغماس الطاووس في الوحـل، بينما انقسـم التمثـال إلى نصفين: نصفه السـفلي، المتمثل بجزء سـلس ومسـطح بـلا أي فجـوات، علق تحـت ألـواح العربة المحطمـة، بجـوار العجلـة والعـود المكسـور. أما النصـف الآخر، الـذي يتضمـن الوجـه مع أنـف مكسـور، انزلـق وسـقط بالقرب من شـجيرات شـائكة، ملتصقاً بخـده عـلى الأرض الموحلة، وكأنه يسـتمع إلى أصـوات تحـت الأرض. كان المطـر يتسـاقط ببـطء، تقطّـر قطـرة بعـد أخـرى. أمـا سـائق العربـة، الـذي رأى العجلـة قـد انفصلـت، والعود قـد انكـسر، والعربـة والطـاووس وكذلك المـلاك قـد تحطمـوا، لم يكـن أمامـه مـا يفعله سـوى الاسـتمرار في جلـد الحصـان بقسـوة، وكأنـه يعاقبـه عـلى كل مـا حدث.

أسـفل الطريـق، كانـت عربـة مزخرفـه (مزينـه) بالعقـاب قـد غاصـت أيضـاً في الوحـل. كان المطـر يهطـل بغـزارة. في البدايـة، انحـدرت العربـة بسرعـة كبـيرة مـن عـلى منحـدر حـاد، تـدور حـول نفسـها في سرعـة شـديدة، وعندمـا وصلـت إلى جـزء مـن الطريـق فيه ارتفـاع أو صعود، تعثّـر الحصان وتوقف عـن الحركة.

حاول أن يثبّت نفسه بحوافره في الوحل، لكنه انزلق وغرست العجلات في الوطين، وتوقفت تماماً. كان سائق العربة يحمل سوطاً سلكياً، لكنه رأى أن العبث بالحصان وسط هذا المطر الغزير لن يجلب سوى البلل. فتركه وذهب ليحتمي تحت شجرة وجلس القرفصاء. المطر كان قد محا كل اللون الذهبي للعقاب على العربة، ليحلّ محله لون أخضر باهت وكئيب. صار لون العقاب شبيهاً بلون العدس. لكن جسد المرأة البيضاء، المستلقية على صدرها فوق القش داخل العربة، بدا أكثر بياضاً تحت المطر الذي كان يغسلها، وُضعت المرأة على صدرها فوق القش لحماية وجهها وصدرها من وعورة الطريق. ومع ذلك، بدت كأنها تحاول التلصص لترى ماذا يجري تحت العجلات. وفي نهاية قدميها، جلس العقاب المثبّت بإحكام على موضعه، فاتحاً جناحيه، وعيناه الحمراوان المتوهجتان ببطارية كأنهما تحرسان جسد المرأة. أو ربما كان العقاب يرمز إلى شهوة طاغية تهدد بالانقضاض على جسد المرأة، لتلوث طهارتها الظاهرة والقوية (المُشبهة بالإسمنت الصلب) بنجاسة من نفس النوع، أو ربما ليتفاخر بها. ومع ذلك، لم يكن هناك أي أثر لثوب أو لباس يغطيها. عندما توقف المطر، نهض سائق العربة ليرى كيف يمكنه إخراج العربة. كان صعود الطريق حاداً لدرجة أن لوم الحصان أو صبّ غضبه عليه لم يكن من الإنصاف. كما أنه، بخبرته، خشي أن يؤدي ضرب الحصان بالسوط إلى انقلاب

العربة وسقوط الحمولة. بدلاً من ذلك، مرر يده على شعر الحصان ورقبته ليهدّئه ويجهّزه لمحاولة جديدة. في تلك الأثناء، خرج بضعة رجال، كانوا قد احتموا تحت صخور أو أغصان الأشجار، وجاؤوا لمساعدة العربة. كان أحدهم هو نفس المعلم. وقف بعضهم خلف العربة يدفعونها بينما كان سائق العربة يسحبها من المقدمة ممسكاً باللجام. أخيراً، خرجت العجلة من الحفرة وتقدمت قليلاً. عندها وضعوا حجراً خلف العجلة حتى لا تنزلق للخلف مرة أخرى، وواصلوا الدفع وهم يرددون "يا علي!". في تلك اللحظة، كان شقيق المرأة، حاملاً مِجرفة على كتفه، يمر من أمام العربة المحطمة. شاهد الطاووس والتمثال الملائكي المشطور إلى نصفين. أعجبه ما رآه بشكل ساخر ومرير. فجأة، سمع أصوات الدفع والصياح تقترب من بعيد. نظر باتجاه الصوت، ورأى فرصة جديدة لفشل محتمل و"سقوط آخر" يلوح في الأفق. كان ذلك بالنسبة له أمراً ممتعاً بطريقة غريبة؛ أن تنقلب تلك العربة المحمّلة بالأشياء المبهرة واللامعة، وتسقط وتتحطم. تساءل: "لماذا يأتون؟ من أين؟ وبأي مال يشترون هذه الأشياء؟" ثم توجه نحوهم. عندما وصل، رأى أن المعلم كان يساعد في تحريك العربة العالقة. فقال: "زينل بور، اتركها. الجزء العلوي مكسور أيضاً، انظر إليه." زينل بور، المعلم، كان يبذل جهده وقال: "اتركها ماذا؟ ألا ترى أنها عالقة؟" ردّ عليه: "عالقة فلتكن! لعن الله

هـذا الحمـل! إنـه شـؤم!" وبصق عـلى الأرض. فقـال زينـل بـور: "توقـف عـن الـكلام الفـارغ. سـاعدنا." قال: "أضـع كتفي تحت هـذا الحمـل؟ أبـداً، ألـف سـنة سـوداء! لعنـة عـلى صاحبها!"

فـردّ زينـل بـور، المعلـم: "صاحـب مـاذا؟ سـاعدنا. سـاعد الحصـان. سـاعد العربـة. العربـة لا ذنـب لها." وبـدأوا يبذلـون جهدهـم. وعندمـا أدرك العربـة أن بالإمـكان التحـرك بفضـل جهـود الآخرين، بدأ السـائق يـضرب الحصان بالسـوط، مما أجبره عـلى التحـرك. وبنظـرات الغضـب والضيـق التـي أطلقهـا شـقيق المـرأة، تقدمت العربـة ببطء تحت وطـأة الضربات الثقيلة بالسـوط حتـى وصلـت إلى الطريـق المسـتوي. صرخ السـائق وكأنـه حقـق انتصـاراً: "تحركـت أخيراً!" أمـا الحصـان فـكان يتنفـس بصعوبـة مـن شـدة التعب.

ومـن الأسـفل، كان شـقيق المرأة يراقـب العربة وهـي تصل إلى القمـة بجهـد دفـع الآخرين لها. فوق جسـد المـرأة المسـتلقية داخل العربـة، كان العقـاب ذو العينـين الحمراوين والجناحـين المفتوحين يبـدو متصلباً، قوياً، وكأنه تمثال إسـمنتي، أشـبه مـا يكون بعزرائيل يحرسـها أو يترصدهـا. في تلـك اللحظة، تمتم شـقيق المرأة في نفسـه بمـرارة وغضب: "لو لم يسـاعدها هـؤلاء الحمقى!" كانت الأمطار قـد بـدأت تسـقط مجـددًا، والعربـة تواصل سـيرها بخطـى بطيئة. كانـت تمـر فـوق أوراق الشـجر المتسـاقطة، وسـط ضبـاب خفيف

يطفو بين ألوان الأشجار الخريفية، وكأن البخار يملأ المكان في صمت. كان الجو مشبعًا برائحة التعب والملل. وكان العقاب يرافق الجنازة – جناحاه مفتوحان بلا حركة، عيناه الزجاجيتان فارغتان، مخالبه متشبثة بقوة في قاعدة الإسمنت، ومنقاره الخالي من الحياة، الذي كانت تتساقط منه قطرات الماء، وكأن تلك المياه تخرج من عمق كائن ميت، بلا روح. وصلت العربة إلى المنزل. أمام المنزل، كل شيء كان مكشوفاً تحت المطر: أدوات نفطية وكهربائية موضوعة في صناديق كرتونية، أثاث مغطى بالنايلون، لكن الثريات، والطبل، وأباريق الزينة، وبقايا الطاووس والفرشتين كانوا بلا حماية. العمّال، الذين كانوا منهكين، بعد أن وضعوا أحمالهم على الأرض، ذهبوا بحثاً عن الشاي أو عن ركن يحتمون فيه. لكن المطر اشتدّ وسرعان ما أدركوا أن الانتظار لا بد منه، على أمل أن تكون العاصفة قصيرة. لكن المطر لم يتوقف، واستمر في الهطول بغزارة. من التعب تحولوا إلى الكسل، ومن الكسل إلى الصبر، وأخيراً استسلموا.

بدأوا يبررون الموقف: "النايلون يحمي الأثاث من المطر." "الأدوات المعدنية في الصناديق الكرتونية لن تتضرر، لأنها مغطاة بمادة لامعة، وموضوعة في أكياس نايلون." "المطر لن يؤذي سوى الكرتون، الذي سيقاوم الماء في النهاية. حتى وإن تبلل، لن يتمكن أحد من لمسه، لأنه سيذوب مباشرة."

أحدهم قال: "كل ما لديهم ضاع تحت المطر." فرد عليه آخر مازحاً: "الغبار قد زال عنهم!" وضحكوا. غسل المطر البلّورات الملونة للثريات، ومنح النحاس بريقاً، أما الطبول، فقد ضربها المطر بقوة حتى ارتخت طبقاتها، وانهارت، ولم تعد تصدر صوتاً، بعدما تراكم الماء في داخلها.

وصل السائق إلى المكان ووجد أنه لا أحد هناك. فصرخ بصوت عالٍ، لكن لم يأتِ الرد. لم يسمع سوى صوت المطر المتساقط على أسطح الأمتعة، وقرع الطبول، وصوت هياكل الأشياء. ربط لجام الحصان بشجرة جوز ليحميه من المطر، ثم وضع بعض الحجارة الثقيلة خلف العجلات لتثبيت العربة ومنع الحصان من التحرك. ثم ذهب تحت العربة وضرب بعصاه منتظرًا أن يتوقف المطر، الذي كان يتساقط من فوق هيكل العقاب، ويغمر السائق عبر الشقوق في سقف العربة. نظر السائق ليكتشف من أين يتساقط الماء، فوجد أسفل العربة، بين العجلات، صورة معركة رستم مع الشيطان الأبيض (رستم هو بطل أسطوري في الأدب الفارسي، ويظهر في ملحمة "شاهنامه" للفردوسي. يُعتبر من أعظم المحاربين الفارسيين، وأشهر معاركه كانت ضد الشيطان الأبيض، وهو وحش يمثل الشر، حيث قاتله لإنقاذ وطنه) . نظر إليها لكنه سرعان ما تحول انتباهه إلى الحصان الذي بدأ يشم الأرض. وفي

تلك اللحظة، وسط تساقط المطر المتواصل، رأى من خلف الستار المائي، ومن خلال برودة الضباب، شخصًا ضخمًا يتحرك نزولاً من التل باتجاهه. كان الرجل من أهل القرية. جاء متحديًا العاصفة ليكون شاهدًا على ما يحدث في القرية، ولكن مع الأسف، كانت الأمطار قد غمرت الأرض، حيث أغرقت الطريق وقطعته، ومنعته من الوصول إلى القرية في الوقت المناسب ليكون شاهدًا على ما يحدث هناك. كانت الأمطار قد غسلت كل شيء، وأغرقت القرية، فدفعت الناس البائسين إلى الاختباء في أكواخهم الطينية.

كان الرجل يتقدم بخطواته المتثاقلة، ينظر حوله بتوتر قبل أن يقترب من العربة. نظر للأعلى حيث كان يرى النسر فوقها، لكنه لم يرَ من كان أسفلها. توقف بجانب عجلة العربة، بحيث لم يستطع السائق رؤية أكثر من ركبته المبتلة من بين قضبان العجلة، لكنه سمع صوته وهو يزمجر: "هل أتيت؟ أحسنت صنعًا!" ثم تسلق الرجل العربة. ألقى السائق نظرة حذرة على الصخور خلف العجلات، خشية أن تتحرك العربة تحت ثقل الرجل، لكن الصخور كانت ثابتة في مكانها. تساءل في نفسه بدهشة: من هذا الرجل الغريب؟ ولماذا، في هذا المطر الغزير، يتسلق العربة بينما الآخر يختبئ أسفلها؟ ما الذي يبحث عنه هناك؟" وفجأة، قفز الرجل من فوق العربة إلى الأرض، صارخًا

بصوت كالرعد. تطاير الطين ليغطي وجه السائق الذي صاح غاضبًا: "أوه! أيها المجنون!"لكن صرخته تلاشت وسط ضحكات الرجل الذي كان يهتف بحماسة مجنونة: "تعالوا! أيتها الأمطار! دمري كل شيء! تظنون أنني سأتوقف؟ سأشتري مجددًا، سأشتري من جديد!"مسح السائق الطين عن عينيه ليرى الرجل واقفًا، يرفع قبضتيه نحو السماء، يتحدى المطر والغيوم. ثم وضع يديه على خصره، وظل واقفًا وسط الطين، يهز رأسه، ويدور في مكانه بجنون، وملابسه تتشبع بالماء والطين حتى ركبتيه. راقبه السائق بدهشة، وقد بدا له مشهد الرجل غريبًا لكنه مثير. لم يعد يقوى على السخرية أو حتى هز رأسه استهزاءً. كان الرجل يقف لبعض الوقت، ثم فجأة، يصرخ بأعلى صوته: "أين أنتم؟ تعالوا! ام علي! يا كبير القرية! تعالوا!"

ثم أخذ يرقص كالمجنون بين الطين وتحت هطول المطر ، يقفز هنا وهناك، يصرخ ويدق طبلاً متهالكًا لم يخرج أي صوت، فسقط من بين يديه. كان صوته يعلو بين قفزاته ورقصاته، مرددًا : "أين أنتم؟ تعالوا"

لم يأتِ أحد. عندها ألقى بنفسه على أريكة مغطاة بالنايلون، يأخذ أنفاسه. كان الطريق طويلًا، والمطر لا يتوقف، والرقص استنزف ما تبقى من قوته. لكن ما إن لمح آلة "التوبا"الموسيقية النحاسية تحت المطر حتى قفز مجددًا، أمسك بها، رفعها فوق

كتفـه، وبـدأ ينفخ فيهـا. كان الصوت غريبًا، لا يشـبه أي موسـيقى ولا صـوت أي حيـوان. بـدا للسـائق وكأنه نهيق حمـار يحتضر، بينما للرجـل كان كأنـه نفـخ إسرافيـل في الصور يـوم القيامة.

صرخ الرجل: "يا علي! الناي! أحضر الناي!"

ثـم عـاد يرقص على إيقـاع صوت آلـه التوباالموسـيقية لكن هذه المـرة بحـركات منتظمـة، وكأنه يقود أوركسـترا مـن الفوضى تحت المطر.

أمـا السـائق، فـكان جالسًـا تحـت العربـة، يراقـب هذا المشـهد العجيـب. كان يـرى الرجـل الـذي بـدا مزيجًـا مـن معـدن أصفـر لامـع وسروال مبتـل بالطـين، بينـما فمـه الدائـري ينفـخ في الآلـة بصـوت يصـم الآذان، وجسـده يتمايـل مـع الوحـل. ثـم، فجـأة، انزلقـت قـدم الرجل وسـقط مـع الآلـة في الطـين، فتصاعد صوت ارتطـام الحديـد بالحجـر، متبوعًـا بأنـين الرجـل المكتـوم. نهـض بصعوبـة، محـاولًا حمل التوبـا الثقيلة عـلى كتفه، ثم بـدأ يترنح ببطء عائـدًا نحـو المنزل. عندما وصـل إلى الباب، توقف، أخـرج مفتاحًا صغـيرًا مـن جيبـه بصعوبة بالغـة، وفتحـه بصوت معـدني متقطع، قبـل أن يدخـل ويغلـق البـاب خلفـه بهـدوء. ظـل المطريهطـل بلا توقـف. أمـا السـائق، الـذي كان لا يـزال جالسًـا تحـت العربـة، عطـس ثـم تمتـم سـاخرًا: "صحـة... أو بالعافية!"

تحت اللحاف، كان البخار يتزايد. كان الرجل يتنفس بكل ما لديه من قوة. كان قد لفَّ منشفة على رأسه وجبينه حتى لا يصاب بالبرد أو الزكام عندما يخرج. ولكن كان تركيزه على ما يحدث في الخارج. كان يسمع من تحت اللحاف الأصوات التي تشير إلى أنهم يخرجون الأشياء من الصناديق والاغلفة. على الرغم من أنه كان قد تحدى المطر في اليوم السابق قائلاً: "دعها تمطر، لا يهمني، وإذا فسدت الأشياء سأشتري غيرها"، إلا أنه الآن كان خائفًا أن يفسد شيء ما، ينكسر، أو يُخدش. لم يكن قادرًا على الاستمرار، فَرَفَع اللحاف، وتسلل بحذر من فوق وعاء البخار، وقف، استقام بظهره، ووضع قبضتيه على أسفل ظهره، ومدَّ جسده بأقصى قدر من الاسترخاء.

بعد ذلك، وهو يشعر بأقصى درجات السيطرة، وبمنشفة حمراء داكنة ملفوفة حول رأسه مثل عمامة مثل التي يرتديها الحكام أو القادة في الأساطير"ورداء منزلي طويل من حرير بنقوش صينية، وكأنه إمبراطور صيني، جاء إلى جانب عمود خشبي على الشرفة، وأخذ نفسًا عميقًا وقال بصوت عالٍ: "انتبهوا ألا ينكسر شيء!"

ثم رفع صوته أكثر قائلاً: "أيها الفتى! أحضر الكرسي!"

الفتى، وهو نفس الشاب القريب لزوجة الصائغ، أحضر كرسيًا واحدًا مزخرفًا ومذهبًا ووضعه في وسط الشرفة كان

هنـاك مصبـاح كهربائـي معلـق في السـقف المصنـوع من أخشـاب قديمـة ومتعفنـة، بينـما كانـت عـوارض السـقف القديمـة مليئـة بالغبـار، وتحمـل حصائـر متسـخة. كانـت أسـطح المنـزل الطينـي المتداعـي تبـدو وكأنهـا مهـددة بالانهيـار تحـت الأمطـار.

حـرّك الرجـل الكـرسي قليـلاً ليضعـه تحـت المصبـاح، ثـم جلـس عليـه وهـو يراقـب عمليـة إخـراج الأغـراض. في الفنـاء، كان الآخـرون يخرجـون الأدوات مـن صناديقهـا. كان الفنـاء مليئًـا بالصناديـق الفارغـة، والقـش، و الأغلفـة البلاسـتيكية. قال الرجـل مجـددًا، بلهجـة صارمـة: "أحـضروا ذلـك النـاي أيضًـا!.

الرجـل الشـاب، الـذي كان ينتظـر بفـارغ الصـبر أن يُصبـح مشـهورًا في الفـن، هـرع وأحـضر بوقًـا نحاسـيًا كبـيرًا، لامعًـا، ومتعرجًـا وهـو آلـة التوبـا الموسـيقية، ووضعـه بجانـب الكـرسي الذهبـي ذي الأذرع. في أثنـاء ذلـك، دخـل كبـير القريـة. لم يتغـير كثـيرًا، كان بنفـس ملابسـه المعتـادة، ومـع نفـس المسـبحة في يـده، ولكـن هـذه المـرة بدلًا مـن تقطيـب حاجبيـه بعلامات الهيبـة، جاء وعـلى شـفتيه ابتسـامة خفيفـة تُظهـر التواضـع والخضـوع. كان يميـل بظهـره قليلًا ويحنـي عنقه برفـق ليُخفي ضخامة جسـده كي لا يبـدو مفرطًـا في الهيبـة. بالتأكيـد ، كان لا يـزال يحتفـظ بمكانتـه ككبـير القريـة، لكـن فقط بما يسـمح له بـأن يظهر في موقـف ينتظر فيـه عنايـة أو رحمـة مـن الآخرين. تقـدم إلى الأمـام، انحنـى، ألقى

التحيـة، ومـن تلقاء نفسـه بدأ يخفض رأسـه مُرددًا "شـكرًا جزيلًا، يـا سـيدي، عـلى لطفكـم وكرمكم"عـلى الرغـم مـن أن الرجـل الجالـس تحـت المصبـاح الكهربائـي المعلـق في السـقف، لم يكـن قد أبـدى أي علامـة تدل على اللطـف أو الامتنان حتـى تلك اللحظة. لم يلحـظ الرجـل وجـود كبـير القريـة حتـى اصطدمت يـده بصنج (أدوات الإيقـاع) الطبلـة، فوقـع الصنـج وأصـدر صوتًـا معدنيًـا مدويًـا. قـال العمـدة بإعجـاب: "تبـارك الله! ما شـاء الله، ما شـاء الله!"، ثـم أضـاف: "تحيـة وسـلام لـك، يـا سـيدي الكريـم"، وانحنـى مـرة أخـرى برقبتـه في علامـة امتنـان وخضوع.

نظـر الرجـل إلى كبـير القريـة مـن تحـت حمـرة العمامـة التـي لفهـا حـول رأسـه وقـال: "آه، كبـير القرية! بـارك الله فيـك. كيف حالـك؟ هـل أنـت بخـير؟"

انحنـى كبـير القرية برأسـه مـرة أخـرى، لكنه فضـل الصمت، إذ وجـد فيـه أدبًـا أكثـر مـن أي كلـمات شـكر. كان ينتظـر أسـئلة أكثـر اهتمامًـا أو كلـمات لطـف مـن الرجـل، لكـن فجـأة دخلـت زوجـة الرجـل مـع ابنهـما "علي"مـن الحـارة إلى السـاحة. رأى الرجـل طفلـه عـلى حـين غـرة، فقفـز مـن مكانـه بسرعـة قائـلًا: "بابـا!". هـرع ليحتضنـه وهـو يقـول: "يـا بنـي، أيـن كنـت؟ أين كنـت الليلـة الماضيـة؟ تعـال إلى حضن أبيـك، بابا العزيـز!"، لكن الطفـل كان يهـرب منـه. ربـما بسـبب الضوضـاء، والفـوضى التي

سببتها الأغراض المنتشرة في الساحة، أو ربما لأنه لم يرَ والده منذ عدة أشهر، وربما لأن العمامة الحمراء الكبيرة التي ارتداها والده أثارت خوفه. التصق الطفل بوالدته، رغم أنها حاولت أن تدفعه بلطف نحو والده ليُعيد بينهما الوئام (الحنين) ، لكن الأب كان يصّر أن يأخذه بعيدًا عنها، في محاولة لاستعادة حقه كأب ولفك الارتباط بين الطفل ووالدته.

قبّل الرجل طفله وقال: "تعال يا بني، تعال لترى الناي... الناي!"ثم أخذه نحو تلك الآلة النحاسية الضخمة وقال: "أرأيت كم هي كبيرة؟ تلمع كأنها ذهب!"رغم أن الطفل لم يكن يعرف ما هو الذهب. بعد ذلك وضعه على الأرض ليقترب من تلك الآلة الضخمة اللامعة، ثم قال مجددًا: "هل رأيت الناي؟ هل أنت سعيد الآن؟ ألم أقل لك إنني سأشتري لك نايًا، يا أحمد علي؟ ها قد اشتريت لك!"

كان الطفل ينظر إلى فوهة الآلة الكبيرة، حيث يرى انعكاس صورته مشوهًا على سطحها البراق (اللامع) بلونها الأصفر، وكأن ذلك المنظر الغريب يجذبه.

كان الرجل غارقًا في نشوة الفرح وهو يرى – بظنه (في اعتقاده)- حلم طفله يتحقق، رغم أن الطفل لم يكن يحلم بمثل ذلك قط، ولم يكن حتى يعرف بوجود هذه الآلة أو الغاية منها، بل إنه الآن لا يدرك ما هي، ولماذا صُنعت، أو كيف تُستخدم.

التفت الرجل إلى زوجته وسألها بحدة: "لماذا أتيتِ إلى هنا؟".

كانت المرأة منشغلة في العبث بطرف منديلها، رفعت رأسها فجأة وببراءة ساذجة قالت: "فقط... أتيتُ لا غير".

صرخ الرجل بحدة معاتبًا: "أين كنتِ طوال هذا الوقت؟!".

أجابت المرأة: "أنت لم تكن هنا. منذ مدة طويلة وأنت غائب. تأتي أحيانًا، وما إن ننتبه لوجودك حتى تكون قد اختفيت مجددًا".

فقال الرجل بيقين وثقة: "أنا دائمًا كنت موجود، وسأظل موجودًا. أقسم بروح عمّتكم أنني كنت هنا. ألا ترون؟!".

قالت المرأة بعفوية: "الكل يقول إنك جُننت وذهبت إلى المدينة".

فقال الرجل ساخرًا: "جُننت؟! لا يا مساكين! من يملك هذه الأشياء يكون أعقل الناس! الغبي هو من يقول عني مجنون. المال يجلب العقل، أفهمتم!"

فقالت المرأة: "لم أكن أعلم أن لديك مالًا. لم يعلم أحد."

رد الرجل باستهزاء: "أنتم عميان! الآن ستعرفون. هل أنا مجنون؟! أنا مُختار من الله أو (أنا مبارك من الله).

كان الرجل مقتنعًا تمامًا أنه شخص مختار من الله، فوق كل الناس، بل كان يرى نفسه أرفع وأفضل من كل البشر، وأن على الجميع الإيمان بتفرده وتميزه.

قالت المرأة: "عندما ذبحتَ البقرة، قال الجميع إنك جُننت."

فقال الرجل بفخر: "ذبحتها لأجل أن يعلو قدري وتأتي سعادتي."

قالت المرأة بصوت مرتجف وبكاء مكبوت: "من قال إن ذبح البقرة يجلب الحظ؟."

صرخ الرجل بغضب: "إذًا البقرة هي التي سيعلو حظها؟! اذهبي الآن، اذهبي إلى أولئك الذين يعتقدون أنني مجنون."

أجابت المرأة بيأس: "لن أذهب. أريد أن أبقى بجانبك."

صرخ الرجل وهو يضرب الأرض بقدمه: "بجانبك؟! أين كنتِ عندما كُسر المحراث؟ أين كنتِ وأنا أُصارع الجبال وحدي؟ أين كنتِ عندما كنتُ أذبح تلك البقرة العنيدة التي كانت ترفسني وتوشك أن تنطحني بقرنيها؟!."

قبل أن تجفف المرأة دموعها، وقبل أن تكتم شهقاتها، دوّى صوت أخيها من الخلف وهو يصرخ بغضب: "عار عليكِ! هيا، تعالي معي. لماذا أتيتِ إلى هنا؟."

كانت قبضته القوية تشدّ ذراعها بقسوة محاولًا سحبها.

قالت المرأة بإصرار: "لن أذهب!" صرخ الأخ مرة أخرى: "قلت لكِ تعالي!"

أجابت بصوت حاسم: "لن أذهب. هذا بيتي."

فقال الأخ بصوت ملؤه الغضب لكن تختلط به المحبة: "كل هذه الأمور جالبة للنحس... إنها شؤم! ستجلب لكِ ولهم الخراب!"

عندها، شعر كبير القرية أن الوقت مناسب ليتدخل ويمارس دوره، فقال بصرامة: "الشؤم هو أنت، يا عديم الوفاء.!"

قال الأخ بإصرار موجهًا حديثه للجميع، بصوت حاول أن يكون هادئًا: أنا أقول هذا من أجلكم جميعًا. هذه الأشياء ليست سوى زيف وبريق خادع. ستجلب عليكم التعاسة والخراب!"

صرخ كبير القرية فيه محاولًا إسكات صوته: "لا تتدخل، أيها الأحمق!". ثم ألقى نظرة سريعة نحو الرجل الجالس تحت المصباح المعلق، ليتأكد أن خدمته قد تركت أثرًا، لكنه وجد الرجل غارقًا في اعتزازه بنفسه، لم يعرهم أي انتباه.

ظل الأخ مُصرًا على سحب أخته قال: "قلت لك تعالي!"

فيما بقيت هي مصرة على البقاء بجانب زوجها الذي بات يشعر بالهيبة والسطوة. كانت تردد بعناد، وبصوت يرتفع مع كل مرة: "لن أذهب! لن أذهب! لن أذهب!"

أخيرًا، قال الأخ بصوت يائس متوسل: "أختي، يا حبيبتي... كل هذا ليس سوى زينة خادعة... بريق بلا قيمة!."

المرأة كانت تبكي وتقول باستمرار: "لن أذهب"

كبير القرية، وهو ينظر نحو المصباح المضيء، قال: "سيدي، إذا تسمح لي، سأخرجه من هنا، سيدي."

الأخ قال مرة أخرى: "تعالي نذهب."

المرأة كررت: "اتركني، لن أذهب."

الأخ قال: "أنتِ طاهرة يا أختي، طاهرة، كل هذا قذارة، قذارة."

كبير القرية ضرب أخاها بقوة على رأسه وقال: "القذارة أنت أيها الوغد الأحمق، اخرج من هنا!."

المرأة سحبت ذراعها من قبضة أخيها وقالت: "لن أذهب، اتركني"

كبير القرية دفع بقبضته على صدر الأخ وقال: "هيا، اخرج!"

الأخ، وهو عاجز، صاح: "هيا، أيها الكلب!"، ثم أمسك بذراع المرأة محاولًا سحبها. المرأة وهي تصرخ "اذهب عني!"صفعته على وجهه، فانزلقت قدمه وسقط على الأرض.

انهال كبير القرية عليه بركلات متتالية وقال: "اخرج أيها الوغد، تشتم؟! هيا، ارحل عن هنا"

نهض الأخ ببطء من بين الأوراق الجافة المتناثرة على الأرض، بحث عن قبعته السوداء التي سقطت منه، أمسكها، واتجه نحو الزقاق وهو يتلقى الركلات ويتمتم غاضبًا. وعندما خرج إلى الزقاق، حاول أن يبصق، لكنه لم يستطع، فقال: "حتى البصاق يجف في فم الإنسان."

عندما هدأ الوضع، نادى الرجل على المرأة وقال: "اقتربي."

صعدت المرأة السلم، وذهبت إلى الشرفة، ثم انكسرت عيناها ونزلت رأسها بجانب الكرسي. الرجل، من دون أن يلتفت، قال لها من زاوية فمه: "أنتِ لا تناسبين حياتي الجديدة. إذا أردتِ البقاء، ابقي، لكن لخدمتي فقط. لا يجب أن تكون لديكِ توقعات كبيرة بعد الآن".

قفز الرجل من الغرفة المبنية بالطين إلى الشرفة، وضرب يديه ببعضهما ليزيل الغبار والدخان، وقال: "لم يخبرني أنه يحتاج إلى ماء."بعد لحظة، قفز المعلم أيضًا إلى الشرفة، وكان يفرك يديه في المنديل، وقال: "بالطبع، الحمام يحتاج إلى ماء. السخان يحتاج إلى وقود. الثلاجة يجب أن تكون إما تعمل بالوقود أو بالكهرباء. والموقد (البوتجاز) يحتاج إلى غاز."نفخ الرجل بذور التمر من فمه وهو يمضغها، وقال: "كنت أظن أن كل هذه

الأمـور أوتوماتيكيـة. لم يخـبرني مـن بـاع لي هـذه الأشـياء. "أجاب المعلـم بلطـف واحـترام، مشرحًـا: "لا يـا عزيـزي، يجـب أن تفكر في كل هـذه التفاصيل. "كانـا يسـيران ببـطء، الرجـل يلتهـم التمـر في فمـه بينـما المعلـم يسـتمر في حديثه بهـدوء: "الأمر ليـس معقدًا. عندمـا تصـل الأشـياء، كل شيء يصبح سـهلاً. سـواء كان الماء، أو الغـاز، أو الكهربـاء. إذا كان لديـك المال، فشراء هذه الأشـياء ليس صعبًا. "تذكـر الرجـل قوته وقـال: "آه، المال؟ نعـم. تفضل، تناول التمر. "وأخـرج حفنـة مـن التمر مـن جيبـه وقدمها للمعلـم. قال المعلـم: "شـكرًا. "قال الرجـل: "تنـاول، إنـه لذيذ. "لكـن المعلم، الـذي كان يفكـر في حديثـه، بدأ يفكـر في أنه ربما حـان الوقت الآن لقـول مـا كان في ذهنه، وقال: "لكـن هذه الأجهزة لا تتناسـب مع هـذا النـوع مـن المنازل. "توجـه الرجـل إلى عتبـة الغرفـة، وجلس عـلى المقعـد الذهبـي تحـت النجفـة. كان البـوق الكبـير موضوعًـا في الزاويـة خلفـه. وكان المعلـم جالسًـا أمامـه وهـو يتابـع حديثه: "عندمـا تـأتي الأجهـزة الجديـدة، يتغـير كل شيء. النـوع يتغـير. مثـلًا، الحـمام. جـدران الطـين القديمـة تتبلـل مـن رش الـدش أو تـسرب المـاء مـن حـوض الاسـتحمام، ويجـب أن يكـون هنـاك أنابيـب للـصرف، والمزيـد مـن المـاء، وأيضًا يجـب أن يكـون هناك بلاط. "تدخـل الرجـل في حديـث المعلـم، غـير مبـالٍ بحبـة التمـر التـي دخلـت في حلقـه، وقـال: "هـل يحتـاج إلى بـلاط؟ "وكان يبـدو سـعيدًا أنـه قـد وجـد فرصـة للحديـث. أجـاب المعلـم:

"نعم، يحتاج إلى بلاط." قال الرجل بفرح: "من الأرض حتى السقف؟" أجاب المعلم دون تفكير، لمجرد تأكيد كلامه: "نعم، من الأرض حتى السقف." قال الرجل مبتسمًا: "سيكون ذلك رائعًا. كنت في محافظة طهران، وكان التلفزيون يقول ذلك." ثم شعر بالراحة. ولكن بعد لحظة، عبس وقال: "ولكن في الواقع، التلفزيون أيضًا لا يعمل." أكد المعلم بثقة: "اعطوني الوقت، إذا أنفقتم المال، سيتحسن كل شيء." نفخ الرجل من تمرة جديدة، وشد نفسه، وجلس بقوة، وقال: "لا داعي للتوفير."

كانت الشمس عند نهاية يوم خريفي تشع على جذوع أشجار الجميز، بينما امتلأت سماء الجبال بالسحب ذات اللون الأزرق الداكن، التي بدت وكأنها تقترب وتنخفض. كانت السحب تحمل المطر، لكنها لم تمطر بعد. وكان دوي عميق متدحرج يُسمَع أحيانًا بعيدًا في الوادي، وكأنه رعد يتفجر، أو ربما صخور تُكسر.

كانوا يحفرون حفرة في الحديقة. كلما اصطدمت فؤوسهم بالصخور، تصدر أصوات رنين معدني يتردد في المكان. كان أحد الحفارين شقيق الزوجة، بينما الآخر صديقه "السيد". كان السيد يعمل بهدوء، منهمكًا في عمله اليومي المعتاد، بينما شقيق الزوجة كان غاضبًا، يضرب الأرض بالفأس بقوة، ويخرج التراب بغضب إلى حواف الحفرة، وكأنه يصارع ليبقي على

صمتـه. لكـن غضبـه لم يلبـث أن انفجـر فجـأة وقال: "لقـد انتهـى كل شيء! والله، بحـق الحسـين، وبحق السـيدة زهـراء، لم يعد هناك أمـل. يجـب أن يـترك الإنسـان كل شيء ويرحـل"!

قال السيد بهدوء: "يا رجل، كفاك تذمرًا، لم يحدث شيء."

غـرز الرجـل الفـأس بعنـف أكـبر في الأرض وقـال: "تقـول لم يحـدث شيء؟ ومـا الـذي يمكـن أن يكـون أسـوأ مـن هذا؟"

رد السـيد بسـخرية: "أختـك عـادت إلى بيـت زوجهـا، أليـس ذلـك أمـرًا جيـدًا؟ وزوج أختـك أصبـح غنيًـا، أليـس ذلـك أفضل؟"قـذف شـقيق الزوجـة حفنـة مـن الـتراب بعيـدًا عـن الحفـرة، وقـال بغضـب: "لا أريـد أن يحـدث ذلـك"!

قال السيد: "إنك تغار."

غـرز الفأس مجـددًا في الأرض وقال: "أغار مـن ماذا؟ كل شيء ينهار"وألقـى التراب خـارج الحفرة وتابع: "ذلك الرجل وكرسـيه الذهبـي"، ثـم ضرب الفأس مجـددًا بقوة، وأضـاف: "وبمصابيحه الكريسـتالية"، ثـم ضغـط بقدمـه على الفـأس ليخرج كتـل الطين، وقـال: "بمظلتـه المزخرفـة بألوان زاهيـة، يخدع الجميـع. لقد جعل الـكل أسرى لـه، ثم رمـى الطـين، وانتقـل إلى حفر حفـرة أخرى، قائـلًا: ".مـن الفتـاة البسـيطة إلي كبـير القرية!"ثـم ركل الفـأس قائـلا: "هه!".

وأبقى الفأس في الحفرة. واستمر في الكلام: "والآن، بدأ في الجبال. يسوّي التلال ويدمرها ليبني بيوتًا!"وعندما أراد أن يشير بيده نحو التل، وقعت عيناه على طريق ضيق يمر خلف سور حجري. كان المعلم "زينل بور"يسير على ذلك الطريق. قال شقيق الزوجة: "انظر إليه، زينل بور أيضًا... كان يتفاخر ويتوعد، والآن أصبح مجرد كاتب مكاتب. تبا على هذا الزمن!"ثم بصق على الأرض، ودفع الفأس وكأنه يريد التخلص منه.

في غضبه، أخذ يمشي حول الحفرة والفأس بشكل حائر. ثم قال أخيرًا: "ها أنت، فرح بالحفر وغرس الأشجار."لكن صوته انفجر فجأة في صرخة غضب: "هناك في الجهة الأخرى، يجتثون الجذور، يقطعون الأشجار من أساسها!"ثم صمت."

من بعيد، تكرر صوت الانفجار. ربما كان رعدًا أو صخور الجبال تتكسر، لكن دويّه كان يتلاشى بعيدًا. أما السيد، فظل منهمكًا في عمله البسيط.

كان صهره (أخ المرأة) يدور حول نفسه متوترا، ثم قال بيأس: "قلت لك، انتهى كل شيء. لا يمكن البقاء هنا بعد الآن. سأرحل."

قال سيد، محذرًا أكثر مما هو مستفسر: "إلى أين ستذهب؟"

رد الصهر (أخ المرأة) بإصرار: "سأرحل"، وهزّ رأسه كأنه يؤيد قراره. ثم أضاف: "هناك، في الجهة الأخرى، يبنون طريقًا. تسمعهم وهم يفجرون الجبل؟ سأترك كل شيء وأرحل."وبدأ يمشي .

قال سيد: "لا ينبغي للإنسان أن يكون متهورًا. إلى أين ستذهب ؟ "

لكنه لم يلتفت إليه و استمر في طريقه، وابتعد بحذر عن الشجيرات الشائكة كي لا يحتك بها، خاصة عندما لمح زينل بور، المعلم، قادمًا باتجاهه.

مرّ المعلم بجواره، ورأى توتره وغضبه، تساءل في نفسه عن سبب هذا التصرف الجاف منه. وبينما كان يمشي بين الشجيرات، لم يكن هناك ظل له على الأغصان، فقد غابت الشمس.

كان سيد لا يزال منهمكًا في الحفر. اقترب المعلم وسأله: "ما الذي حدث؟"وبذلك جمع بين التحية والسؤال عن الحال.

تردد صوت دوي آخر في الوادي، غامضًا، وكأنه رعد أو انفجار.

قال سيد: "كان يشتكي من تسوية التل. يقول إننا نرتكب خطأً

رد المعلم بابتسامة خفيفة: "وهو بنفسه يقول إنه يريد أن يعمل في بناء الطرق على الجهة الأخرى من الجبل."

بدأت ذرات صغيرة من الثلج تتساقط، وتتناثر فوق الأوراق.

قال سيد، وهو مستمر في عمله كأن الأمر لا يعنيه: " البشر هكذا."

قال المعلم محاولًا أن يبدو منصفًا: "هو شاب مندفع، لكنه في العمق شاب جيد."

لم يكن هذا التعليق محض شعور فطري أو فضيلة تلقائية، بل كان فنًا أتقنه للتعامل مع الناس، مهارة تعلمها لتجاوز الخلافات الصغيرة.

قال سيد، غارقًا في أفكاره: "لكنه سليط اللسان، عديم المعرفة. لا ينبغي لأحد أن يغضب ويترك كل شيء."

تردد صوت الدوي مجددًا في الوادي.

حاول المعلم إشعال سيجارته وهو يهز رأسه بتأمل.

قال سيد: نحن مثل العشب الذي ينبت من هذه الأرض. نشأنا من هذا التراب. إلى أين نذهب؟"

وكانت هيئته، وهو يترك المعول ويمد يديه جانبًا، تجسيدًا لاستمرارية وتساؤل وجودي عميق.

قال المعلم: "لن يذهب."

رد سيد بتأكيد: "يجب أن يتحلى الإنسان بالصبر. أجدادنا تحملوا وصبروا وبقوا هنا. أما نحن، نرحل؟"

رد المعلم مرة أخرى: "لن يذهب."

وأضاف سيد: "إلى أين نذهب؟"

قال المعلم: "الشخص المندفع لا يذهب إلى أي مكان. هو فقط يشتعل غضبًا." ثم أكمل طريقه بهدوء.

عاد سيد إلى الإمساك بالفأس، وواصل عمله بصبر. كان المساء يوشك أن يسدل ستاره، وكان يدرك أن عليه إنهاء الحفر قبل أن يحل الظلام ويبدأ المطر.

الرجل كان يرتدي معطفًا جلديًا طويلًا بأزرار كبيرة تلمع. كان المعطف يصل حتى ساقيه، اللتين غطتهما جزمة طويلة مخصصة لركوب الخيل، رغم غياب الحصان. لكن مع كل خطوة يخطوها، كان صوت رنين المهماز يتردد، وصوت صرير الجلد يضيف رهبة لخطواته. وضع يده اليمنى على بطنه تحت طيات المعطف، بينما قبضت يده الأخرى على جلده (أداة القيادة الجلد) يعلقه على ظهره. خلفه كان يقف المعلم، يترقب لحظة مناسبة للحديث. وعلى مسافة أبعد قليلًا، كان الشاب المغرم بالفن قد لف شالًا صوفيًا حول عنقه وأنفه ليتقي برد الشتاء القارس. الشاب كان يعاني من زكام شديد، وعطاسه المتكرر كان يعكس حالته المزرية بينما كان ينتظر عطسة أخرى قادمة.

أسفل التل، امتدت بستان تتلألأ تحت أشعة الشمس الذهبية. كلما اقتربوا، انعكست أشعة الشمس من بين أوراق الأشجار كأنها ورق ذهبي، بينما امتزجت ظلال الجذوع القديمة بلون الأوراق الذهبي لتخلق مشهدًا ساحرًا. الرجل كان يسير بخطوات واثقة، راضيًا عن ملابسه، جزمته، ومهمازه.

قال المعلم: "سنُزيل هذه المنطقة."

ضغط الرجل علي شفتيه، وأبرز ذقنه، ورفع حاجبه الأيسر بتعبير يدل على عدم الاهتمام وهز رأسه.

تابع المعلم: "البيت الذي سنبنيه هنا يجب أن يتماشى مع روح العصر سأل الرجل بتعجب: "مع ماذا؟."

فسر المعلم: "مع روح زماننا." ثم توقف قليلًا ليعيد ترتيب أفكاره، وقال: "لكن يجب ألا نتجاهل التراث الوطني وإرث الأجيال السابقة. يجب أن يكون أساس عملنا، وأن نستلهم منه كقاعدة أصيلة."

قاطعه الرجل وقال بتحمل: "ماذا تعني بهذا الكلام؟"

لكن المعلم واصل كلامه: "أساس قوي لبناء متين ودائم."

لم يستطع الرجل التحمل أكثر فقاطعه بعصبية: "أنا أقول لك تحدث عن البيت! كم مرة ستكرر نفس الكلام؟"

توقف المعلم زينل بور قليلاً. كان يعلم أنه بحاجة لشرح خطته للرجل، لكن انتباهه كان منصبًا على نفسه أكثر. لقد رأى

في هـذا الموقـف فرصـة لإظهـار أفـكاره النمطيـة، وكأنـه يخاطـب نفسـه أكثـر مـن مخاطبتـه للرجـل. كان الرجـل بالنسـبة لـه مجـرد وسـيلة ليعـبّر عـن أفـكار محفوظـة يعتقـد أنهـا من بنـات أفـكاره. التحـدث بشـكل غامض ومتكلّـف كان جـزءًا من عمله السـابق، وهـو مـا اسـتمر عليـه في وصف أفـكاره.

الـكلام المباشر لا يُناسـبه؛ الـكلام المباشر يجرده مـن الغموض، ويحتـاج إلى تبرير. بينـما الغموض، على العكـس، يعفيه من الشرح. إذا بـررتَ فكـرة واحـدة، فأنـت مُلـزم بتبريـر مـا بعدهـا، وأسـوأ مـن ذلـك، تُشـجع الآخريـن على طلـب المزيد مـن التبريـرات. لا شيء أصعـب وأكثـر خطـورة مـن الحاجة لتبريـر ما تقـول. الإيمان يُكتسـب بسـهولة أكـبر مـن القناعـة. الإيمان يحتـاج إلى آيـة قرآنية، بينـما القناعـة تحتـاج إلى تفكـير. التفكير صعـب، بينما الحفظ سـهل يحتـاج إلى الذاكـرة، الحفـظ و الآيـة، والتعاويـذ أسـهل اسـتخدامًا وأسرع تأثـيرًا. لذلـك، كان الغمـوض والتعقيـد في كلامـه يبـدو أكثـر هيبـة وثقة.

اسـتأنف السـير وقال: "سـنزيل هـذه المنطقة. سـنقطع قمة هذا التل ونجعلها مسـتوية."

قـال الرجـل، مـن بين الجلـود التي يكسـو بها حـذاؤه ومعطفه، بحماسـة وقـوة: "أنـا أقـول منـزل، وهـو يقـول تلـة! مـاذا نفعل؟ سـنفعل مـا نريـد. الآن، أخبرني عـن هـذا المنزل!"

قال زينل بور الكلام بسرعة: "يجب أن نعمل عليه. نحتاج إلى مكان للحمام والمطبخ وما شابه ذلك. ولكننا سنحافظ على الأسلوب، لأنه مهم، تقليدي." قال الجزء الأول باللهجة العادية، لكن عندما وصل إلى كلمة "مهم" و"تقليدي"، تغير لحنه فجأة.

أصاب الرجل الملل، فرفع يديه في الهواء قائلاً: "من هو التقليدي؟ الموضوع الأساسي هو الأسلوب! أنت تقول الأسلوب؟ الناس سيأتون ويرون الأسلوب! سيرون الأسلوب!"

قال زينل بور ببساطة: "الناس قد رأوه".

فغضب الرجل وقال: "إذاً، لا يرونه!"

شعر زينل بور بالإحباط من ردة الفعل الحادة، فبدأ يجمع أفكاره، ثم قال بهدوء واحترام، موافقاً على كلام الآخرين: "بالطبع، يمكننا تعديل الأسلوب بدلاً من الشكل التقليدي. سيكون أسهل. أنت محق. في النهاية، يتعود الشخص على الأسلوب. ولكن يمكن ترتيب الأسلوب بشكل جيد."

هز الرجل رأسه. وبينما كان يرتدي الجلود ويمشي بخطوات ثابتة، مع صوت الحدوة الحادة وإحساس بالراحة، كان راضيًا. قال: "يجب أن يكون جميلاً. رخام أم سيراميك؟"

سأل زينل بور: "هل تحتاجه بسرعة؟"

لم يفهم الرجل، فسأل: "ماذا؟"

أوضح زينل بور: "هل تريدها بسرعة؟"

رد الرجل: "نعم، أريدها بسرعة."

لجأ زينل بور إلى العلم الحديث ليجد حلاً وقال: "بوليسترين."

كان الرجل منشغلاً بالنظر إلى الجرس الصغير اللامع المثبّت في حذائه.

فشرح زينل بور: "البوليسترين يشبه الحجر من بعيد، ويمكن تركيبه بسرعة."

سأل الرجل: "هل هو البوليسترين مستورد؟"

لم يفهم زينل بور السؤال جيداً لأن الرجل كان قد استدار متوجهاً نحو تمثال لامرأة كانوا يثبتونه. كان التمثال لامرأة تحمل مصباحاً، وأطرافها عارية ومصنوعة من الجبس. فسأل زينل بور مجدداً: "ماذا قلت؟"

رد الرجل: "هل هو من الخارج؟"

أجاب زينل بور: "بل يأتي من النفط مصنوعا محليا."

كان الرجل يتأمل عملية تثبيت التمثال الأسمنتي. كانت قطعة من القماش الأرجواني اللون ملقاة على كتف التمثال، تنسدل للأسفل لتغطي صدره ومنطقة ما بين ساقيه. ولكن المطر الذي هطل في اليوم السابق أفسد القماش تماماً، حتى إنه كان لا يزال مبتلاً، وانزلق بين الصدرين البارزين، وكانت المنطقة عند العفة أكثر بللاً حتى إن الماء كان يقطر منها.

سأل الرجل: "لماذا غطيتم التمثال؟"

لكن قبل أن يتلقى أي إجابة، انزلق التمثال من قاعدته. تراجع العمال خوفاً من سقوطه عليهم، ثم سقط التمثال الضخم بهدوء و وقار في وسط الطين.

غطوا الطين بالجدران الكبيرة البيضاء. كان قطع الألواح سهلاً، ولصقها أسهل. عندما تشد السلك الرفيع وتضغطه على الألواح البلاستيكية، يدخل السلك بسهولة، ويقطع بسهولة، وتنقسم اللوحة على طول السلك. بعدها، يدخل المسمار بسهولة عبر الألواح، ويغوص في الطين، ويثبت الغطاء في مكانه. كل لوح لم يكن يحتاج لأكثر من أربعة مسامير، واحد في كل زاوية، وكان الأمر سهلاً، خفيفًا، جميلاً، نظيفًا، ومتقنًا. نصف يوم من العمل كان كافيًا لجعل البيت القديم المتهدم يبدو وكأنه باقة زهور طازجة. لكن الوصول إلى الشكل الجديد كان شيئًا مختلفًا. أما العودة إلى حالته الأولى، فكان يكفي له نسمة

هـواء. عـلى أي حـال، اسـتغرق العمـل أسـبوعًا بينـما كان بإمكانه أن يُنجـز في نصـف يـوم فقـط. كان لابـد مـن إظهـاره كأنـه عمـل شـاق وجاد

عندمـا انتهـى العمـل، أخـذ زينـل بـور الرجـل ليريـه النتيجة. انحنـى وقـال: "تفضل"، ثـم فتح البـاب. ابتسـم الرجل ابتسـامة واسـعة حتـى وصلـت إلى أسـفل أذنـه. فرك يديـه وقـال: "أصبح جيـدًا الآن، أحسـنت. أنـت تفهـم كلامـي جيـدًا". ثـم ضربه على ظهـره بقـوة لدرجـة أنـه كاد يسـقط. وأضـاف: لديـك معرفـة، ولكنـك تعـرف كيـف تسـتفيد منهـا. كنـت مفيـدًا جدًا.

ابتسـم زينل بـور بتواضـع وقال: "تحـت أمرك، سـيدي". كان الرجـل يشـعر أنـه يجـب عليـه ألا يـترك زينـل بـور يبتعـد كثـيرًا، فشـده وقال: "حسـنًا، دعنـا نرى". ثـم توقف فجأة بشـكل ماكر. رفـع زينـل بور رأسـه منتظـرًا أن يقول الرجل شـيئًا. فقـال الرجل فجـأة: "هـل سـمعت أنـك كنت تطلـق نظـرات إلى أم عـلي عندما لم أكـن هنا؟"

شـعر زينـل بـور بالـبرودة. هـل كان هـذا يعنـي نهايـة علاقتـه المفاجئـة مـع الرجـل؟ أم أن تلـك اللمحـات الصغـيرة في غيابـه كانـت قـد تقـف الآن عائقًا أمام الاسـتفادة مـن الفرصـة الكبيرة؟ كانـت الفتـاة جميلـة ووحيـدة، وهـو أيضًـا كان وحيـدًا، ولم يكـن يعرف شـيئًا عـن ثروته، ولم يكـن يعلم بعودته. لم يكـن هناك ضرر

في أن يحدق الرجل فيها بصمت، يمسك يديها، يضغط ذراعه بينها، ويمكث منتظرًا لحظة مناسبة قد تحدث في الصحراء، تحت الشجرة، أو حتى في الزريبة. في أي مكان، كان يمكن أن يقول كلمات رومانسية، لعلّه يتمكن من لمس جسدها.

لكن ماذا سيحدث الآن؟ ماذا سيفعل الرجل؟

كان الرجل يحدق فيه بعينيه الضيقتين وكأنه كان يبتسم داخليًا. لم يكن لدى زينل بور ما يقوله. خفض رأسه.

قال الرجل: "أستاذ زينل بور!" كان في صوته لحن اللوم. ثم هز رأسه وقال: "أستاذ زينل بور!"

كان الصوت هذه المرة يحمل تحقيرًا أو تهديدًا؟ شعر زينل بور أنه لا يفهم، فتوقف عن الكلام.

قال الرجل مرة أخرى: "أستاذ زينل بور؟"

رأى زينل بور أن الوقت قد حان لتغيير مجرى التفكير. أدرك أن التحقير قد يكون مدخلًا لتغيير الحديث. في عيني الرجل، رأى لمعة فهم جديدة.

قال الرجل، غير فاهم تمامًا: "اسم؟ اسم ماذا؟ ماذا يعني؟"، كان في صوته تهكم مع فضول.

قال زينل بور: "في منطقتنا، في معظم الأماكن، زينل هو اختصار لاسم الإمام الرابع، رحمه الله."

سـأل الرجـل: "ما هـو الإمـام الرابـع؟"، ولم يكن يفهـم معنى الاختصار! "قـال زينـل بور: "اسـتغفر الله"

كان ذهنـه مشـغولًا باسـتغلال الفرصة، فقـال: "إذا لم يعجبك، يمكننـي تغييره"

أخذ الرجل نفسًا عميقًا وقال: "تغييره؟ ماذا تغيّر؟"

قال زينل بور: "أغير اسمي."

قال الرجل، مستغربًا: "يغير اسمه؟!"

أجاب زينل بور: "لا مشكلة، إذا رأيت أنه أفضل."

قـال الرجـل: "والله! "ثـم، من شـدة أنه لم يكـن لديه مـا يقوله، قـال: "هل هـذه عادتكـم في منطقتكم؟"

مـدَّ زينـل بـور يـده ليزيـل غبـارًا خياليًـا من عـلى كتـف لباس الرجـل، ثـم نفـخ عليه.

قال الرجل: "حقًا، من أين منطقتكم، أه؟"

أجـاب زينـل بـور: "لشـكوه (إحـدي مـدن محافظـة فـارس في جنـوب إيـران)..."

سأله الرجل: "لشكوه؟ أين تقع؟"

أجـاب زينـل بـور: "... أنـا مـن طهـران، بالطبـع، لكـن أصلي مـن لشـكوه."ثم، لأنـه شـعر أن الـشرح سـيكون معقـدًا، قـال ببسـاطة: "لشـكوه، يعنـي..."

ظل الرجل يحدق فيه لحظة، ثم قال بدهشة: "إذن أنت من عائلة لشكوي!" ثم نظر إليه وقال: "هذا الاسم يناسبك أكثر. زينل، كان يبدو، كما قلت، قليلًا - قروي." وضربه على كتفه، ثم نظر إليه بتفكير، ثم عبس وقال: "إذا غيرت اسمك، سأغير زوجتي." تفاجأ زينل بور وقال: زوجة؟!"

أجاب الرجل: "نعم، سأغير زوجتي."

سأله زينل بور بدهشة: "هل تريد الزواج؟"

أجاب الرجل بنبرة ثبات: "نعم، أريد الزواج."

بدأت المطارق الثقيلة تهوي بقوة، وتغوص الأعمدة تدريجيًا في الأرض. انهمك العمال بالمناشير والفؤوس في قطع جذوع أشجار البستان القديم. كانت أسنان المناشير أحيانًا تتوقف أمام ليونة سيقان الأشجار الفتية، لكن بالإصرار والقوة تعود لتقطع وتُسقط الأشجار. كانوا يقسمون الجذوع إلى أجزاء أقصر بالفؤوس، ثم يشحذون أطرافها بمقدمة المناجل الحادة (أداة حادة مقوسة تُستخدم لقطع الأعشاب والمحاصيل) ليغرسوها واحدة تلو الأخرى في صفوف دائرية على الأرض، التي كانت يومًا ما بستانًا خضراء.

وعندما اكتمل الصف الأول من الأعمدة، اقترب شاب باحث عن الشهرة في عالم الفن من الرجل المسؤول وقال:

"سيدي، يبدو أن الأعمدة التي طلبتم إعدادها لتعليق الزينة والمصابيح الملونة قصيرة بعض الشيء." كان الرجل واقفًا على التلة، يراقب أعمال البناء تتقدم نحو إنشاء بيته الجديد. نظر إلى الشاب بنظرة عميقة، وكأنه حكيم يقيّم قول أحمق، ثم هز رأسه ببطء وقال"

"الورق الملون؟ المصابيح؟ ماذا؟"

وفي هذه الأثناء، وصلت لفائف الأسلاك الشائكة. بدأ العمال بربط الأسلاك حول الأعمدة، مشكلين جدارًا دائريًا بارتفاع رجل، مكونًا من خمس طبقات من الأسلاك المتداخلة. وبعد ذلك، شُيّد جدار ثانٍ أعرض من الأول، تلاه جدار ثالث محيط بهما. وعندما رأى الرجل في أحد الأيام أن الأسوار الدفاعية قد اكتملت، هز رأسه وقال لنفسه ساخرًا:

"هل أُنسى ما فعلوه بي؟ ضربوني؟ طردوني؟ ويل لهم ! لن أسمح لهم بالدخول حتى في هذا البيت الجديد."

بدأ البيت الجديد يأخذ شكله تدريجيًا. تكوّن من هيكلين دائريين كبيرين إلى جانب برج أسطواني. كان البرج مكونًا من سبعة طوابق، والطابق العلوي منه كان بسقف مقبب واسع كعرض البرج نفسه. داخل الطوابق كانت هناك غرف وممرات وسلالم تؤدي إلى أعلى البرج. بجوار البرج، كانت هناك عدة غرف موزعة على مستويات مختلفة تحت سقف واحد. كان

البرج والهيكلان الدائريان في نهاية المساحة، على حافة منحدر طويل يشرف على القرية. كانت القرية تقع أسفل الوادي، حيث الحقول الزراعية وخطوط قنوات الري، وفي الأفق، كانت السهول المغبرة تمتد حتى تصل إلى سلسلة جبال سماقي (سلسلة جبال من الصخور البركانية ذات اللون السماقي) ، التي بدت وكأنها تسبح في الضباب من شدة بعدها.

أما الساحة أمام المنزل، فقد كانت واسعة ومكشوفة، تتكدس فيها جذور الأشجار القديمة التي اقتُلعت من الأرض. وعندما تهب الرياح، كانت تمر بين الجذور مُصدرة أصوات أنين خافت، وتحرك برج المنزل.

استمر العمل حتى جاء دور تزيين الساحة وترتيب التماثيل فيها. الساحة، التي كانت يومًا بستانًا، امتلأت بتماثيل للطاووس، والعقاب، والبجع، والنساء، والملائكة، ورستم، وجيو (رستم و جيو هما بطلان أسطوريان في الأدب الفارسي تمثلان مفهومي الشجاعة والبطولة) والأسود، والنمور، وأعمدة المصابيح المزينة بأشكال مختلفة: أحدها يصور رجلاً يقتل تنينًا، وآخر يرمي سهام الحب، وثالث يصلي بهدوء، وآخر يصور الشيطان ممسكًا برمح ثلاثي، كما كان هناك تمثال لراع يعزف الناي، وآخر لطفل ملَك يتبول، وآخر لرجل أسود يرقص مرتديًا عمامة حمراء.

ولكـن أكثـر ما لفـت الأنظـار في السـاحة كانـت التماثيـل التي تجسـد الرجـل نفسـه. لم تكـن مجـرد تماثيـل عامـة لرجـل مـا، بـل كانـت نسـخًا متعـددة منه هو، تجسـيدًا لذاتـه. ولمـاذا لا؟ أليس هو صاحـب هـذا المـكان؟ أليـس هو

صنـع هـذا كلـه؟ في ذهنـه، لم يكن أحد أحـق بالحضـور في هذا المشـهد الكبير أكثـر منه.

زينـل بـور كان يقول ذلـك أيضًا، وكذلك زوجـة الصائغ، رغم أنهـا كانـت تُصدِر الأوامـر للآخرين لترديـد هذا الـكلام، بينما هي شـخصيًا كانـت مشـغولة بجمـع عمولة الوسـاطة عـلى كل عملية شراء وبيـع يقـوم بهـا الرجـل. الصائـغ كان يبيـع للرجـل الذهب، والمـرأة كانـت تشـتري لـه الأثـاث – وكلاهمـا كانـا يسـتمتعان بالوضـع، منتظرَيـن الانتهاء مـن بناء المنـزل الجديـد في القرية، كي يُسرعـا في إقامـة العرس وينتهـزا فرصـة العيش في القريـة للتعرف أكثـر على أمـوال الرجـل وموقـع كنوزه بهـدف السـيطرة عليها.

لكـن، خـلال هـذا الوقـت، لم تكـن زوجـة الصائغ جالسـة بلا عمـل، بل بـدأت بتطبيـق خطتهـا طويلة الأمـد، لضمان اسـتقلالها المـالي في حـال توقفـت مـوارد الرجل لأي سـبب. ومـع أن خطتها كانـت ترتكـز عـلى مـوارد الرجـال الآخريـن، فإنها اعتمـدت على أحد أقـدم الحِـرف النسـائية المعروفة.

زوجة الصائغ رتّبت أيضًا لبقاء الشاب الطموح في عالم الفن، الذي كان أحد أقاربها، في خدمة الرجل في القرية للعمل كمساعد ومُشرف على أعماله. لكن هذا الشاب، في الواقع، كان بمثابة "العميل السري" المكلف بكشف مكان الكنوز، ومع ذلك لم يُحقق أي نجاح يُذكر، لأنه كان مشغولًا بأمور أخرى، غالبًا بأحلامه وتخيلاته التي أبعدته عن التركيز. فحينما كان الرجل بحذر ينزل إلى السرداب ليتفقد كنوزه، كان الشاب إما نائمًا بعمق في وقت الفجر أو غارقًا في استرخاء ما بعد الغداء.

لذلك، لم تكن زوجة الصائغ تعوّل كثيرًا على مستقبل هذا الشاب أو نجاحه في مهمته، لكنها أرادت من خلال إرساله إلى القرية إبعاده عن رفقاء السوء في المدينة، على أمل أن يُصلح أخلاقه وأن تُقلل من انحرافاته، وهو بحد ذاته كان مكسبًا بالنسبة لها.

أما أملها الحقيقي، فكان مع الخادمة. الخادمة كانت بمثابة "الصيد الثمين" بالنسبة للمرأة، وكانت أداتها الرئيسية لتحقيق أهدافها. الخادمة كانت تتقدم بخطى سريعة نحو تنفيذ تطلعات سيدتها وتطلعاتها الشخصية. لقد اكتسبت ثقة بنفسها، ومع التدريب والخبرة أصبحت أكثر مهارة. كانت الخادمة تعرف كيف تُحرك الأمور بذكاء وتوقيت مناسب، وتُجيد التحكم في الأوضاع سواءً في الخفاء أو العلن، ما جعلها أداة فعالة بيد السيدة لتحقيق جميع طموحاتها.

كان في الخارج، وأنِت بالنسبة له لم تكوني أكثر من جزء من هذا الخارج. حالته لم تستدعِ أن يراكِ، فقد كنتِ بالنسبة له مجرد وسيلة لحفظ مصالحه وأرباحه. كان يرى هذا فقط، ولا يتجاوز نظره هذا الحد. أحيانًا، كان يلمح في الآخرين مظاهر الحيلة والطمع والتملق، لكنه بالكاد يبالي، لأن ثروته التي جاءت بسهولة وبغتة كانت كبيرة لدرجة جعلته يرى نفسه منفصلًا عنهم، أعلى منهم، لدرجة أن وجودهم لم يعد يعني شيئًا.

هذا الشعور بالفارق عزله عن الآخرين. جعله لا يهتم، حتى بدت له مجاملاتهم تذكيرًا بمزاياه وعلو مكانته، بينما هي بالنسبة لهم كانت مجرد وسيلة لإظهار ضعفهم أو حاجتهم.

كان يمكنه أن يتجاهلهم بسهولة، أن يغض الطرف عنهم. لكن هذا التجاهل لم يكن عن كرم أخلاق، بل عن غرور. لم يكن سخاؤه عطاءً واعيًا، بل كان تصرفًا بلا حساب. وإن كان هناك حساب، فهو حساب بسيط مبني على مبدأ رد الفعل.

نما خارجيًا، لكن داخله ظل صغيرًا وبسيطًا، وهذا الصغر إذا اختلط بالغرور يولد مزيجًا من الغطرسة والانحطاط. كان يفتقر إلى الوعي العميق والتفكير، ما جعل شخصيته تحمل في طياتها (ثنايها) مزيجًا من السخرية والخطر.

كل شيء جديد في فناء منزله كان يراه امتدادًا لعظمته وقوته، لكنه لم يدرك أبدًا أن هذا المشهد بكامله يعكس حالته الحقيقية

وهويته. ففي المكان الذي كان يومًا بستانًا مثمرًا بأشجار التفاح، تحول إلى ساحة مليئة بتماثيل من الجبس والإسمنت، أشبه بسفينة نوح غريبة مليئة بعينات متنافرة من الفوضى، ومن ادعاءات غير مبررة، ومن بقايا خرافات بالية، ومن استعراض قبيح للمال وسوء الذوق.

لم يكن يدرك أن تغيير المكان لا يعني تغيير الذات. لم يفهم أن الانتقال إلى مكان آخر لا يعني بالضرورة التقدم أو السير نحو الأمام. كان تحركه بلا هدف، بلا توجيه، مجرد انزلاق، يبدو مضحكًا أحيانًا ومثيرًا للخطر أحيانًا أخرى.

عندما أقترب من السور المصنوع من الأسلاك الشائكة، ألقى نظرة عليها وأمر قائلًا: "اطلوها باللون الأبيض، اجعلوا كل شيء أبيض، الأسلاك، الأخشاب، كل شيء". ثم أضاف بنبرة متحمسة: "ولكن استخدموا ألوانًا زاهية ومبهجة أيضًا."

لم يكن الطلاء لمجرد الجمال، بل كان للحفاظ على المعدن من التآكل

كان المسؤول عن عملية الطلاء شابًا طموحًا يرغب في إثبات نفسه في عالم الفن، لأنه يرى أن الطلاء نوع من الرسم. ومع اتساع فناء المنزل الجديد، وطول السور المعدني، كانت الحاجة إلى الطلاء كبيرة. فتطوع الناس للمساعدة. في البداية، كان الأمر مجرد عادة، ثم تحول إلي أمل. حتب بدأو يدركون أن

إصرارهم في العمل قد يؤدي إلي تغيير حقيقي مع مرور الوقت أخذوا في تلوين كل شيء، طلوا الأسلاك والأعمدة، الشقوق في الأخشاب الجافة، وغطوا حتى جذوع الأشجار التي قُطعت من بساتينهم القديمة. عندما يقفون عند آثار ضربات الفأس، كانوا يدركون أن الغضب أو الحزن لا يجدي نفعًا أمام التطلع إلى المستقبل، كان الألم يختلط بالأمل في مستقبل أفضل.

من بعيد، كان المشهد يبدو غريبًا؛ صف طويل من الشخصيات البارزة التي فقدت ملامحها، تقف جنبًا إلى جنب، تعمل بلا توقف في الطلاء. كانوا يأتون ويطْلون.

حضر الملا، رجل الدين الذي يرجع إليه أهل القرية في أمور الدين، و كبير القرية القرية المسؤول عن إدارة شؤونها وحل مشاكل أهلها. حتى مجيد زينل بور، المعروف بلقب "لشكوئى"، جاء رغم انشغاله بأعمال أخرى أكثر أهمية. لكنه حضر لإرضاء الشاب الطموح الذي كان يسعى للتميز في عالم الفن، وللتقرب من زوجة الصائغ، وليثبت للجميع أن حضوره كان بغرض العمل فقط. جهّز نفسه بسطل الطلاء وفرشاة، وانهمك في الطلاء تحت إشراف الشاب

كان الرسم فنًا جماعيًا في القرية، لكن لم يشارك فيه الجميع. فالبعض انشغل بأعماله اليومية ولم يكن لديه وقت أو اهتمام بالمشاركة في هذه الأنشطة العامة. وآخرون، رغم توفر الوقت

لديهم، كانوا ضعيفي المهارة وغير منتجين، فاكتفوا بالتذمر والشكوى. ومع ذلك، لم يتساءل أحد عن الغرض الحقيقي من السلك الذي التف حول القاعدة. ولو كان هناك اهتمام جاد، لكان السؤال الأول: لماذا السلك موجود أصلاً؟

انطلقوا من خلف التلة إلى قمتها، وكانت خطواتهم متناغمة، كأنهم يشعرون بأهمية اللحظة. في المقدمة، سار رجل مع عروسه الجديدة، تلاهما الصائغ وزوجته، ومعهم كبير القرية ولشكوئى " زينل بور" والشاب الطموح الساعي للشهرة في عالم الفن. وفي وسطهم، كانت امرأة قروية كُردية ذات ملامح متجهمة، بينما ارتسمت الابتسامة على وجوه البقية.

كانت العروس تشع بهجةً بابتسامتها الواضحة التي أظهرت أسنانها اللامعة. ارتدت فستان زفاف أبيض، مزينًا بالأغصان والأوراق والزهور المكوية بعناية. أما الرجل والصائغ، فكانا يرتديان قبعات أسطوانية طويلة وبدلات رسمية، بينما اختار كبير القرية ملابس داكنة مع قبعة مائلة ملونة. لشكوئى (زينل بور) ارتدى قميصًا برتقالي اللون، يشبه ملمس قشر البرتقال، لكنه مكوي بعناية.

الشاب المولع بالفن ارتدى ملابس صيد زيتونية اللون، ونظارات كبيرة تعكس أشعة الشمس، وشعرًا طويلًا بدا جافًا ومشعثًا بفعل البرد.

كان صباحًا باردًا ومشمسًا. انعكست أشعة الشمس على التلال الجرداء، وأضفت بريقًا خاصًا على الرداء المخملي الأحمر لزوجة الصائغ وحواف الدانتيل المطرزة حول تنورتها (جيبتها) ، وأبرزت لمعان الأقراط الياقوتية التي كانت ترتديها. زينت رأسها بقبعة صغيرة على شكل عمامة من قماش ذهبي مزين بالياقوت واللؤلؤ والزمرّد. أما معطفها المصنوع من الفرو، فقد سلمته إلى لشكوئى " زينل بور"الذي حمله برفق على ذراعه.

عندما تعبت المرأة و عدم القدرة على التحمل صرخت بصوت عالٍ قائلة: "لن أذهب. لن أذهب معكم بعد الآن."في البداية، استمر الجميع في طريقهم، ولكن عندما رأوا أنها بقيت مكانها وكررت رفضها، عاد الرجل غاضبًا وقال: "لا يحق لك ذلك! كأن القرار بيدها."وأشار بيده بعنف آمراً إياها بالسير معهم. استأنفوا الطريق، ولكن المرأة أصرت على البقاء.

قبل أيام قليلة، استطاعوا إقناعها بلطف زوجة الصائغ وتهديد زوجها، مع وعد بمستقبل مريح وسعيد في المدينة، بأن تحضر احتفال عقد الزواج وتوقع على موافقتها بزواج زوجها الثاني. كما جلبوا لها ثوبًا جديدًا. كان الجميع من معارفها يتظاهرون بإبداء النصيحة علنًا ويقولون: "وافقي، الموافقة ليست شيئًا كبيرًا. الزوج إذا أراد الزواج فالله أتاح له ذلك."لكنهم في السر كانوا يهمسون لها: "مسكينة، ليست مشوهة ولا عمياء، بل

جميلة ومقبولة، لكن حظها سيئ. بعد أن تركها زوجها لعام كامل، يعود الآن ومعه زوجة جديدة. كيف ستتحمل العيش تحت سيطرة ضُرة، خاصة ضُرة من المدينة!"

تلك الكلمات عادت لتغلي بداخلها حتى انفجرت. صرخت: "لن أذهب! لن أذهب!" وأثناء صراخها ورؤيتها أنهم يواصلون السير، ضربت الأرض بقوة بقدميها، مزقت ثوبها من أعلى إلى أسفل بضربة واحدة، ورمت الحقيبة المذهبة التي أعطوها إياها على الأرض، وركلتها بقوة. واستمرت تصرخ: "لن أذهب! لن أذهب!"

ركض الرجل نحوها فجأة، لكن الآخرين أمسكوا به وقالوا: "اذكر الله!" فتوقف، وترك نفسه بين أيديهم ليظهر كأنه يهددها حتى تخاف وتتحرك، لكنها لم تتحرك. وقف الجميع كأنهم تماثيل لا يعلمون ماذا يفعلون بعد ذلك. وكأن الزمن توقف.

حينها تقدمت زوجة الصائغ بخطى واثقة، وكأنها تلقي خطبة تاريخية في مشهد مسرحي مهيب، وقالت بصوت قوي: "ما بالكم مع هذه المرأة الجميلة الطيبة؟ اتركوها!" ثم التفتت إلى زينل بور لشكوئي بلهجة معاتبة قائلة: "وأنت، ماذا تنتظر؟ أين عقلك؟"

بمجرد كلماتها، عاد الجميع إلى الحركة. ثم قالت الزوجة: "إذا كانت لا تريد المجيء، فهذا حقها. لا إكراه!" وتقدمت نحو

المرأة التي كانت تهتز كتفيها من البكاء، وغطتها بعباءة سوداء مطرزة كانت تحملها. بعد لحظات من الانتظار، احتضنتها وقبلتها وضمتها بشدة، وهي تضغط برفق على ظهرها النحيل، وكأنها تمتص حزنها داخل صدرها.

الرجل، وقد شعر بالملل من هذا التوقف، ركل حجرًا بقوة. ولكن الحجر طار بعيدًا، والرجل شعر بالألم وأمسك قدمه وهو يصرخ: "آه!"

وفي أثناء ذلك، قالت المرأة، وهي في حضن زوجة الصائغ وتشهق بالبكاء: "لن أذهب. هل علي أن أرحل ليأتي دوري مع الضُرة؟!" حينها، اختفت الابتسامة من وجه العروس الجديدة، وكأنها بدأت تدرك حقيقة الموقف.

تدخلت زوجة الصائغ بغضب قائلة: "اللوم عليكم. لم تخبروها بالحقيقة. هل أخبرتها، يا لشكوئي (زنيل بور) ؟" ثم اقتربت بلطف من المرأة وهمست في أذنها كلمات مشجعة: "كل شيء سيصبح أفضل، فقط اصبري قليلاً." لكن المرأة تمتمت بصوت خافت: "لن أصبر".

في تلك اللحظة، ظهر الشيخ على ظهر حماره، حاملاً دفتر تسجيل عقود الزواج. نزل من حماره عندما رأى الجمع، واتجه إليهم. جمعت زوجة الصائغ الحاضرين حول المرأة في دائرة، وبدأ الجميع بمحاولة إقناعها.

همست زوجة الصائغ: "العُرس مجرد ذريعة. نريد أن نُظهر للناس مكانة قريتنا ومبانيها الجديدة. ساعدينا للحفاظ على سمعة القرية."تبعها كبير القرية قائلاً: "هذا مهم جدًا لقريتنا. يجب أن تساعدينا."ثم جاء دور الصائغ الذي قال لها: "هذا في مصلحتك."وأخيراً، قال لشكوئي (زينل بور) بأسلوب وعظي: "عليك أن تكوني مسؤولة وتتحملي دورك."

لشكوئى (زينل بور) اقترب من المرأة وهمس لها بنبرة نصح قائلاً: "وافقي. الإنسان يجب أن يعرف واجبه، يكون ملتزماً ومسؤولاً."ثم تراجع ليتيح المجال للشيخ.

الشيخ تحدث بنبرة موعظة، وقال: "عليكِ بالتسامح والسلام. تجاوزي عن الأمور."ثم تراجع ليعود الدور في الحديث إلى لشكوئى.

عاد شكوئى قائلاً: "الناس جاءوا من كل مكان وينتظرون. لا تخذليهم. حافظي على سمعة قريتك!"ثم ترك المجال (الحديث) مجدداً للشيخ. الشيخ هذه المرة حذّر من العقاب والجزاء الإلهي في تلك الدنيا، قائلاً: "رفضكِ سيكون ذنباً كبيراً."وأضاف بلهجة دنيوية: "أنفقوا المال، والناس تجمّعوا. إذا وافقتِ، أعدك بأنني سأساعدكِ على الطلاق قريبا."

بعد كل هذا الضغط والإلحاح، لم تجد المرأة مفرّاً من الموافقة. لكنهم حين أرادوا التحرك، لاحظوا أن ثوبها الرسمي ممزق.

كبير القرية، الحريص على الحفاظ على صورة القرية، قال: "ثوبها ممزق." فردت زوجة الصائغ بحدة: "ليس لديها ثوب آخر، أليس كذلك؟"

حاول رئيس القرية إيجاد حل وقال: "ليذهب أحد سريعاً ويُحضر ثوبها." لكن لم يكن أحد من الحاضرين يرغب في الذهاب. الجميع كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض بخوف، مترددين، خشية أن تأمرهم زوجة الصائغ بشيء، خاصة وأنها كانت منشغلة باحتضان المرأة وتقبيلها، غير مبالية بما يدور حولها.

في تلك اللحظة، التفتت العروس الجديدة إلى العريس بنظرة دلال، وقالت بصوت ناعم يشبه خيوط الشمع الذائبة: "لماذا تنتظر؟ دَعهم يتحركون."

اشتعل غضب العريس فجأة، وصرخ كالإعصار مخاطباً شاباً نحيفاً بين الحضور: "لماذا تتلكأ؟ أسرع وأحضر الثوب!"

"تثاقل الشاب النحيل في حركته، وكأن كل خطوة منه كانت عبئاً أثقل من أن يحتمله."

خلال الانتظار، جلس الرجل على جذع شجرة مكسور، وضع قبعته ليغطي عينيه وأخذ يهز قدميه بملل. زوجة الصائغ أشعلت سيجارة، بينما علق لشكوئى (زنيل بور) معطف الفرو

عـلى غصن شـجرة تـوت بـلا أوراق ووضع يديـه في جيوبـه حماية مـن البرد.

جلسـت المرأة عـلى الأرض بثوبهـا الممزق، واتـكأت إلى الخلف وهـي تنظـر إلى الأرض. الشـيخ كان يعـاني مـن ضيـق في التنفس، بينـما كانـت العـروس الجديـدة تتمايـل وتتحـرك برشـاقة داخـل فسـتانها الأبيـض، وكأنهـا ترقص دون اهتـمام بالوضع مـن حولها.

الرجـل، وقد ضـاق ذرعاً بالانتظـار، قام واتجه لقضـاء حاجته. كبـير القريـة أمـال قبعته قليـلاً، بينما أخرجـت زوجـة الصائغ أحمر شـفاه من حقيبتهـا لتعيد رسـم حدود شـفتيها بدقة.

عـاد الشـاب النحيـل بعـد قليـل، يتنفـس بصعوبة مـن التعب، حامـلاً الثوب.

عندهـا، اجتمـع كبـير القريـة والصائـغ والشـيخ ولشـكوئى (زينـل بـور) للإمسـاك بمعطـف الفـرو وعبـاءة الشـيخ ليشـكلوا سـتاراً يحجب المـرأة. خلف هذا السـتار، سـاعدت زوجـة الصائغ المـرأة عـلى خلـع ثوبهـا الممـزق وارتـداء ثوبهـا القديم.

حـاول كبـير القريـة التلصـص مـن وراء السـتار، لكـن جسـد زوجـة الصائـغ الممتلـئ كان يحجـب الرؤيـة تمامـاً

بعـد الانتهاء، تحـرك الموكب مجـدداً. تقدم الشـيخ راكبـاً حماره، تـلاه العريس ممسـكاً بيد عروسـه الجديـدة، يسـيران بطمأنينة. وفي

الخلف، مشى الباقون بصحبة المرأة التي اقتادوها برفق.

اتجه الجميع نحو أصوات الاحتفال، حيث كان المنزل الجديد يتلألأ فوق التلال كأنه يعلن عن نهاية القصة وبداية أخرى.

زوج من النسور كانا يقفان على جانبي البوابة، بأجنحة مصبوغة حديثًا كانت أعينهما أشبه بمصابيح تُضيء وتَخفت لكن في وهج الشمس لم يكن بالإمكان رؤية هذا التوهج أو خفوته. خلف النسور، كان هناك حراس النظام والتفتيش، الذين بمجرد أن رأوا الضيوف قادمين، أصدروا أوامر بالتصفيق. عندها، انطلق الجمع يهتف ويُغني بأعلى أصواتهم، مرددين عبارات التهاني والمباركات.

كان الجمع أكبر من أن يُحصى أو يُعَدّ. قليلون فقط كانوا من سكان القرية، بينما الغالبية جاءوا من القرى المجاورة، بالإضافة إلى جموع ضخمة من الضيوف القادمين من المدينة. عملية اختيار الضيوف كانت بيد زوجة الصائغ، التي دعت كل من تعرفه، أو من قدّمه لها زينل بور لشكوئي. دعت الأقارب والمعارف، الشخصيات البارزة وأصحاب المناصب، وكذلك جميع البائعين الذين تعاملوا معهم أثناء شراء الأثاث، المجوهرات، السجاد، والأدوات. إلى جانب ذلك، استُقدم عدد كبير من الفرق الموسيقية، المقلدين، الراقصات، عازفي الطبول، والمغنين بمختلف أنماطهم، سواء من يؤدون الأغاني الهندية، أو

أغاني الحب الحزينة، أو الأنماط العصرية التي تعتمد أكثر على الأزياء والشعر المستعار بدلًا من الصوت.

عندما يتكون الحشد من خليط من المحاكون أي الفنانين، الجواسيس، والراقصين، فمن الطبيعي أن يكون العدد هائلًا وغير قابل للتقدير (العد). وهكذا، مرّ الموكب وسط الحشد الصاخب. النساء اللواتي كنّ متخصصات في الاحتفالات، نثرن الورود والحلوى، وهتفن بأعلى أصواتهن، وكأن الحفل بلغ ذروته. لكن الطريف في الأمر أن أحدًا لم يكن يعرف من هو العريس. كانوا يعتمدون فقط على قبعته الرسمية للتعرف عليه، فيعتقدون أن الصائغ هو العريس، فيتعجبون قائلين: "هذا العجوز المحنيّ ظهره، كيف حصل على هذه الحسناء؟". وأحيانًا كان قصر قامة العريس يُخفيه وسط أمواج الناس، فيظن البعض أن زوجة الصائغ، بفستانها الأحمر وزينتها البراقة، هي العروس، ويتهامسون: "الليلة سيُدهش العريس، بلا شك"!

رغم جهود الحراس والتنظيم لتفادي هذه الالتباسات، فإن فرحة الجموع كانت طاغية إلى درجة أنهم استمروا في الخطأ. تارة يرفعون العريس، وتارة أخرى يرفعون الصائغ، وأحيانًا زينل بور لشكوئي، أو حتى الشاب الطموح الذي يحاول شق طريقه في عالم الفن، ظانين أنه العريس الحقيقي.

أخيرًا، وصل الموكب إلى الشرفة الكبيرة أمام المنزل. كان هناك مقعد مزخرف بأربعة كراسٍ ذهبية، وطاولة فوقها شمعدانان ومرآة، كلها من الذهبِ اللامع، تنتظرهم. قفز العريس إلى المقعد، واقفًا، يحاول أن يرى المشهد من الأعلى. أسرع لشكوئي، ورفع المرآة عن الطاولة لـيُري العريس المنظر عبر انعكاسها، حتى لا يضطر إلى مدّ عنقه لرؤية الحشود (المعازيم) أمامه.

العروس، بدهشة من قفزته، سألته: "إلى أين؟"

رد العريس، وهو يدفع المرآة جانبًا: "جيد. حضروا كثيرًا".

من أعلى رأى الساحة ممتلئة برؤوس وأيادٍ تتحرك، بينما ظلت نقاط ثابتة كالأقواس والتماثيل بلا حراك. هز رأسه، ونزل بوقار تحت وطأة رضا كبيرٍ يثقله.

كان كبير القرية ولشكوئي يسرعان لمسح آثار حذائه المغبر عن المقعد الذهبي، لكنه لم ينتظر، جلس بثقل ووقار، وهو يبدو راضيًا بعض الشيء ومذهولًا قليلًا

كانت الحشود تصفق بصخب، ومن وسطها كان المأذون يحاول التقدم بدفتر زواجه الكبير. كانت مهمته صعبة؛ فالدفتر ثقيل، والحشود متداخلة، وعباءته كانت تنزلق من على كتفيه مرارًا. كبير القرية تدخل لفتح الطريق، ووصل المأذون أخيرًا

إلى الطاولة. قام لشكوئي بإبعاد الشمعدانين عن بعضهما ليتيح مساحة للدفتر.

فتح المأذون الدفتر، وتعالت الهتافات من الجموع (الحاضرين) . كانت العروس تبتسم بدلال، تتمايل بخفة في مكانها، بينما الفوضى والضجيج يعلوان المشهد. كان الصخب شديدًا لدرجة أن المأذون لم يكن يسمع صوته وهو يقرأ العقد.

قالت العروس "نعم"من أول مرة، بصوت طويل وواضح، لكن التقاليد والضوضاء دفعت المأذون إلى تكرار الخطبة والسؤال عدة مرات. وقّعت العروس على الدفتر، لكن العريس، بدلاً من التوقيع بإصبعه فقط، ختم الدفتر بأصابعه الأربعة. كان يرى أن التوقيع بإصبع واحد لا يليق بمقامه.

فجأة، وسط الضجيج، انطلقت أصوات صافرات ثم صوت متقطع من مكبر الصوت يقول: "ألو – ألو، واحد، اثنان، ثلاثة". وبعد عدة اختبارات للصوت، ارتفع صوت جهوري يتردد صداه عبر الجبال ويعود مجددًا، قائلاً: "أيها السيدات والسادة"...

كان زينل بور لشكوئي هو المتحدث. لكن همهمة الحشود لم تهدأ، كانت أعلى وأقرب. ورغم أن صوت مكبر الصوت كان قويًا، إلا أن تداخله مع الصدى بين الجبال أفقد الكلمات تفاصيلها، فأصبح طابع الصوت نفسه هو الأهم، بينما ضاعت معاني الكلمات.

قال الصوت عبر مكبر الصوت: "يشرفني للغاية أن أرحب بكم جميعًا، أيها الحضور الكرام، بهذه المناسبة السعيدة، وأعبر عن تهاني أهالي هذه المنطقة الشريفة والمليئة بالفخر".

كان موظفو التنظيم في الحفل، عن غير قصد، يجرون الضيوف بعنف وبدافع من الحماسة الكبيرة إلى موائد الطعام المليئة بالأطعمة اللذيذة - وهو أمر كان يمكن أن يكون أفضل، رغم أنه إلى حد ما لا يتماشى مع الخطة المقررة، أو بالأحرى كان يتماشى معها أكثر لو أن الهدف الحقيقي من التنظيم كان هو الأكل والضيافة.

لكن أهل القرية الشرفاء (دون التطرق إلى الصفة، التي هي مجرد التزام وعرف لغوي يجب أن يأتي خلف الاسم، دون أن تكون بالضرورة معبرة عن حقيقة معينة، إذ أن الصفة عادة ما تستخدم للزينة في الكلام والنثر) رغم أنهم هنأوا بالنيابة عن الآخرين، إلا أنهم لم يكونوا موجودين هناك فعليًا. كان رجل الدين وكبير القرية وبعض الشخصيات البارزة الآخرين هم الوحيدين الذين حضروا (أي شخصيات؟ أي بارزون؟ والله!)، وكانوا هناك لأنفسهم.

سأل العريس الذي كان يدور حول المكان، كبير القرية قائلاً: "أين أهل القرية؟ لا يوجد أحد خلف هذه الساحة."لكن التصفيق الصاخب من النساء المحترفات اللواتي كن يصفقن

بيديـن محترفتـين، كان يرتفـع إلى السـماء لدرجة أن كبـير القرية، إن كان قـد فهـم السـؤال، فضـل أن يتجاهلـه ويواصـل التصفيق.

كان لشـكوئي الآن يقـف خلـف الميكروفـون مقابـل العريس، بينـما كان العريـس يجلـس مـع العـروس عـلى المقعـد. عـلى أحـد الجانبـين كانـت زوجته الأولى مـع زوجهـا الصائغ، وعـلى الجانب الآخـر كان الصائـغ، بينـما كان كرسي لشـكوئي فارغًـا. جمع رجل الديـن دفاتـره وذهب ليمنع أن يبـدأ الرقص والغنـاء في غيابه، لأنه كان يعلـم أن ذلك سـيحدث في غيابـه - حتى لو لم يكـن موجودًا، كان سـيحدث. كان يعلـم أن وجـوده أو غيابـه لن يؤثـر في الأمور الدنيويـة، ورغـم أنـه شـعر بعـدم قدرتـه عـلى مواجهة الشـيطان، قـرر أن يلتـزم الحـذر ويرحل.

لكـن خلـف حلقـة التصفيـق الصاخـب التـي كانـت تحيـط بالخطبـاء الذيـن كانوا يقيمـون الخطابات، تجمع العديد من النسـاء المحترفـات في فـن التصفيق حـول المنصة الرسـمية للعريـس، بينما كانـت الجمـوع منشـغلة في الهجـوم عـلى الموائـد المليئـة بالطعام.

كانـت الموائـد مليئـة بـكل مـا يخطـر عـلى بالـك - مـن رأس الأغنـام إلى الأفـوكادو، مـن الخيـار والباذنجـان إلى الكافيـار والفطائـر، مـن الأرز باللحـم إلى فطائـر كبـد الأوز مـن مدينـة استراسـبورغ بفرنسـا، مع ملصق متجر فوشـون الشـهير بفرنسـا، مـن الجبـن مـن نـوع ليقـواني التركـي إلى السـتيلتون (نـوع جبـن

أزرق شهير في إنجلترا)، بعلامة فورتنم آند ميسن (متجر فاخر في لندن) ، إلى الصحون الكبيرة المليئة بالتشيكن بالبرغل، وعوضًا عن الدجاج كان هناك طيور الحجل (نوع من الطيور البرية الصغيرة) والطاووس. كانت المائدة مكتظة بمختلف أنواع العصائر والشربات، ولكن كل أنواع النبيذ كانت من نوع كيانتي (نوع من النبيذ الإيطالي) ، حيث كان الطلاء الورقي لها يظهر بشكل بارز. كانت الأسماك موجودة بكثرة حتى كأن الموائد تحولت إلى بحر، من السوفيش أو (السالمون) والسمك الأبيض إلى السمك الملكي المشوي، وكانت الأسماك جميعها مرتبة مع بطاطس مهروسة في الصحون بشكل فني كالأمواج.

وأبرز ما كان على الموائد، الخراف المشوية. ففي كل ثلاثة أو أربعة أمتار، كانت هناك خراف كاملة قائمة على أرجلها المغلفة بورق لامع، وقد تم شواؤها حتى بدت عارية (من الطراوة) ، تسيل منها قطرات دهنية ممتزجة بلون أحمر كالدم، تنساب من بين لحمها المحمر المتقشر لتسقط ببطء. أما رؤوسها، فظلت كما هي، بنظافتها الكاملة وشعرها المغسول، بعيون مفتوحة وفم يمسك بضع عناقيد من النعناع وأغصان البرسيم، وكأنها ما زالت حية.

كانت الرقاب المشوية موصولة بالرؤوس الخام بخياطة دقيقة، وعلى كل رقبة عُلقت أجراس صغيرة تزينها. كل خروف كان

موضوعًا في صينية كبيرة من النحاس، وتحتها شعلة من مصباح كحولي يشتعل، ليحافظ على حرارة الكباب. لكن المصباح كان مخفيًا بعناية بين أغصان البقدونس، والزعتر، وأوراق الريحان، وشرائح الفجل، بحيث لم يظهر منه إلا لهبه الأزرق المتوهج، وكأن النيران جزء من هذا العرض الفني البديع.

عندما انقض الضيوف بسكاكينهم المسننة على لحوم الخراف، اهتزت رؤوس الخراف، وبدأت أجراسها تدق، وعادت هيئة الرعي على رؤوسها. كأن الخراف تحاول بتقليدها حركة الرعي أن تخفي حقيقة أنها تُؤكل، بينما كان هز رؤوسها، مع صوت الأجراس، يؤكد أن الأمر صحيح، وأنها تُقطّع إلى أجزاء. هذا هو الواقع.

وفي خضم ضوضاء هجوم الأيادي على الأطعمة، ارتفع صوت خطبة لشكوئي، كأنها موجة طنانة متدحرجة من حنجرة مغناطيسية عبر مكبرات الصوت. قال: "اليوم، نحن لا نحتفل فقط بمراسم هذه المناسبة السعيدة، بل نغتنم الفرصة المباركة لتأمل كل التحولات العظيمة واللافتة التي أثرت حياة عريسنا العزيز." هنا انقطع نفسه فجأة، فقد تجاوزت وفرة كلماته قدرة رئتيه على التحمل. توقف لالتقاط أنفاسه، بينما الجمهور المحيط به صفق بحرارة، وكأن التصفيق كان فاصلة صوتية تشير له بمتابعة حديثه

استأنف لشكوئي حديثه قائلًا: "إذا كانت كلماتنا قاصرة، فإن هذا البناء الشامخ يعبر عن نفسه، شاهداً على القوة والعظمة، والثراء والشهرة، وعلى النوايا الطيبة لصاحبه الكريم. إنه بناء يستلهم جذوره من تقاليدنا العريقة، لكنه يتكيف مع أحدث ابتكارات التقنية والتصميم الجمالي التي أبدعها أعظم خبراء العالم من أمريكا، مثل مينستر فولر (مهندس معماري و مفكر ومخترع أمريكي شهير)

العريس، الذي لم يفهم شيئًا - ولم يكن مهتمًا بالفهم أصلاً - اغتنم استراحة لشكوئي القصيرة وقال لجاره صائغ الذهب: "شو عم يقول؟ فاهم شي؟"

هز الصائغ رأسه مدعيًا الفهم، رغم أنه لم يكن يستمع أصلًا. وربما لم يفهم أحد أي شيء. فالغاية لم تكن الفهم، بل كان الأمر أشبه بتلاوة احتفالية بلغة احتفالية خاصة، جزء من التقاليد والأعراف. ففي مثل هذه المناسبات، أيًا كان المتحدث، وأيًا كان المحتوى، يتحدث بالأسلوب ذاته والنبرة ذاتها.

أشار لشكوئي بيده طالبًا التوقف عن التصفيق، واستأنف: "إذا كان أبرز معالم مبانينا في الماضي قبة ومئذنتين، فإن رمز اليوم هو مئذنة وقبتان. قبتان كاملتان، ليستا نصف كرويتين مجوفتين عديمتي الفائدة، بل كاملتان تمامًا. سقفهما لا يتسرب منه الماء في الشتاء، لأن الماء لا يبقى على انحناء القمة. نوافذهما قليلة

وصغيرة، مما يقلل تأثير التغيرات الخارجية، سواء حرارة أو برودة، أو شدة ضوء الشمس. وهذه التفاصيل لا تناسب المناخ فحسب، بل تتفق مع طبع الحياء والحشمة، والعقلية الأصيلة لأسلافنا، التي تأمر بغض البصر عن غير المألوف".

وقبل أن يمنح الجمهور فرصة للتصفيق، أشار بيده لهم أن ينتظروا، وملأ صدره بالمزيد من الهواء، وكأن أمامه طريقًا صاعدًا، وألقى عبارته الأخيرة: "وهذا البناء هو رسالة حاضرنا وإرث مستقبلنا. "تردد صدى كلمته "المستقبل" بقوة بين الجبال والوديان، وأشار بقبضته نحو البرج العالي والقبتين.

تعالت الهتافات والتصفيقات من الدائرة المحيطة به، تضاعفت عبر مكبرات الصوت، وانتشرت في الجبال والوديان والطبيعة والقرية. أما الناس فكانوا منشغلين بالطعام، ولكن مع تصاعد الهتافات من الدائرة المجاورة للعريس ومرافقيه، انضموا إليها وهم يواصلون التهام ما بأيديهم.

العريس، الذي ربما نفد صبره من التصفيق الموجه للشكوئي، قال:

"يتكلم كثيرًا... دائمًا يتكلم... كم سيتكلم بعد؟!"

زوجة الصائغ وضعت يدها على ركبة الزوجة الأولى، وأمالت رأسها أمام صدر الزوجة الثانية، واقتربت نحو العريس لتنصحه قائلة:

"دعه يتحدث، هذا جيد. الناس يحبون التسلية".

ثم عاد صوت الشكوئي الجهوري يتردد عبر مكبرات الصوت، قائلًا: "لكن ازدواجية القبتين نفسها إشارة رمزية إلى الثنائية في نظام الكون. إنها تمثل الليل والنهار، الخير والشر، القديم والجديد، اليسار واليمين، الشرق والغرب، الأطروحة ونقيضها، أهورامزدا وأهريمن (إله الخير والشر في الديانة الزرادشتيه) ، وغير ذلك"..

ثم توقف قليلاً، ليمنح فكرته الوقت اللازم لإثارة التصفيق والهتافات الحماسية من الحضور.

هزّ العريس رأسه، والتفت إلى العروس الجديدة قائلًا:

"مظهره يوحي بالعظمة، لكنه أحمق. أنا أعلم".

وأكد كلامه بوضع إصبعه على صدره.

العروس الجديدة انفجرت في ضحكة صاخبة، ضحكة خالية من أي قلق أو اهتمام بما قد يكون مؤلمًا أو معقدًا.

عاد الشكوئي للحديث قائلاً: "هذه الشجرة الذهبية الطويلة رمز حقيقي لرجل يقف بين عالمين. إنها إشارة إلى قوة التوازن بين كفتي الميزان، وتجسيد للطموحات المتصاعدة نحو أعالي السماء، وكأنها مرصد يطل على بحر مضطرب، أو رمز للصاروخ الذي يغزو الفضاء. وباختصار، هو رجل يقف بين

اثنتين من أجمل النساء".

وحين اتضح أن الخطاب قد انتهى، علا التصفيق والهتاف إلى أقصى حدوده، في حجم الصوت وطول المدة وشدة الحماس.

الشكوئي، الذي انحنى شكرًا، نسي أن كل هذه المظاهر هي نتاج تدريب مُسبق، وبدأ يصدق أنه يستحق كل هذا التقدير. ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا، وبينما كان يتجه نحو مكانه، عاد مجددًا ليرفع يده ويقترب من الميكروفون، لينحني مرة أخرى أمام الحشد.

اضطُرّ الجمهور إلى استئناف التصفيق والهتاف مجددًا، لكن هذه المرة، تغلب العقل الحذر على غرور الشكوئي. وفي أعين الرجل الذي كان يراقبه، قرأ الشكوئي أنه من الأفضل أن ينهي الموقف.

وعندها أدرك أن كل الهتاف والصخب من الحشد كان مدفوع الأجر ولا قيمة حقيقية له. فاقترب من الرجل، وضع نفسه بينه وبين الجمهور، وانحنى لتقبيل يد الرجل قائلاً: "أترى؟"

ثم، وهو يحدق في عينيه مباشرة، أشار بيده نحو الجمهور وقال:

"كل هذا الاحترام والحماس هو فقط من أجل مقامك السامي."

لم يفهم الرجل أي شيء مما قاله الشكوئي، لكنه أدرك الهدف من حديثه.

نظر لشكوئي كان مفعمًا بالفرح، فبعد أن نظر إلى الحضور من رجل وامرأة قال: "كم أنا سعيد. الآن سأهنئكم بشكل خاص." وكانت كلماته مليئة بالشعور، كما لو كانت جملة أدبية مألوفة، وهو لم يخرج بعد من جو الخطابة الطويلة التي كان فيها. بينما كان في تلك اللحظة، نهضت زوجة الحِرَفيّ من مكانها، وتوجهت إلى حيث الأطباق والسلال المزينة بالزهور التي كانت موضوعة حولهم، ثم أحضرت صندوقًا صغيرًا وشفافًا مليئًا بالزهور. أخذت منها غصنًا من ثلاثة أغصان، وأخذت تشمه مرة تلو الأخرى، ثم ضمته إلى صدر لشكوئي، وقالت: "ألف مبروك، حبيبي، كان هذا يومًا عظيمًا، وهذه الزهور لك جزاءً لكفاحك. إلى اللقاء!" ومع ذلك، عاد الهتاف من الجمهور مجددًا، حيث زادت التصفيقات وصار الصوت يعمّ المكان، وأصوات الترحيب وتوجيه الدعوات للجلوس تعالت.

بينما كان وسط الحضور يتنقل بين الصفوف، بدأ المديح يرتفع مع حركة الجماهير. أخيرًا، وصل الضيف المهم إلى مكانه، مبتسمًا لكنه يبدو متحفظًا. كان لشكوئي يُعرفه للجميع قائلًا: "هذا صديقي المقرب، كان رفيقًا لوالدي، وما إلى ذلك..." بعد تبادل التحيات والتوقيعات والإحتضان، وصل الضيف الذي وصل

لتوه إلى الميكروفون. رتب نفسه، وكما هي العادة، بدأ الكلام بكحة صغيرة، وقال "أنا أيضًا مثل صديقي العزيز، السيد زينل بور..." ثم توقّف مبتسمًا، ليترك المجال للهتاف الذي لم يتأخر كثيرًا، وإن كان الجمهور، بحكم العادة واحترافه، لم يقدّر تلك اللحظة كما كان متوقعًا. ثم تابع حديثه قائلاً: "... أود أن أهنئ هذه العروس الجميلة والعريس السعيد".

مرة أخرى الهتاف. كان الضيف المميز يقول: "إذا كان هناك شيء يتعلق بالشعر في هذا السياق، فهو أن العرس يكون جميلاً وجذاباً، والعريس شخصاً صالحاً. أنا فعلاً أستمتع بهذا الحفل الرائع، ولذلك يجب أن أقرأ شعراً، ولكن بما أن... بما أن"...

قطعت كلماته بسبب أصوات الأطفال المشاغبين في الجمع، وأيضاً صوت الآلات الموسيقية والأنغام التي انطلقت بتأثير من المثيرين، مما أفقد الضيف المميز تركيزه. أصبح العريس غير صبور. وبدأ أول من تدخل يحرك قدمه حتى ساد الصمت. ثم استأنف الضيف المميز الذي كان شاعراً وقال: "بالطبع يجب أن أقرأ شعري بنفسي، لأن هذا الحفل فعلاً رائع، والشاعر يجب أن يقرأه بنفسه. ولكن من أجل أن تزداد جماليات الشعر، أطلب إذناً من العروس والعريس السعيدين لقراءة هذا الشعر بواسطة فتاة جميلة هنا." ثم فجأة أخرج من جيبه الشعر وسلمه إلى الفتاة.

صفـق النـاس، ابتسـمت الفتـاة شـاكراً، نظـرت حولهـا، ثـم بـدأت في القـراءة. كانـت الفتـاة جميلـة وبسـيطة، كانـت تقـرأ الشـعر، وشـفتاها لم تتجعدا كما يفعـل الورق في الفوانيـس الصينية المضيئـة، بـل ظلـت ناعمـة وطبيعية، ولم تكـن جفونها مشـدودة أو مائلـة. وفي نهايـة كل بيـت، لم تكـن تنتظر بداية العـزف على الكمان أو الآلـه وتريـة ولا كانـت تحـول وجههـا إلى الجنـب، كـما لم تكـن تخفـض عينيهـا بهـدوء. لم تهتـم بحماسـة وجاذبية وفـن الاحتراف، ولم تسـعى لتقليد الشـخصيات الأسـطورية، ولم تكن تقرأ كل بيت مرتـين، ولم تكـن تقـرأ في ضـوء الشـموع، ولم يكـن البلبـل يغـرد معهـا، كـما أن الزهـور لم تُظهـر أي تفاصيـل دقيقة (كلـوز آب) من نفسـها وكان الشـمس لا تغـرب وراء أمـواج الأفق قـرب القارب المطاطـي. كانـت جميلـة وبسـيطة ولم تشـبه قـراء الشـعر المحترفين. ربـما لأنهـا كانـت تشـعر بالـبرد، أو ربما لأنهـا كانت المـرة الأولى لها في القـراءة. كانـت هـذه الفتاة شـاعرة.

لكن الشعر:

مبـاركٌ لـك حفـل الزفـاف، ولتكـن حياتـك مليئـة بالسـعادة والأفـراح.

قـد رزقت بفتـاة ذات ملامـح سـاحرة، هي كشـيرين في جمالها، وأنـت كفرهـاد في تفانيك.

فبعد عمر من السعي والمثابرة ،ها قد منحك الله مكافأة جهدك وصبرك.

لقد خدمت هذه القرية بإخلاص، بقلب نقي وفكر حر.

فتمتع الآن بحياتك، فقد أصبحت هذه القرية بيدك عامرة

ولكن، استمع الآن إلى كلمات شاعرية

لم يستطع العريس أن يصبر على سماع شيء آخر. لم يكن يُنصت أصلاً، فقد كان مشغولًا بأفكار جدية. انحنى نحو لشكوئي وقال:

"أهل القرية لم يأتوا، إذن لماذا قمت بمد الحدود أو الحواجز؟"

فأجابه لشكوئي:

"الهدف كان من أجل هؤلاء الناس. الآن، بما أنهم لم يأتوا، فإنهم محصورون وراء القيود التي فرضوها على أنفسهم".

قفز العريس غاضبًا وقال بصوت غاضب:

"لقد أخطأوا! عليهم أن يأتوا ويعلقوا خلف هذه الحواجز"!

لشكوئي، محاولًا تهدئته وهمسًا مشيرًا إلى أن الناس كانوا يستمعون للشعر، قال بهدوء وحزم:

"موانعهم (حواجزهم) الخاصة أكثر أمانًا، ولن تُسبب لك أي متاعب".

كانت الفتاة قد وصلت إلى نهاية قصيدتها، حيث ختمت بقولها :

"يقولون هذه ذكرى ثمينة

من هذه العروس الجميلة وهذا العريس الجديد".

الحشد الذي كان يثني على كل بيت شعر بأصوات الإعجاب، انفجر هذه المرة في موجة من التصفيق والهتافات.

نهض العريس، كما لو من باب الأدب، ليُعبر عن إعجابه للفتاة التي قرأت الشعر. لكنه وجدها بالفعل بين ذراعي زوجها الصائغ، الذي كان يعانقها ويُقبلها.

انتظر العريس للحظة، لكن المرأة لم تُفلِت من زوجها. لذا، لم يجد خيارًا سوى أن يشكر الشاعر. لكنه شعر بشيء من البرودة في الجو.

لاحظ لشكوئي ذلك، فابتسم، لكنه أخفى ضحكته تحت ذريعة شمّ الزهرة المثبتة على صدره. ولكنه حين انحنى ليشمها، اكتشف أنها من البلاستيك، فانفرجت شفتيه بابتسامة ساخرة، وألقى نظرة على زوجة الصائغ.

كان العريس يشعر بالبرد. ففرك يديه معًا، وانحنى قليلًا، وقال بحزن: "يبدو أن الجو بارد".

ثم، وكأنه قد استعاد قوته، نظر إلى لشكوئي وقال: "إنهم يشعرون بالبرد".

ثم جلس بوضعية أكثر صلابة وأمر قائلًا: "أشعلوا الحطب"!

وفجأة، من كل مكان في الحشد، اندلعت ألسنة اللهب في كل اتجاه.

ولأن النهار قد حجب رؤية الألعاب النارية، قرروا إشعال الحطب بدلًا من إطلاق الألعاب النارية والبالونات الملونة.

كانوا قد وضعوا أكوامًا من الحطب مسبقًا، في أنحاء الساحة، وفي ثلاث زوايا الأسوار الشائكة المحيطة بالساحة.

واتفقوا مسبقًا على أن يُسكب النفط على الحطب أولًا قبل إشعاله، حتى تندلع النيران بقوة وبشكل مفاجئ.

كما قرروا أنه عندما تشتعل النيران، تبدأ الفرق الموسيقية بنشر الألحان وإقامة حفلات الرقص والبهجة في كل مكان.

فجأة، اختلطت الصرخات التي تمثل التظاهر بالخوف من اشتعال النيران، مع التصفيق الذي كان يهدف إلى دفء الشعلة، والدهشة من منظرها المثير والملفت. كان العزف على الطبلة، والناي، والعود، والأكورديون يتداخل كل منهم مع الآخر حسب رغبة كل مجموعة، وكان كل شيء في حالة من الفوضى. وكان هذا جزئياً بسبب أن الحضور، الذين كانوا قد استهلكوا الطعام حتى امتلأت بطونهم، أصبحت عقولهم غارقة في شرح

الأفكار العميقة وتأويل الأعمال الفنية، بينما أرواحهم كانت تنبض بالشعر والفن. الآن، حان الوقت للتمتع بلذة الجسد، الفرح الناتج عن الحركات الإيقاعية. كانت الرقصات تبدأ، وكان الموسيقيون يتنقلون بين الجموع، يشجعون الناس على الرقص والغناء... البعض كان يعزف على الطبلة، والبعض على الدف، وآخرون على العود أو الكمان أو الناي أو الأكورديون، ولكن الجميع كانوا يرتدون النظارات السوداء.

عندما رأت زوجة الصائغ النظارات السوداء، سألت: "هل جميع الفنانين عميان؟" نظر لشكوئي إليها وقال بهدوء: (إنهم ليسوا عميانًا، بل هم... (ذوي البصر) كما نُسميهم. أما العيون السليمة، فقد قالوا إنهم مشغولون ولم يأتوا.)"المقصود أما الذين كانوا يجب أن يأتوا، فقد اعتذروا لأنهم مشغولون بأمور أخرى.

ثم بدأ الرقص يدور حولهم. لم يكن هناك أحد حول موائد الطعام، فقد حان دور القطط والكلاب التي كانت تشم رائحة الطعام عبر حلقات النار وتتجه نحو بقايا الطعام المبعثرة. أصبحت الحيوانات تتسابق على التهام هذه البقايا. كانت الكلاب والقطط الأقوى تقفز على أجساد الخراف أو تضع أقدامها عليها، فتلتهم ما تبقى من اللحم بين الأضلاع العارية. بعض الخراف كانت لا تزال تحافظ على توازنها، رغم أنه لم يتبق لها سوى جلدها المغلف بورق الذهب، ورأسها النيئ الذي

ظل يشبه أول مرة، بعينين مفتوحتين وجرسها الذي كان لا يزال يرن. ومع كل حركة من الكلب أو القط تجاه الخروف، كانت رؤوسها تهتز، ويستمر الجرس في إصدار صوته

كما لو أن هذه الأصوات تؤكد أنه رغم أنه لم يتبق سوى العظام، فإنهم ما زالوا موجودين، وما زالوا يستمرون. ولكن الآن كان يُسمع صوت الأنياب وهي تقضم العظام.

كان العريس يشعر بالرضا لأن كل هؤلاء الأشخاص يرقصون من أجله. بدأ يصفق مع الإيقاع، وسأل من حوله: "هل يعزفون جيدًا؟ أليس كذلك؟ صحيح؟"

أشار الصائغ بابتسامة إلى أنه على حق.

ثم توجه العريس إلى زوجة الصائغ وقال: "يجب أن أخبرك، في المدرسة في طهران، تعلمهم عزف الأبواق. هو يحب آلة الناي. انظر كيف يعزفون جيدًا. يجب أن يتعلم ذلك هو أيضًا. ولكن، في هذه الأثناء، كانت المرأة تراقب ابنها وتبدو مشغولة البال، فقالت: "أنت أيضًا! لا تثرثر كثيرًا. انظر، الجميع يرقص. في المدينة سيعلمونه هذا كله. في المرة القادمة، إذا جاء هنا، سيكون هو أيضًا يعزف على البوق. انهض الآن! لا تجلس! الجميع يقوم! قوموا جميعًا وارقصوا!" وأشارت بيدها لتشجيعهم على الوقوف.

لكـن الجميـع كانـوا يقفـون ويرقصـون. كان هناك جميـع أنواع الرقصـات، وكل شـخص كان يرقـص، حتـى أولئك الذيـن كانوا يراقبـون الأسـلاك الشـائكة لتجنـب دخـول أي شـخص غـير مرغـوب فيـه، بـدأوا يرقصـون أيضًـا. حتـى الرقصـات الشـعبية كانـت جـزءًا من المشـهد.

كانـوا لا يزالون يسـتمتعون برقص "اللزگينـكا"، تلك الرقصة القوقازيـة التـي تجمـع بـين القـوة والرشـاقة، كأنها تذكـير بمرحلة مـن حياتهم كانـوا فيهـا متأثرين بالأفـكار الاشـتراكية، حين كانت الحركات الرقص اليسـارية تشـغل تفكيرهـم وتوجهاتهم.

كان لشـكوئي ينهـض مـن مكانـه، عازمًـا عـلى تشـجيع الحاضريـن الجالسـين عـلى النهوض والمشـاركة في الرقـص، عندما انشـقّت دائـرة الراقصـين فجـأة. مـن بـين الحشـد، قفـز صهـر العريـس غاضبًـا، يصرخ بصـوت عـالٍ. في البداية، لم يسـمعه أحد وسـط الضجيـج والصخب، لكن مـع اقترابه وزيـادة الفضول بين الحاضريـن، خفتت الأصـوات تدريجيًا وبدأت كلماتـه تتضح. كان يهتـف: "أيهـا النـاس! إلى متـى سـتبقون هكـذا؟! توقفـوا عن هذا العبـث! لمـاذا جئتـم إلى هنـا؟ بـالله إنهـم يخدعونكـم! يشـغلونكم بهـذه الأجـواء التافهة"!

لكـن صوتـه كان يصـل فقـط إلى القريبـين منـه، أولئـك الذين كانـت قبضتـه تهـوي بجانبهـم وهـو يلـوّح بهـا في الهـواء. اسـتمر

يـصرخ بكل قوته، لكن الرقص حولـه كان يزداد سرعة وضجيجًا. في الخلفيـة، لم يكـن أحـد يعلـم بوجـوده أو ينتبه لصراخـه. الجميع كان مشـغولًا برقصـه الخـاص، وكأن مـا يحـدث لا علاقـة له بهم.

أخـيرًا، فقـد العريس صـبره وأمر بإخـراج صهره من السـاحة. لكـن زوجـة الصائغ تدخلـت برأي مغايـر، قائلة إنه يجـب التعامل مـع الموقف بأسـلوب لا يعكّـر صفو الاحتفـال. اقترحت أن يُحضر لشـكوئي الميكروفونـات ويضعهـا أمـام الرجـل الغاضـب، لتصل كلماتـه إلى الجميـع عبر مكـبرات الصـوت المثبتة في أنحاء السـاحة. لكنهـا كانـت واثقـة أن هذا لـن يزيد سـوى من تسـلية الحاضرين. وقالـت بثقـة: "حين يسـمعون صوته عـبر الميكروفون سـيعتقدون أنـه مجـرد مهـرّج، يـؤدي عرضًـا كوميديًـا لإضحاكهـم. بـدل أن يكون مزعجًا، سـيصبح مسـليًا".

امتثـل لشـكوئي للفكـرة ونفذهـا. أمـر أحـد الشـبان بوضـع الميكروفـون أمـام صهـر العريـس، ثـم رفـع مسـتوى الصـوت إلى أقصـاه. فجـأة، انفجـر صـوت الرجـل كالرعـد فـوق أصـوات الموسـيقى والرقصـات، وهـو يصرخ بـكل قوتـه: "لا تصدقوهم! اسـتيقظوا! يـا لكـم مـن مغفلـين! كفـى! ارحلـوا فـورًا"!

لكن بـدل أن يأخذ الحضـور كلامه بجدية، انفجـروا بالضحك واعتـبروه جـزءًا من أجـواء المرح. عـاد الحاضرين للرقـص، وكأن شـيئًا لم يكن.

مـن شـدة الصـوت الطنّـان، قفـزت الـكلاب والقطـط عـن الطـاولات مذعـورة، واندفعـت هاربـة. مـن قفزاتهـا، انزلقـت الصحـون والزجاجـات وسـقطت، كـما سـقطت أجسـاد الخراف الفارغة (العظم) من اللحم. رؤوس الخراف انفصلت، تدحرجت ووقعـت أسـفل الطاولات. ومـع ذلك، اسـتمر صهـر العريس في الحديـث، محـاولًا التحذيـر والإثـارة، وهـو يـصرخ دون توقـف.

العريـس لم يعـد يتحمـل صراخه ولا منظـره، فقد بـدا مضطربًا وغاضبًـا. وقال بصـوت منفعل: "يا إلهـي، ما هذا؟ النـاس جاؤوا للرقـص فقط. ينبغـي أن يرقصـوا، كفى! ما هـذه الفوضى؟"

ثـم، وبإشـارة من زوجـة الصائـغ، تقـدّم العازفون نحـو مركز الـصراخ والميكروفـون. بـدأوا أولًا بالعـزف عـن بعد، ثـم اقتربوا تدريجيًـا، حتى غمرت ألحانهم وإيقاعـات الطبول صوت الرجل في مكـبرات الصـوت. امتزج صراخـه الغاضب أولًا مـع الإيقاعات، ثـم تحـوّل إلى نغـمات راقصـة تتماشـى مـع أجـواء الاحتفـال. عـاد الضحـك ليمـلأ الأجـواء، وانتهـت موجـة الانزعـاج التـي بدت وكأنهـا اعـتراض. تحولـت لحظـة الاضطـراب إلى مجـرد ثـوانٍ مـن الخطـأ، سرعـان مـا ذابت، وتـم تصحيحهـا وانتهـى الأمر.

عـادت الكلاب والقطـط، لكن هذه المرة إلى أسـفل الطاولات، لتعبـث بـرؤوس الخراف النيئـة التي كانت أجراسـها تطـن مع كل حركـة. أمـا صهـر العريس، فقـد اسـتمر في صراخه، غـير واعٍ بأن

مكبرات الصوت قد طغت على صوته. كان يصرخ من أعماق صدره، يسمع صوته داخليًا فقط، ولا يدرك أن تركيزه المطلق كان محصورًا في نفسه وحده. كلماته، التي كانت مجرد تعبير عن مشاعره، لم يكن لها أي أثر على الآخرين الذين لم يعيروا حديثه اهتمامًا.

لم يكن هؤلاء الحاضرون مهتمين بما يقوله؛ كانوا يعيشون لحظتهم، يحتفلون ويرقصون. بينما كان هو غارقًا في حالته الخاصة، لا رابط بين الحالتين. وكما قال العريس بصدق: "لقد جاؤوا للرقص فقط." لكن، يبدو أن صهره لم يدرك ذلك، ولم يفهمه.

كان الجميع يعرفون ذلك جيدًا. وعندما ألبسوه خطابه بالألوان الزاهية، حملوه على الأكتاف، وأخذوه وسط الجموع. من فوق الأكتاف، كان يراقب الوضع، ولاحظ أن الجميع مشغول بالرقص، لكنه كان لا يزال في غمرة حديثه، معتقدًا أنه أكثرهم حكمة، رغم أن زوج أخته لم يكن يسمع كلامه. كان يقول له: "هل ظننت أنك وصلت؟ نعم، يمكنك. في عالمك، قد تظن أنك حر في اختياراتك، لكن تذكر أن هناك أمورًا أكبر مما تظن." كان يظن أن رفعه على الأكتاف كان بسبب احترام الناس له، وأنهم يحملونه ليمضي قدماً.

ثم حملوه وسط الجموع، وألقوه في الهواء مع العد: واحد، اثنان، ثلاثة! وكانوا يكررون هذا الأمر عدة مرات. في إحدى المرات، وضعوه على سجادة، ورفعوه من كل الاتجاهات، ثم

ألقـوه مجـددًا في الهـواء. كانـت السـجادة أفضـل في الطـيران لأن السـقوط كان أخـف وطـأة.

أثنـاء ارتفاعـه في الهواء، بدأ يسـمع الأصوات حولـه. بدأ يدرك أن الفـرح بـدأ يقل، وأن هنـاك شيء مـن الغضب الكامـن. لكنه لم يتأثـر، بـل اسـتمر في تركيزه، فقـط تغير اتجاهـه. كان مـن الطبيعي أن يحـدث ذلـك، فبينـما كان في الأعلى، بـدأ يراقب شـخصًا واحدًا فقـط في الجموع.

تحـت الطـاولات، كانت الـكلاب والقطط مشـغولة بـما تفعله، وكانـوا يتدحرجون حول رؤوس الحيوانـات المقطوعة في الأرض، وكأنهـم يسـتمتعون بلحظـة النـزال. العريـس يصفـق، العـروس تضحـك، الراقص يرقـص، والعازف يعزف، بينما شـقيق العروس كان يتنقـل بـين الجمـوع، لكـن الجميـع كان يراقب فقط.

في تلـك اللحظـة، لم يخطر ببال أحد ما سـيحدث إذا ظل شـقيق العـروس عالقًا في الهواء ولم يسـقط. لم يفكر أحد في مصير الحفل أو مسـتقبل هذه اللحظـة، لأنهم لم يكونـوا يؤمنون حتـى بالمعجزات.

جلـس لشـكوئى في الغرفـة، جدرانهـا منحنيـة تتلـوى في كل اتجـاه، مغطـاة بنقوش تخـدع البصر، تنبـض بالحياة بفضـل الألوان وتلاعبهـا في الحجـم، توهـم الناظر بعمـق زائف، وتجعـل الجدران تبـدو وكأنهـا ترتعـش وترتجـف. أسـند ذقنـه إلى ظهـر يـده، ويداه مرتاحتـان فـوق رأس عصـاه، يتحـدث إلى رجـل جالـس أمامـه،

منهمك في الرسم على قطعة قماش طويلة مشدودة بإطار خشبي على حامل ثلاثي.

قال بصوت خافت: "في النهاية، لم يكن سوى صراخ... صراخ فارغ. ظل يصرخ حتى آخر لحظة، وكلامه... لم يكن كلامًا، كان فقط صراخًا. وبعد ذلك، لم يعد يُسمَع أي شيء"...

قبل أن يكمل حديثه، ارتفع صوت غامض من بعيد، كأنه صوت جبل ينشق. تردد صداه بين الأودية، ليتلاشى شيئاً فشيئاً، لكنه ترك اهتزازا خفيفاً في الأرض. توقف الرسام، وسأل دون أن يرفع رأسه: "ما هذا الصوت؟"

أخرج لشكوئى من جيبه كبريت، أشعله وأوقد سيجارته، أخذ نفسًا عميقًا وانتظر قليلاً قبل أن ينفث الدخان بتأنٍ. لوّح بيده ليزيح الدخان عن وجهه وقال بهدوء: "لا شيء... إنهم يشقون طريقًا، يفجرون الجبال".

أعاد علبة الكبريت والسيجارة إلى جيبه، واستأنف حديثه: "كان يعترض!" شدّد على الكلمة بسخرية، ثم هز رأسه وقال بنبرة ساخرة: "هذا طبعهم، قرويون. أفقهم ضيق، لا يكفون (يتوقفون) عن الشكوي".

كان الرسام مشغولاً بعمله، غارقًا في تفاصيل الألوان والخطوط.

نهض لشكوئى متكئًا على عصاه، نظر إلى الفراغ أمامه وهز رأسه بحزم هذه المرة، وقال: "لو لم يكن هناك من يتحرك ويفعل شيئًا، لما تقدّم أي شيء على الإطلاق".

صوته، الذي أصبح أكثر عمقًا وقوة، ارتدّ في فضاء الغرفة الدائرية ذات السقف المقبب.

لكنه لم يجد سوى انشغال الرسام التام بعمله.

تابع لشكوئى قائلاً: "يجب أن يتحرك الإنسان، أن يعمل. انظر إلى هذا الرسم... لو لم تكن أنت هنا، لما رُسم. ولو لم أكن أنا هنا، أو لو كنت هنا ولكن لم تخطر لي فكرة تحويل هذا الرجل إلى لوحة، لما حدث شيء. أحدٌ لم يكن ليسعى وراءك".

توقف الرسام للحظة، بدا وكأنه يفكر في الالتفات إليه، لكنه عاد إلى عمله.

لشكوئى، الذي لاحظ هذا التردد، أكمل بنبرة أكثر إصرارًا: "افهم قصدي جيداً. المهم هو الفعل. يجب أن يتحرك الإنسان، أن يعمل. الكسل والشكوي لن يصنعا شيئًا. العمل يبرر نفسه. أما التذمر والاعتراض فلا يستحقان سوى التجاهل".

تحرك بعصاه ببطء نحو اللوحة، وقف خلف الرسام مباشرة، وواصل حديثه: "عندما كنا نبني، كان أولاد القرية الأشقياء يتسللون ليلاً ويتبولون على الأسمنت والجبس عناداً وبدافع

الشقاوة. "أحدهم لم يسأل نفسه: هل بولهم يكفي لمواجهة إنتاج مصانع الإسمنت أو أفران الجبس؟"!

ثم رفع عصاه وضرب بها الأرض بقوة، فارتد صوتها في أرجاء الغرفة، كأنه يؤكد على كلماته الأخيرة.

بينما كان الرسام يضع الألوان على لوحته، قال: "ماذا فعلت كي لا يعيدوا نفس التصرف اي لا يتبولو مجددا؟" أطلق لشكوئي دخان سيجارته قائلاً: "لو كان ممكنًا، لقلت لهم أن يشربوا المزيد من المشروبات الكحولية ليشعروا براحة أكبر. لا ضرر في ذلك. طالما أن ذلك يسعدهم، دعهم يفعلونه. ما الضرر في ذلك؟

رد الرسام دون أن يلتفت: "وما فائدة البرج؟" وأشار بفرشاته إلى اللوحة التي كان يرسمها. كانت اللوحة تصور الجبال والسهول والوديان والقرى، مع بناء يشبه البرج واثنتين من الكرات على جانبيه البرج في اللوحة. كان العريس والعروس بملابس زفافهما في المقدمة، يديران ظهريهما للمشهد الطبيعي. الأرض تحت أقدامهما كانت متشققة مثل الطين الجاف، وكأنها طبقة رقيقة تحتها هواء.

رسم الرسام التفاصيل بدقة وبأسلوب يشبه الطبيعة، لكنه أضاف من اختياراته وتدخلاته في الترتيب والألوان. في عمله، كان دائمًا يعتمد على اختيارات دقيقة ويسعى للسيطرة عليها قدر الإمكان. كان يرسم كل شيء وكل شخص بحيث يبدو مطابقًا

لذاتـه الفرديـة، لكنه باسـتخدام الألـوان وترتيب العنـاصر بطريقة خاصـة ومدروسـة، كان يمنحها هوية جديدة. هـذه الهوية الجديدة كانـت، في الواقع، تسرق الجوهر الأسـاسي للشـكل أو الشـخص. كان ينـزع مـن الجبـال أو الأشـخاص ألوانهـم المعتـادة، ثـم يُعيـد تقديمهـم بألـوان غريبـة تجعلهـم يظهـرون كغربـاء. هـذا الغرابـة كانـت تمنعـك مـن رؤيـة الشـكل أو الشـخصية بألوانهـا العاديـة وتجعلـك، بعيـدًا عـن الاعتيـاد، تراهـا كـما هـي بوضـوح ودقـة.

كان يعرضهـا بلـون مختلـف ليجـذب انتبـاه المشـاهد إلى تلـك المعرفـة التـي كان يريـد أن يوصلهـا، إلى الهويـة التـي كان يراهـا. كان يتعامـل مـع الروابـط والمسـافات بـين الأشـياء ليـبرز الروابط والأبعـاد الأساسـية لهـا. لم يكـن يريـد أن ينسـخ، كان يريـد أن يرسـم خريطـة. لم يكـن هدفه رسـم تصاميـم، كان يريـد أن يصوغ الشـكل. مـن خـلال الفصـل بـين الظواهـر، كان يظهـر البواطـن عاريـة. هذه كانـت من تقنيات عملـه (لم يكن هدفه رسـم تصاميم تقليديـة، بـل كان يسـعى إلى تشـكيل الصـورة بأسـلوبه الخـاص، ليمنـح كل عنـصر في اللوحـة حيـاة جديـدة.) عندمـا قـال: "مـا فائـدة البرج؟" وأشـار بالقلـم إلى البرج في اللوحة، قـال: "ربما كان ذلـك بالنسـبة لهـم وسـيلة للتنفّس أو تخفيـف التوتر. كل شـخص يجـد راحتـه بطريقتـه الخاصة. هـم يجـدون الراحة في ذلـك، وأنت تجـد راحتـك في البرج".

قال لشكوئي: "لا تتكلم كلام غير منطقي، هناك فرق. أنا هنا لأفعل شيئًا. البرج هو مجرد ذريعة. هو مسمار في يدي. هذا الرجل لديه بعض المال ويريد أن أنفقه عليه".

سأل الرسام: "من أين يملكه؟"

أجاب لشكوئي: "المسألة ليست من أين يملكه، المسألة هي ماذا يجب أن تفعل به الآن".

من الخارج، كان صوت الرياح يهب.

قال الرسام بهدوء، لكن بنبرة ساخرة: "ماذا يفعل؟"

جلس لشكوئي في زاوية على الطاولة التي كانت مليئة بالألوان وأدوات الرسم والأدوية لتنظيف الفرش وقطع القماش المتسخة التي يستخدمها الرسام لتنظيف أدواته وقال: "هو لا يفعل شيئًا، هو فقط يعطي المال. أما أنا، فأحاول أن أفعل شيئًا. الأمر صعب، لكنهم حوله محاصرون تمامًا مثل السد من كل جانب. ومع ذلك، هناك النسور المختلفة، بكل الحيل والخداع، يأخذون منه كل ما يستطيعون، ينهبونه بأقصى ما يمكنهم، هل رأيت السيدة؟"

أشار الرسام بالقلم إلى العروس، وكأنما يسأل: "هل هي؟"

قال لشكوئي: "لا، إنها الكبيرة".

قال الرسام: "أم العروس؟"

قال لشكوئي: "أم ماذا؟ كانت تلعب الورق. لديها خطة للجميع، من الصغير إلى الكبير. أرسلت ابنها الصغير إلى المدينة تحت ذريعة الدراسة في مدرسة داخلية. مدرسة داخلية ماذا؟ أقاربهم. ليأخذوا منه كل شيء. والآن تقول إنها ستأخذه إلى سويسرا، نعم، هي تقول هذا. من أجل الفخامة (التفاخر). ذلك الشاب من أقاربهم، فتح بوتيكًا في المدينة بمال والده. وزوجها، ها! الزوج ماذا؟ مجرد محاسبها (يتولى الأمور المالية لها). اتركه، دعنا من ذلك. الآن في المدينة، يفتح مكانًا للترفيه بمال هذا. بالطبع. المكان؟ لا، ليس مجرد مكان عادي، بل هو نوع من أماكن المتعة، مزين بالمرايا والجص والوسائد الفاخرة. ومع الفتاة أيضًا، نعم، تلك، أم علي. والآن، لديها خطة لي أيضًا".

قال الرسام بنبرة هادئة ومريحة: "إذن، جئت بي هنا لكي أرسم في وسط كل هذا؟ لرسم الوجوه؟"

لشكوئي، الذي تأثر أكثر بنبرة السؤال منه بمعناه أو توبيخه غير المباشر، تمالك نفسه وردّ بلهجة هادئة تحمل لامبالاة: "أمر بسيط يا صديقي! لو كان أسوأ من هذا، لكنت واجهته بنفسي..." ولكن فجأة تغيرت نبرته. بقيت نبرته قوية، لكنها لم تعد غير مبالية؛ أصبحت حازمة ومليئة بالتحدي. قال: "لأن الأمر يتطلب العمل. قلت لك، جوهر الحياة هو العمل. قلت لك، مبرر العمل هو في ذاته. هذا الرجل ليس مجرد قروي بسيط، إنه فرصة يجب أن نستغلها".

استمر الرسام في دهن الألوان على لوحته وسأله: "فرصة لأي شيء؟"

عاد صوت الرعد من الخارج، يهز المكان بقوته.

قال لشكوئي، بثقة وحزم، وهو يضرب بعصاه على الأرض رغم جلوسه مائلًا على حافة الطاولة: "لتحقيق شيء حقيقي! أولًا التخلص من الطفيليات، ثم البناء والتوسيع. استغلال الفرصة التي بين أيدينا. هذه هي الحياة... أن تستغل كل فرصة تأتيك".

اقترب الرسام من الطاولة، أخذ أنبوب ألوان وضغط عليه حتى سال اللون على اللوح، وسأله بينما يمزج الألوان: "إلى متى ستستمر هذه الفرصة؟"

رد لشكوئي: "إلى أن تستغلها وتحقق شيئًا. الأهم أن تبدأ".

أدار الرسام فرشاته بهدوء على اللوحة ليمزج الألوان، ثم قال: "لكن عندما يكون كل شيء يعتمد على مال هذا الرجل، كيف يمكنك أن تضمن أنه سيبقى داعمًا لك لتكمل ما تريد؟"

قال لشكوئي: "سأفعل ما يجعله راضيًا، وسأتظاهر بأنني لا أرغب في البقاء هنا."ومع حركة جسدية عمودية واثقة، بدا وكأنه يقول: "والآن، ماذا تقول عن هذا الضمان الذي أظهرته؟"

توجه الرسام نحو اللوحة، نظر إلى الوجوه الفارغة للعريس والعروس، ثم تأمل المشهد بالكامل. استعد لإضافة المزيد من الألوان، وسأل: "هل تتظاهر؟"

رد لشكوئي قائلاً: "نعم، أتظاهر."بنبرة تحمل معنى: "وماذا لديك لتقوله الآن؟"

قال الرسام: "لكن لا تملك ورقة رابحة بين يديك".

رد لشكوئي: "ألعب بأوراقهم. كل هذا الذي تراه هنا هو لعبتي ".

التفت الرسام لينظر إليه، ثم ابتسم بسخرية وعاد إلى الرسم.

قال لشكوئي بمرارة: "لا تصدقني؟ تعتقد أن هذا مستحيل؟"

قال الرسام: "بالطبع ممكن. التلاعب بالأوراق (التظاهر والمراوغة) ممكن دائمًا. لكن، عندما يصبح التلاعب بالأوراق هو الحرفة الوحيدة، تنتهي كل الحرف الأخرى. يصبح العمل بأكمله مجرد تلاعب بالأوراق، لا أكثر".

بعد لحظة صمت وتأمل، وكأنه يعبر عن فقدان الأمل أو الرغبة في الاعتماد على الرسام، قال لشكوئي: "إذن أنت معارض".

قال الرسام: "أنا رسام، أرى الأمور".

قال لشكوئي: "أنت متشائم، ليس لديك إيمان".

رد الرسام: "لدي رأي، أفكر".

قال لشكوئي: "لكن لديك شكوك".

قال الرسام: "أشك وأطرح الأسئلة".

قال لشكوئي: "من يتدخل ويثير الأسئلة هو الفضولي، ومن لديه عقل يستغل الفرص." ثم نهض من مكانه، مستندًا إلى عصاه، رغم أن جسده لم يكن بحاجة فعلية إلى الاعتماد عليها. لكنه بدا وكأن العصا أصبحت رفيقًا له، تعوضه عن صديق قديم فقده.

وعندما جلس على كرسيه، قال: "بالمناسبة، حين ذكرت الفضول، تذكرت ذلك النادل في المقهى. ما الذي كان يقوله حين رافقك إلى هنا؟ هل بقي أم غادر؟ هذا النادل فضولي جدًا. الرجل هنا لا يحبه أبدًا. يعتقد أنه يتدخل كثيرًا ويحاول التجسس عليه والمكر."

كان القهوجي يعتمد على الحيلة في عمله، ليس بدافع سوء نية، بل لأنها جزء من مهنته. في البداية، كان يتردد على القرية ليعرف سبب زيارات الرجل المتكررة، لكنه حين أدرك أنه لن يحصل على شيء، توقف عن زياراته. بعد بضعة أشهر، لاحظ أن الرجل بدأ مشروعًا جديدًا، وأن شحنات الأثاث والتماثيل

تصل بانتظام. حينها، عاد القهوجي إلى القرية محاولًا أن يجد مدخلًا للتواصل مع الرجل أو يثبت وجوده لديه. لكن الرجل كان يشك فيه ويراقبه بحذر، لدرجة أنه منع مقاوليه من التعامل معه أو إقامة أي علاقة به.

وعندما بدأ العمل على شق طريق خلف الجبل، فكر القهوجي في إنشاء مقهى جديد قريب من موقع العمل، ليخدم العمال أولًا، ثم السائقين والمسافرين عند اكتمال الطريق. كما أنه وجد أن نقل بضائعه عبر طريق مختصر يمر من القرية وصولًا إلى موقع العمل أسهل وأسرع من الطريق الجديد غير المكتمل.

كلما زار القهوجي القرية، كان يسأل أسئلة عادية نابعة من عاداته اليومية، دون نوايا خبيثة أو خطط مبيتة. لكن الرجل رأى في هذه الأسئلة والزيارات فضولًا زائدًا ونية سيئة، مما زاد من شكوكه تجاه القهوجي.

أما الضابط، فرغم أنه لم يجد أي دليل يدين القهوجي، إلا أنه كان يشك في نواياه. كان الضابط من أهل الريف، وكان على تفاهم مع الرجل ومع القهوجي أيضًا، لكنه اعتقد أن القهوجي يخفي شيئًا ما. ومع افتتاح القهوجي لمقهاه الجديد، تخيل الضابط أن هذا المشروع قد يكون جزءًا من شبكة تهريب منظمة، حيث يرى في البغال (الحيوانات المستخدمة لنقل البضائع) والسائقين والحمولات دليلًا على وجود نشاط مشبوه.

كان الشك جزءًا طبيعيًا من عمل الضابط، فهو وسيلته للبقاء يقظًا وحذرًا. لكن بينما كان يراقب القهوجي عن كثب، لم يتوقع أبدًا أن يكون هو نفسه محل شك من قبل كبير القرية.

كبير القرية بدوره كان يشعر بالخوف من زيارات الضابط المتكررة. ومع أنه كان يستمر في أعماله غير القانونية، إلا أنه أصبح أكثر حذرًا. كان يسعى للاستفادة من الوضع الراهن قدر الإمكان قبل أن يُقبض عليه، وحينها فقط كان ينوي الدخول في مفاوضات للوصول إلى تسوية. بالنسبة لكبير القرية، كان تقديم تنازلات دون حاجة ملحة بمثابة دعوة إلى المتاعب وتحفيز الطرف الآخر للمطالبة بالمزيد.

بينما كان الشاب الطموح في عالم الفن يتجول في الصحراء، يبحث عن لحظة هدوء بين الطبيعة الخضراء ليستنشق رائحة النبات العشبي وينغمس في سحره المريح، لفت انتباهه فجأة دخان خفيف يتصاعد من بين سيقان أزهار الشوك (البرية الشائكة) ابتسم، معتقدًا أن تأثير رائحة النبات العشبي قد بدأ يتغلغل في ذهنه. تخيل أن أزهار الشوك قد اشتعلت بالنيران، ورأى بعينه خياله واديًا مليئًا باللهب الأزرق تنبعث منه رائحة زكية، وكأن الطيور تغني بألحان عذبة.

ولكن عندما لم يحدث شيء مما تخيله، واشتدّت رائحة النفط في الجو، ظنّ أن بئرًا من النفط قد انفتح أمامه. تخيل للحظات

أنـه على وشـك أن يصبح مكتشـفًا لأكبر حقـول النفط، وسـيغرق في بحـر مـن الذهب الأسـود، حيث سـيمتزج صوت المـوج بنغمة محركات سـيارات فاخـرة كمرسـيدس بنز ٣٠٠.

لكـن حلمه تحطـم عندمـا أدرك أن النبات العشـبي ربـما لم يكن بالجـودة العاليـة، أو أن رائحـة النفـط كانـت أقـوى مـن تأثيره. في تلـك اللحظة، تبـددت أحلامه وبـدأ كابوس جديد. شـاهد فجأة، ومـن بـين أزهار الشـوك وتحـت الأرض، يظهـر رجل ببدلـة حمراء يعلوهـا معطـف أصفر.

ذهـل الشـاب، ارتعـد، وسـقط عـلى ظهـره مـن الخـوف. بعـد لحظـات، رفـع رأسـه بحـذر ورأى الرجـل يخـرج بحـذر، ينظـر حولـه، ثـم يضـع ملابسـه في حقيبـة جلديـة. قـام بربـط الحقيبـة بحبـل وأسـقطها في بئـر صغير، ثـم ثبّت الحبـل في مكان مـا داخل البئـر، وقـام بتغطيـة فوهـة البئـر بحجـر كبير.

بعـد ذلـك، نظـر الرجـل حوله مـرة أخرى بحـذر، ثـم اتجه إلى أسـفل المنحـدر، عابـرًا الـوادي حتـى اختفى خلـف التلال.

هـذا المشـهد الغريب أيقظ الشـاب مـن أحلامه وكوابيسـه معًا. أدرك فجـأة أنـه وجد ما كان يبحث عنه طوال الوقت، وبدا سـعيدًا بهـذا الاكتشـاف. قـال لنفسـه: بالفعـل، فـإن أعظـم الاكتشـافات تتحقـق في لحظـات العزلـة والتأمل! حتى أبسـط النباتات العشـبية يمكـن أن تكشـف عن فوائد قـد لا نلاحظهـا في حياتنـا اليومية!"

عندما سمع الصائغ تقرير الشاب، نظر إليه بعينين مليئتين بالشك. كانت عيناه الزرقاوان تثير الشك. فهم الشاب نظراته وقال: "والله، رأيت. تعلمت."

صمت الصائغ قليلاً، لكنه صدق الشاب. ثم سأل: "إذن من أين كان الدخان؟ ومن أين جاءت رائحة النفط؟ وماذا عن تلك الملابس؟"

توقف الشاب للتفكير، لكنه لم يجد إجابة. قال فقط: "سيدي، صدقني، رأيت. والله صدقني."

كان الصائغ مقتنعًا بوجود بئر، لكنه كان يشك في صحة ما قاله الشاب، لأنه كان يظن أنه لم يرَ ما يدعيه. لكنه كان يعترف بأن أسئلته مشروعة، حتى وإن كانت الإجابات غامضة. كان يعرف أنه لابد من اكتشاف مكان البئر. ولكن العثور عليها، واكتشاف كل ما في المكان من آثار وجواهر، يتطلب وقتًا وفرصة، ويجب أن يتم ذلك بحذر شديد. العمل يتطلب دقة واهتمام، لأن أي خطأ قد يؤدي إلى فشل العملية كلها. إذا حدث خطأ، ستكون العواقب وخيمة؛ السمعة ستتضرر، والعلاقات ستنهار، وربما حتى حياة الشخص نفسه. لهذا يجب أن يكون حذرًا، خاصة عندما ينام الرجل أو في أوقات غير منتظرة، حيث يمكن أن تحدث الفرصة.

ولكـن لا يمكـن التحرك ليـلاً نحو البئر، لأن الضـوء في الظلام كفيـل بإثـارة الشـكوك. وإذا كان الرجل في سـفر، فـإن الفرصة لن تتـاح، لأن الرجـل قد يصطحـب الجميع معـه، وأي عـذر للغياب سـيكون كافيًا لزيادة الشـكوك.

لذلـك، قـرر الانتظـار والترقـب، عسـى أن يمـرض الرجل أو يسـكر، أو أن تحـدث أي فرصـة أخـرى. وعندمـا جـاء لشـكوئي ليحمـل الخبـز إلى أحـد أصدقائـه، وأيضًـا لإرضاء الرجـل، جلب الرسـام الـذي كان صديقًـا قديمًـا لـه، ليأخـذ صـورة كاملـة لـه ولعروسـه كذكـرى للزفـاف. في الأيام الأولى بعد وصول الرسـام، كان واضحًـا أن العريـس والعـروس يجـب أن يجلسـا أو يقفـا أمام الرسـام بملابـس الزفـاف الرسـمية لبضـع سـاعات كل صبـاح، دون أن يعكـر أحـد عليهـما. بـدأ الرسـام برسـم المشـهد أولًا، ثـم وضـع صـورة العريـس والعـروس في المـكان الفـارغ في اللوحـة.

كان الصائـغ يراقـب الموقـف بعناية حتـى جاء اليـوم الذي قرر فيـه رسـم الصـورة. وكان يعلم أن هذا اليوم سـيكون هـو الفرصة الحاسـمة، لـذا كان عليـه أن يجمـع كل انتباهه وقوته ليكـون حذرًا وناجحًـا في الوصـول إلى هدفه.

وكان هـذا اليـوم هـو اليـوم المنتظـر. عندمـا وصـل الرسـام إلى المقهـى عـلى جانـب الطريـق وسـأل عـن الطريـق، وطلـب مـن القهوجـي أن يسـتأجر منـه حيوانًـا ليركبـه في طريقـه إلى القـري،

استخدم القهوجي عذرًا بأنّه لا يستطيع إرشاده كذريعة ليذهب معه إلى القرية، على أمل أن يجد طريقة للوصول إلى الرجل. لكنّ الأمور لم تسر كما كان يتوقع. لم يعجبه الرجل. وبعد أن بقي هناك لبعض الأيام، أدرك أنه يضيع وقته بلا فائدة. في أحد الأيام صباحًا، قرر المغادرة، معتقدًا أنه بما أنه وصل إلى القرية، سيكون من الأفضل أن يمرّ على المقهى الجديد ليتفقده، فاتجه إلى الطرق الفرعية.

كان صباحًا جميلاً، مع جو لطيف، فراشات ملونة، وزهور برية جبلية، وطيور الجبال البرية، والنور والنسيم، والسماء الزرقاء، وكل شيء شاعريّ كما يُوصف عادة. لكنه بدلًا من أن يرى فتيات القرية اللاتي يحملن جِرار الماء على أكتافهنّ ويتغنين في الطريق إلى الينبوع، كان القهوجي هو من يمشي. وكان يمشي سعيدًا، وأحيانًا ينحني ليقطف زهرة ويشمها، ويقول "اللهم صل على محمد"، ثم ينسى الزهرة تمامًا وكأنه لم يلحظها. استمر في السير حتى فوجئ برؤية شخصين يقتربان بحذر من أعلى التل. كانا الصائغ والشاب الطموح في عالم الفن. كانا يسيران بحذر شديد، وكأنهما كانا يخافان من صوت خطواتهما أكثر من خوفهما من الطريق الزلق والمنحدر. كان الشاب يسير أمام الصائغ الذي كان ممسكًا بيده، ويتبعه بحذر أكبر.

شعر القهوجي بالشك من هذين الشخصين، فتسلل إلى جانب التل واختبأ بين الأشواك، ثم استلقى على الأرض. حلّقت فراشة من بين الأشواك وابتعدت، إذ إنّ العالم مليء بسوء الظن والريبة. فسّر القهوجي خطأً مساعدة الشاب للصائغ العجوز أثناء نزولهما الطريق الزلق والمنحدر. فقال القهوجي بغيظ «أوه، هذا العجوز (الرجل الصائغ)! في هذا العمر المتقدم!»".

عندما وصل الشاب والصائغ إلى سفح التل، لم يكونا بعيدين عن القهوجي. ومع ذلك، بسبب خوفهما الشديد من أن يراقبهما أحد من بعيد، لم ينتبها إلى القهوجي الذي كان يراقبهما عن قرب.

توقفا للحظة على الطريق الضيق، وألقيا نظرة سريعة وقلقة إلى التلال البعيدة، ثم انحنيا كأن السماء قد اقتربت من الأرض، واستأنفا النزول إلى مكان أكثر انخفاضاً. كان المكان مليئاً بنباتات ذات سيقان طويلة وأوراق عريضة وأزهار بنفسجية اللون، تشبه الرماح الدقيقة ذات العطر الفواح.

بعد أن دخلا قليلاً بين النباتات، توقفا. كانا وجهًا لوجه، لكن جذعيهما السفليين لم يكونا ظاهرين خلف تلك النباتات. اضطر القهوجي إلى مد عنقه وتحريك جسده قليلاً ليرى ما يجري. رأى الصائغ يضع يديه على كتفي الشاب، كأنه يعطيه تعليمات للجلوس.

القهوجي، الذي كان المراقبة جزءًا من عمله وعادة لديه، مدّ عنقه أكثر ليتمكن من الرؤية. كان على وشك أن ينهض مسرعاً ويتجه نحو الاثنين ليفاجئهما، لكن الصائغ بدأ في التحرك وابتعد وحده.

وقف القهوجي مترقباً، أنفاسه تتسارع. رأى الصائغ يصل إلى فتحة بئر، يتفحص المكان حوله، ثم يلتفت نحو الشاب مشيرًا بيده ورأسه، وكأنه يقول: "هل هذا هو المكان؟."

الشاب لم يكن مرئيًا من خلف النباتات للقهوجي، الذي كان يراقب بتركيز. ثم رأى الصائغ ينحني ويحاول إزاحة حجر، بينما القهوجي، الذي لم يستطع رؤية تفاصيل ما يجري، خمّن أنه يبذل جهداً لتحريك الحجر، وقرر الانتظار لمعرفة ما سيحدث.

في تلك الأثناء، ظهر الضابط من منعطف الطريق عند سفح التل. فجأةً، لاحظ القهوجي رجلاً مختبئاً خلف تلال النباتات الشائكة، يتحسّس سلاحه. تأكد القهوجي أن الرجل يحمل مسدساً.

كان كبير القرية أيضًا في المكان. كان قادمًا من أعلى التل، متجهًا عبر الطريق المختصر إلى بيت الرجل جديد البناء، ليؤدي واجبه اليومي وفق العادة التقليدية بإظهار الولاء لصاحب المال والسلطة. كان يمشي مطمئنًا، يسبّح بمسبحته، وينتقي الكلمات المناسبة، حتى لمح فجأة الضابط متخفيًا عند سفح التل، مستلقيًا على الأرض في حالة استعداد.

توقف كبير القرية في مكانه، ثم جلس بهدوء على الأرض بحذر شديد. مد عنقه ليرى ما الذي يجعل الضابط في حالة كمين. لكنه لم يرَ شيئًا، إذ كان انحناء التل يحجب رؤية القهوجي أو الشاب عن عينيه.

أما الصائغ، فكان وقتها في داخل البئر، ينزل بخوف وترقب شديد. رأى الحبل الذي علق الرجل كيس ملابسه عليه، لكنه لم يجرؤ على الإمساك به. كان يخشى أن يكون طرف الحبل غير ثابت، أو أن ينخلع المسمار المثبت في الرمال الهشة.

كان يضع قدميه في ثقوب صغيرة على جدار البئر، ويتأكد من صلابتها بالضغط عليها بأطراف أصابعه وقدميه. وعندما يطمئن إلى ثباتها، يسحب يديه من الثقوب الأعلى ويضعها في تلك الأسفل، ثم يكرر العملية. استمر على هذا الحال حتى وصل إلى القاع.

هناك، تردد في ترك نفسه يسقط من الارتفاع بين الحبل وأرضية البئر. أراد أن يعود إلى الأعلى، لكنه كان منهكًا وفضوله منعه من التراجع. صرخ طالبًا مساعدة الشاب، لكن صوته لم يصل إليه. أخيرًا، حدث ما كان يخشاه. انزلق الرمل أسفل قدميه، فسقطت قدمه. لم تعد يداه قادرتين على حمل جسده، واستسلمت قوته لثقل وزنه. سقط داخل البئر، مطلقًا صرخة مدوية.

عندما لم يعد القهوجي يسمع أي خبر عن العجوز، الصائغ، بدأ يشك في الأمر. قال في نفسه: "حتى أكثر الأشخاص هدوءاً لا يمكن أن يغيبوا كل هذا الوقت". والأسوأ من ذلك، لم يكن هناك أي حركة من الشاب أيضاً. مضطراً، نهض القهوجي بحذر، متقدماً بحنية واحتياط، حتى خرج من مجال رؤية الضابط الذي كان يراقبه من بعيد.

مع التقدم أكثر، تعب القهوجي من الانحناء، فاعتدل قليلاً ولكنه بقي منخفضاً، وواصل التقدم حتى رأى الشاب جالساً غارقاً في النوم. خاف القهوجي واعتقد أن الشاب قد مرض أو أغمي عليه. توقف في مكانه متجمداً من الخوف، ونظر حوله بحذر. في تلك اللحظة، كان الضابط قد بدأ بالزحف بهدوء من خلف شجيرات الشوك، محاولاً الاقتراب أكثر من القهوجي. ولما رأى الضابط القهوجي يتحرك داخل العشب، عاد بسرعة إلى مخبئه، وهذه المرة خلف شجيرات كان القهوجي نفسه قد استخدمها سابقاً للاختباء.

كان الضابط يراقب القهوجي الآن من بين الأعشاب والنباتات، بينما كان القهوجي يركز نظره فقط على الشاب النائم. في هذه الأثناء، كان كبير القرية قد وصل أيضاً. كان يسلك طريقاً مختصرة عبر التلال في طريقه إلى بيت الرجل الغني، كعادته اليومية في إظهار الولاء. كان يسير وهو يردد

التسابيح، حتى رأى فجأة الضابط مستلقياً على الأرض مختبئاً في سفح التل. توقف كبير القرية في مكانه مذهولاً، ثم انحنى بحذر ليختبئ ويراقب من بعيد.

كبير القرية لم يرَ شيئاً بسبب انحناء التل، فلم يتمكن من رؤية القهوجي أو الشاب. كان الضابط وحده يراقب القهوجي، والقهوجي كان يركز على الشاب، أما الصائغ، فقد كان في الكهف.

كان الصائغ يشعر بالخوف الشديد في داخل الكهف. بعد سقوطه الذي آلمه كثيراً، نهض ببطء وبدأ يتحسس الظلام من حوله. مر بأصابعه على تماثيل ذهبية باردة، ثم لمس جدراناً صلبة منحوتة، حتى اصطدم رأسه بسقف منخفض. قرر أن يزحف على أربع لتجنب الخطر. واصل تقدمه بحذر، ماراً بأدوات غريبة مثل مصباح شعلة وجاز، ووقف أمام قبر وضع فوقه راديو صغير. لم يكن الراديو جزءاً من الكنوز الأثرية، بل أحضره الرجل ليستمع إلى البرامج الإذاعية أثناء عمله في تدمير الآثار.

عندما لمس الصائغ الراديو، دار مفتاح الصوت دون قصد، ليبث برنامجاً للأطفال عن طائر الهدهد الذي ذهب في رحلة طويلة، بينما كانت أنثاه تنتظره بقلق خوفاً من أن يصطاده طائر مفترس. لكن الصائغ استمر في الزحف داخل الظلام، متجاهلاً القصة.

في الخارج، عاد القهوجي إلى الزحف أيضاً بحذر. شق طريقه عبر التلال، متجهاً إلى الشجيرات والأعشاب، حيث

اضطـر للانحناء لتجنب الأشـواك. تقدم ببطء، بخطـوات متقطعة وحـذرة، فيـما تـردد في الأفـق أصـوات الطيـور الجبليـة.

لكـن حتـى لو وصلـت صرخته إلى الشـاب، لما أثـرت فيه. كان الشـاب منهمـكًا في لحظـة اسـترخاء تامـة. فقد وجـد المـكان هادئًا وجذابًا، فاسـتغل الفرصة ليصنع سـيجارة ويشـعلها أثنـاء اختبائه بـين النباتـات الشـوكية. أخـذ يدخـن بهـدوء، يستنشـق الدخـان وينغمـس في نشـوته، حتـى فقـد التركيـز على كل مـا حوله.

عندمـا اقـترب القهوجـي مـن الشـاب، شـعر ببعـض الخوف، لكـن مظهـر الشـاب بـدا غارقًـا في النـوم إلى درجـة عميقـة. تقدم نحـوه، ألقـى عليـه نظـرة، لمـس كتفه بخفـة، ثـم ألقى نظـرة حوله بحثًـا عـن العجـوز، لكنـه لم يجـد لـه أثـرًا. لاحـظ الحجـر بجانب البئـر. ورغـم ذلك، بقي الشـاب في عالمه الخاص، غارقًا في سـباته. لم يتحـرك ولم يخـرج مـن حالته.

توجـه القهوجـي نحـو الحجـر بجانـب البئـر، حيـث لاحت له فتحـة البئـر. كان الضابط يراقبـه من بعيـد. رأى الضابط القهوجي يتحـرك ببـطء بين الأعشـاب، ينحنـي بصعوبـة، يعتدل ببـطء، ثم يعـاود النظـر حولـه. بعـد لحظـات انحنـى مجـددًا، لكن هـذه المرة بـدأ بالنـزول إلى داخـل البئـر. أثـار هـذا الأمـر فضـول الضابـط الـذي بدأ يتسـاءل عـن مـكان ذهابه.

كان فراشة بيضاء تدور حول رأس الضابط بينما كان يراقب. فجأة، دويّ صوت هائل ملأ المكان، قاطعًا صوت طائر الحجل البري، وجعل الجبل يرتجف وكأنه يتنهد. غريزيًا، انخفض الضابط بسرعة ليختبئ خلف الشجيرات القريبة، وهو في حالة من الذهول.

كبير القرية الذي كان يراقب عن بعد، شعر أيضًا بالخوف. بحركة سريعة، انخفض واختبأ خلف الشجيرات القريبة منه، الشجيرات التي كانت بمثابة ملجئه، حتى هدأ صدى الصوت. بعدها، رفع رأسه بحذر ليرى الضابط يرفع رأسه هو الآخر، بهدوء وحذر. لاحظ الضابط أن القهوجي قد بدأ بالنزول إلى داخل الأرض، وكأنه يدخل إلى قنطرة أو منخفض عميق.

تملّك الضابط خوف شديد من أن يراه القهوجي، فعاد إلى الاختباء من جديد، جلس منخفضًا، وحاول تهدئة نفسه وهو يبتلع ريقه بصعوبة، متحدثًا مع نفسه: "لابد أن هذا المكان هو موقع تخزين المخدرات."رفع رأسه مجددًا ليرى أن القهوجي قد اختفى تمامًا داخل البئر.

عندما وصل القهوجي إلى البئر، سمع صوتًا غريبًا يتردد من داخله، كان صوتًا لقصة عن الهدهد تصدح داخل الغار. ظن القهوجي لوهلة أن امرأة موجودة داخل البئر، لكن لم يستوعب الأمر، ولم يخطر بباله أنه صوت راديو. ومع ذلك، عندما سمع

ضحكات وأصوات غناء وزغاريد قادمة من الداخل، اعتقد أن ما يحدث ليس طبيعيًا، وربما تكون هناك أرواح أو جنية تعيش داخل هذا البئر.

منذ سنوات طويلة لم يفكر في الجن والعفاريت ولم يكن يخشاهم، بل كان يشك حتى في وجودهم. ولكن الآن، وفي ظل غرابة الوضع والمكان، عاد به الأمر إلى أيام الطفولة، وأيقظ فيه الخوف القديم وذكريات تلك القصص، حتى توقفت أصوات الضحك والتصفيق والغناء التي كان يصدرها الرجل العجوز.

أما الصائغ، وبعد أن ضحك كثيرًا، ورقص حول التماثيل حتى أرهقه التعب، جلس على الأرض وأسند ظهره إلى شاهد قبر وهو يستمع إلى قصة الهدهد. كان يفكر فيما يمكنه فعله بمثل هذا الكنز العظيم الذي وجده. وفجأة، "طَق!"، سُمع صوت. كان حصاة صغيرة سقطت على الشاهد، ثم قفزت وسقطت مجددًا بين الحصى المتناثرة على الأرض.

قفز الصائغ في مكانه مذعورًا، وتبخر خياله. مد يده ليلتقط الحصاة الصغيرة، ورفع رأسه لينظر من أين سقطت. لكنه سمع صوتًا آخر، صوتًا متدحرجًا بعيدًا، وكأنه يأتي من مكان بعيد جدًا ثم يختفي تدريجيًا. لم يبقَ في المكان سوى صوت الحكاية عن الهدهد يتردد بإيقاع منتظم.

تأمل الصائغ الحصاة في يده، وفجأة ارتسمت علامات الذهول على وجهه. في ذلك النصف المظلم، أدرك بخبرته الطويلة أن الحصاة مصنوعة من الذهب الخالص. رفع رأسه ببطء لينظر بدقة إلى السقف. ولتحسين رؤيته، وقف ودار حول القبر وهو يركز نظره على تلك النقطة التي سقطت منها الحصاة، حيث رأى شرخًا في السقف.

وبالرغم من خوفه، دفعه بريق الذهب إلى تجاهل قلقه، فصعد على شاهد القبر ليقترب من السقف أكثر. كان الشرخ يعده بشيء أكبر، فاختفى شعور الخوف تمامًا. رأى بين شقوق السقف بريق حصى ذهبية أخرى. نزل بسرعة وهو لا يزال محدقًا بالسقف، وأخذ يبحث عن الفأس التي تذكر أنه مرّ بجانبها سابقًا. وبعد أن وجدها، حملها وعاد إلى المكان. لاحظ أن المسافة بين القبر والسقف ضيقة، بحيث يصعب ضربه بسهولة. أمسك الفأس بإحكام، وبدأ يضرب السقف بقوة. ضرب مرة، مرتين، ثم ثلاث وأربع، حتى تساقطت أربع أو خمس قطع ذهبية من الشقوق.

كان الرجل يضحك بلا توقف. شعور غامر من اللذة اجتاح جسده، وقوته تضاعفت، وعيناه لمع بهما بريق غريب. أمسك بالفأس، وراح يضرب السقف بقوة وبلا هوادة. ضربة تلو الأخرى، حتى فجأة، "شرررر!"، انهمر السيل. وسط أنفاسه

المتقطعة وصيحات الشغف، تدفقت سيول من الذهب الخالص بلا انقطاع، تغمر المكان، وتنهال فوقه.

سقط الفأس من يده، وأصابت قطع الذهب المتساقطة رأسه بخدوش وجروح، لكنه لم يشعر بألم. كان غارقًا في نشوة عارمة، يضحك ضحكات متواصلة لا تعرف التوقف. استمر الذهب يتدفق بغزارة، وازدادت الضحكات، حتى شعر بالتعب، وأصبح جسده غير قادر على التحمل. قدماه انزلقتا، وسقط على الأرض منهكًا، لكن سيل الذهب لم يتوقف.

كان المشهد مذهلًا: الذهب ينهال، يغمر كل شيء، يملأ الغار، حتى صار الرجل العجوز مدفونًا بالكامل تقريبًا تحت أكوام الذهب. يداه وقدماه وصدره وظهره غمرتهم الرياحين الذهبية. وحده رأسه، الذي بالكاد كان يستطيع تحريكه، بقي ظاهرًا وسط هذا السيل الغامر.

لم يتوقف الذهب، وظل الرجل يحدق بعينيه إلى ما يتساقط فوقه. رغم ثقل الكمية المتزايدة عليه لحظة بلحظة، لم يشعر بالخوف أو الألم. كان مأخوذًا بجمال المشهد ووفرة الكنز، حتى أن شعوره بالخطر أو الاختناق لم يصل إلى وعيه. ضحكاته، مع مرور الوقت، أصبحت أضعف وأهدأ، حتى اختفت تمامًا. وعندما انتهى السيل أخيرًا، تراكمت فوقه كومة ضخمة من الذهب.

وبعد أن هدأ الغبار، رفع الصائغ رأسه بصعوبة، وحدق في السقف. رأى فتحة خالية، كأنها عين غول بلا بؤبؤ، تراقبه بصمت مرعب. تسلل الخوف إلى قلبه، ولم يعد يشعر إلا بالوزن الهائل الذي يحيط به. حاول أن يحرك رأسه، لكن الكومة الذهبية بدأت تنهار ببطء. خاف أن يؤدي أي حركة إلى سقوط المزيد، حتى يغطي الذهب رأسه بالكامل. بقي ثابتًا في مكانه، عاجزًا عن التفكير في مدى استمرار هذا الوضع، أو كيف سيكون حاله إن استمر.

وفي تلك اللحظة، كان صوت الحكاية عن الهدهد لا يزال يتردد من الراديو. فجأة، سمع الصائغ صوتًا يأتي من أعماق الغار. لقد سقط القهوجي، من فتحة البئر إلى داخل الغار.

عندما سقط القهوجي، ورغم أنه سقط على قدميه، إلا أن بريق الأحجار الكريمة والذهب ولمعان الجواهر صدمه بشدة، مما جعله يقع جالسًا على الأرض. لم يُصدّق عينيه. نهض فورًا، يريد أن يهرب، ولكن حين رفع رأسه للأعلى رأى السماء الزرقاء تطل من فتحة البئر. مر من تحتها بخوف.

وفي تلك الأثناء، كان الضابط يقترب من البئر عندما رأى الشاب جالسًا. في البداية، استاء من شعره الطويل، لكنه لاحظ أنه غارق في النوم. أثار نومه العميق، وسط أصوات الحركة، شكوك الضابط. اقترب بحذر ولمس على كتفه، لكن ردة فعل

الشـاب كانـت بطيئـة ومرتبكـة، وكأنـه فاقـد الإدراك، ممـا زاد من شـكوك الضابط.

بـدأ الضابـط يبحث عـن أي علامة ضرب أو دمـاء، لكنه لم يجد شـيئًا. إلى أن لاحـظ سـيجارة مشـتعلة بجانب يد الشـاب المترهلة. مـن رائحتهـا أدرك أنهـا محشـوة بـمادة الحشـيش. اشـتعل غضبـه وشـعر بأسـف عميق على شـباب جيلـه الذيـن ابتعدوا عـن تقاليد الأجـداد، وبدلًا مـن ذلك لجـأوا إلى تعاطي الحشـيش. ومع ذلك، تذكّـر أن الحشـيش بحـد ذاتـه كان تقليدًا قديمًا هـو الآخر.

أخـذ الضابـط سـيجارة الحشـيش وسـحقها بقـوة تحـت حذائه وكأنـه يريـد أن يُبيـد كل أفعـال الجيل المنحـرف دفعة واحـدة. ثم، بنظـرة عازمـة، توجـه نحو البئـر. عندما وصل، تحسـس مسدسـه، شـدّ حزامـه بإحـكام، وعدّل قبعتـه، وبـدأ ينزل بحذر شـديد.

في ذات الوقـت، كان كبـير القريـة يقـترب أيضًـا، ممسـكًا بمسـبحته بإحـكام، كان يتسـاءل في داخلـه عن العلاقة بـين مراقبة الأخطـاء وهبوطهـم في هـذا البئـر. أمـا الضابـط، الـذي كان يهبط ببـطء وحـذر عـبر الأنبـوب، فقـد شُـغل بأمر آخـر: "لمـاذا ينبعث صـوت إذاعـي يحكـي قصـص أطفـال في مـكان كهـذا؟"

بفضـل خبرتـه وذكائـه، أدرك أن الصـوت قـادم مـن جهـاز راديـو، وأنهـا قصـة موجهـة للأطفـال. ومـع ذلـك، لم يسـتطع أن يجـد تفسـيرًا يربط بـين وجـود الراديو، المخـدرات، البئـر، أو حتى

الهيرويـن. وبينما كان مسـتغرقًا في أفكاره، فاجأتـه أصوات ضحك وحديـث بـين شـخصين تصاعدت مـن أعـماق البئـر، فجعله ذلك يتوقـف عـلى الفـور مسـتنفرًا ومتيقظًا.

كان الصائـغ يطلـب المسـاعدة مـن القهوجـي. وعندمـا وصل القهوجـي ورأى الكومـة (مجموعة كبيرة من الذهـب المتراكم فوق شـخص)، وقـف مذهـولاً أمـام هـذا الكـم الهائل مـن الثـروة. لم يسـتطع أن يـرى رأس الصائـغ المدفـون بـين كومة الذهب بسـبب الظـلام وحجـم الكومـة الهائـل. أمـا الصائـغ، الـذي كان محاصراً تحـت ثقـل الذهب، فقـد فقد خوفه مـن رؤية البـشر أو الجن أو أي كائـن آخـر، وصار كل أملـه أن يخرج مـن تحت هذا العـبء. نادى بصوت أنين:

"يا مسلمين... ساعدوني، أخرجوني من هنا"!

وقـف القهوجـي حائـراً أمـام الكومـة. شـيئاً فشـيئاً، أدرك أن الصائـغ عالـق تحت هـذه الكومـة الذهبية. نـادى الصائغ بتوسـل:

"استخدم ذلك الفأس! أزح هذا الذهب عني! أسرع"!

بـدأ القهوجـي ينظـر حولـه حتـى وجـد الفـأس. التقطـه وبدأ بإزالـة قطع الذهـب عن الصائغ الذي كان يئن مـن الألم. القهوجي كان يتصبـب عرقـاً، لكنـه فجأة توقف. توسـعت عيناه، وسـقطت زوايـا شـفتيه، وشـحب وجهه، ووقـف مشـدوهاً دون أن يتحرك.

نظر إليه الصائغ بقلق وارتباك، لكن القهوجي لم يتحرك. لقد اجتاحه تفكير جعل قلبه يضطرب. فهم أخيراً ما الذي يفعله وما الذي يمكن أن يمتلكه الآن. على وجهه ارتسمت ابتسامة ساخرة. ثم عاد إلى العمل مجدداً.

أخذ القهوجي يدفع الذهب بالفأس، لكنه لم يكن يزيله عن الصائغ، بل كان يجمعه فوقه! وبدأ يضحك بصوت عالٍ.

صرخ الصائغ مستغيثاً:

"ماذا تفعل يا رجل؟! أخرجني من هنا"!

لكن القهوجي استمر في رمي الذهب فوقه.

صرخ الصائغ مجدداً:

"لقد انتهيت... أرجوك كفى"!

لكن القهوجي لم يتوقف، وظل يضحك بصوت عالٍ بينما يدفن الصائغ أكثر تحت الذهب.

بدأ الصائغ يصرخ: "سأشارك!"، فأجاب القهوجي بضربة مغرفة الجرافة وسط الرمال قائلاً: "هل أنت مجنون؟ ستشارك؟"وكان كلما حمل شيئًا على المغرفة، يسكبها على وجه الصائغ. يهزّ الصائغ رأسه ويبعد الرمال عن وجهه قائلاً: "نصف هذه الرمال لك". ضحك القهوجي قائلاً: "نصفها؟"ثم تابع رمي الرمال مرة أخرى. أما الصائغ، فظل

يهزّ رأسه ويقول بصوت متألم: "لكن كل هذه الرمال ليست لي. "بينما كان القهوجي يواصل العمل قائلاً: "لكنها ملكي الآن!"، وعاد يسكب الرمال.

لم يعد بإمكان الصائغ تحريك رأسه بسبب تراكم الرمال حول وجهه، فحاول تحريك شفتيه لكي يزيح الرمال عن فمه وقال بصعوبة: "كل شيء ملكك... أخرجني من هنا... لكن..."، لكن كلماته انقطعت وغطت الرمال فمه ورأسه، بينما بقي عينه الوحيدة مكشوفة بصعوبة. وقام القهوجي، الذي شعر أن العمل قد انتهى، برمي المغرفة جانبًا، ثم التفت بعيدًا نحو التماثيل. تناثر بعض الرمال واهتزّت جفونه، ليبقى عينه الوحيدة ظاهرة بعد أن غطى باقي وجهه تحت الرمال.

بينما كان الصائغ يختنق تحت هذا العبء، بدأ يتذكر الشاب الذي كان قد رآه في الماضي. شعر بالضيق والحيرة، وتساءل بينه وبين نفسه: "ماذا فعلت له؟ لماذا فعل بي هذا؟ لم أضرّه أبدًا، فكيف أصبح متواطئًا مع هذا الرجل؟ من هو هذا الرجل؟ من أين أتى؟ لماذا تركني وتسبب في خيانتي؟ اللهم ارهم (أظهر لهم) عدلك".

في الجهة الأخرى، أخذ كبير القرية نظارته عن عين الشاب، الذي كان يرتجف، ولكنه لم يشعر بشيء حتى من اللمسة الخفيفة التي قام بها كبير القرية. الشاب كان عميقًا في غفوة لم يشعر بأي

تغيير. بدأ كبير القرية يتساءل: "ما علاقة هذا الشاب المسكين بالضابط؟ ماذا فعل له؟ ولماذا سقط في هذا البئر؟" شعر بالخوف من أن هناك شيء حكومي خلف هذا الموضوع.

ثم توقف كبير القرية عن التفكير في هذا وقرر العودة، لكن فجأة سمع صوت تصفيق وأغنية تخرج من البئر. لم يكن لديه أدنى فكرة عن الرابط بين التصفيق والأغنية وأسرار الحكومة، لكنه فزع عندما سمع الصوت. شعر أن التصفيق لا يأتي إلا من الوهم والخوف، وأخذ سبحته التي كانت على معصمه، وأغمض عينيه ليقرأ "دعاء الاستخارة"، ويقرر إن كان عليه النزول أم العودة.

النتيجة كانت خيرًا، ففضل النزول على الرغم من شكه. بينما كان القهوجي يرقص، سعيدًا بما فعل، كان يدرك أن كل شيء يسير وفق خطته. بدأ يرقص أمام كل تمثال، يلامسهم بأصابعه، يهمس لهم بكلمات، وهو يفكر في كيفية أن يصبح السيد المطلق لكل شيء بعد أن يلقى الشاب في البئر، يظل يتنعم بالثروة والمتعة كما يريد.

في لحظة، طوى أصبعيه على طرف أنفه، وضغطه بقوة، وفجأة شعر بأن أنفه كان ناعمًا ودافئًا ودهنيًا. على الرغم من أنه كان يدور في رقصه، إلا أنه اضطر للتوقف فجأة. عاد إلى الوراء، ليكتشف أنه مرَّ عبر أنفه، وكان يشعر بشيء غير معتاد: كان

هنـاك دفء، وعينـان ثابتتـان تنظـران إليـه بغضب، وكأن شـخصًا يراقبـه بشـدة. توقـف في مكانه، وشـعر بالخـوف. أدرك أن التمثال لم يكـن مـن الذهب كـما كان يعتقـد، بـل كان يرتدي زيًا عسـكريًا. فزعًـا، انطلـق هاربًـا عبر الغـار، متجنبًـا القبور، حتـى اختبأ خلف قـبر ضخـم ذو حجـر سـماقي اللـون. ثـم رفـع رأسـه بحـذر مـن خلـف الحجـر وألقـى نظـرة عـلى طـرف الغـار. بـدا لـه أن الشيء المخيـف يتحـرك. فـزع وقـال بصوت مرتجـف: "مـن أنت؟"

أجابه الصوت: "تريدني أن أكون من؟"

فكـر في نفسـه، هـل هـو مجـرد خيـال، أم أن هنـاك شـيئًا غـير طبيعـي يحـدث؟ هـل هـو ميـت؟ هـل هـذا تمثـال حـي؟ أم هـو سـحر؟ ثـم سـأل بصـوت مرتجـف: "أنـت جنـي أم إنسـان؟"

أجاب الصوت: "أنا الضابط".

فقـال القهوجـي ليمنـح نفسـه بعـض الطمأنينـة، وقـد ضـاق صـدره من الخوف: "أنت تكذب."ثم همس لنفسـه: "أنا خائف".

لكـن الصـوت الـذي كان يمـلأ الغـار جعـل هـذا الاعـتراف يخـرج منـه. أجـاب الضابـط قائـلًا: "بالطبـع، أنـا الضابـط. كنت أعتقـد أنـك مـن معـك هيرويـن؟"

وعندمـا أدرك القهوجـي أن الضابـط ليـس جنيًا بـل هو ضابط حقيقـي، بلـع ريقه. جمـع نفسـه، لكنه لم ينطـق بكلمة.

تحـرك الضابـط بعصبيـة حيـث كان واقفًـا مكانـه، ثـم اقـترب خطـوة أخـرى، وزمجـر باعـتراض وبنفـاد صـبر: "ماذا، هـل أنت أخـرس؟ تحـدث! هـل سـتخرج أم لا؟"

لم يكـن يعلـم أن أحدًا داخـل المغارة قادر على الخـروج، لكن في الأعـلى، كان كبـير القرية يحاول النـزول إلى قاع البئـر والدخول إلى المغـارة. الضابـط لم يكـن عـلى دراية بذلـك أيضًـا. في الواقع، حتى كبـير القريـة نفسـه لم يكـن متأكـدًا تمامًـا ممـا يريـد، لكن التشـجيع الذي اسـتمده مـن التسـبيح دفعه نحـو اتخاذ هـذا القرار..

كانـت هـذه مهمـة صعبـة، لأن الانحناء للإمسـاك بحافـة البئر مـن أجـل التعلـق بهـا والنـزول لم يكـن ممكنًـا بسـبب كـبر بطنـه الـذي أعـاق حركتـه. اضطر كبـير القريـة إلى الجلـوس، أو بالأدق الاسـتلقاء عـلى الأرض، ثـم تزحلق ببـطء نحو حافة البئـر. أدخل قدمـه داخل الحافـة المعدنية، وواصـل التزحلق حتـى أصبح نصفه داخـل البئـر. حينهـا تمكن مـن الاتكاء عـلى مرفقيه فـوق الأرض، ثـم بـدأ ينـزل تدريجيًا بشـكل عمـودي وببطء.

في هـذا الوقـت، كان صـوت القهوجـي القادم من داخـل الغار يصـل إلى الأعـلى. القهوجـي، الـذي اسـتعاد هـدوءه بعـد زوال خوفـه، وقـف بثقـة خلف قـبر حجـري. رفع رأسـه بهـدوء، وبعد أن أخـذ نفسًـا عميقًـا وثقيـلًا، قـال بصـوت متماسـك وعميـق: "أخفتنـي"!

رد الضابط بحدة تحمل نبرة السلطة: "ماذا تفعل هنا؟ لماذا أتيت؟"

أجاب القهوجي بنبرة مليئة بالثقة: "هل هو ممنوع؟ لماذا أنت هنا إذن؟"

أوضح الضابط حقه في التواجد قائلاً: "أنا ضابط".

وعلى الرغم من أن القهوجي فهم من صوته وهيئته من يكون، أي ضابط هو هذا، لكنه أراد استفزازه قليلاً وقال: "وكيف لي أن أصدق؟"

رد الضابط بغضب وصاح: "هل أنت أعمى؟ أنا مأمور."ثم أشار إلى زيه الرسمي كدليل.

قال القهوجي بهدوء: "أنا مأمور".

تفاجأ الضابط وسأله بتردد: "أنت مأمور؟ مأمور أين؟"

أشار القهوجي إلى ملابسه قائلاً بثقة: "ألا ترى؟ أنا مأمور سري."ثم انسحب واختبأ خلف تمثال.

الضابط لم يصدقه، لكن الشك بدأ يتسلل إلى ذهنه. قال لنفسه: "ومن يدري؟ ربما يقول الحقيقة. ربما هو هنا في مهمة سرية لأحد الأجهزة الحكومية. ربما كل قدومه إلى القرية مرتبط بأمر غامض."ومع ذلك، لم يكن يستطيع إنهاء الأمر دون التأكد.

تقدم الضابط بخطوات حذرة وقال بشك: "أنت تكذب!" ثم توقف قليلاً وسأله: "أين سلاحك إذن؟" فقد كان يخشى أن يكون القهوجي ليس مأمورًا ولكنه يحمل مسدسًا.

أطل القهوجي برأسه من خلف التمثال وقال بثقة ساخرة: "المأمور السري لا يحتاج إلى سلاح. لديه عقل." وأشار بإصبعه إلى رأسه ليؤكد على ذكائه.

الضابط بدأ يميل لتصديقه، لكنه أراد التأكد أكثر فسأله: "وأين بطاقتك الشخصية؟"

أدرك القهوجي أن عليه تصعيد الأمر، فأجابه بجفاء: "اذهب من هنا!" ثم انحنى والتقط من أرض الغار شيئًا يشبه مخروط الصنوبر ولكنه مصنوع من الذهب الثقيل. رفعه وكأنه يستعد لإلقائه، وقال محذرًا: "سأرميه عليك، احذر"!

تراجع الضابط بسرعة إلى خلف تمثال آخر وسأله بخوف: "هل هذه قنبلة؟"

ضحك القهوجي بسخرية، وقد شعر بالارتياح لأن الضابط خاف، وقال بنبرة ساخرة: "إنها برتقالة!" ثم أضاف بلهجة مليئة بالوعود: "كلها ذهب... سنتقاسمها معًا."

كان الضابط يكره الأعمال غير القانونية دائمًا، وكان يشعر بالغثيان من فكرة التعاون مع العصابات، لذا أصابه الغضب

والارتعاش، ثم صاح بأعلى صوته: "اسكت! أيها اللص الوضيع! هذه كلها آثار تاريخية. يجب عليك إبلاغ مراكز العلم والفن. لا أن تفسدها بنفسك. هيا بنا!" وتقدم بخطوات ثابتة وعزيمة قوية، وكأن مركز الشرطة يقع في نهاية الغار على اليسار، في القاعة الثالثة أو الرابعة، وأنه سيستسلم الآن للمجرم قبضته القانونية، ويقدمه للعدالة.

لكن القهوجي رد دون اهتمام قائلاً: "لا تقترب".

استمر الضابط في غضبه قائلاً: "اتركها"!

رد القهوجي: "اهرب بسرعة"!

"قلت لك اتركها!" وفي لحظة غضب، حاول الضابط أن يأخذ وعاء أو إناء كان على قبر قدام التمثال الذي كان يختبئ وراءه، أمسك به كما لو كان ينوي رميه دفاعًا عن نفسه، لكنه تراجع وقال: "لو كان لديك شرف، لعرفت أن هذه الأشياء يجب الحفاظ عليها. الوطن هو هذا! التاريخ هو هذا! الوطن هو التاريخ القديم"!

القهوجي، الذي كان غالبًا مشغولًا بالتفكير في صندوق المال والمِرآه النحاسية الكبيرة، اعترفت ملامحه بعدم الفهم، وعلى الرغم من أن نبرة الخطاب أزعجته، لم يكن يعير اهتمامًا لما كان يُقال. كان في شك، لكنه كان يشكك في معنى ما سمعه وليس

في خطـط وأهدافـه الخاصة. قال: "حسـنًا، حسـنًا، تكلـم ولكن لا تقترب".

فوقـف الضابـط وقـال: "لا تقـترب؟ هـل تخيفني؟" ثـم امتـلأ غضبًـا بسـبب عـدم احـترام مكانتـه وملابسـه الرسـمية، لدرجـة أنـه، في حالـة مـن الانفعـال، رمـى الكـره الكريسـتال العتيـق إلى القهوجـي بـدلًا مـن أن يـرد عليـه.

تحطمـت القطعـة الأثرية عندمـا ارتطمت بحجـر القبر. فصرخ القهوجـي قائـلًا: "أيـن الحفظ؟" وألقـى بالفاكهـة الذهبيـة نحـو الضابط.

تراجـع الضابط واختبـأ خلف تمثال وهو يـصرخ: "لا تضرب! لا تضرب!" لكـن القهوجـي اسـتمر في جمـع الفاكهـة الذهبيـة ورميهـا، ثـم تقـدم نحـو الضابط. فـصرخ الضابـط قائـلًا: "قلت لـك لا تـضرب! توقـف"!

رد القهوجـي قائـلًا: "إذا كنـت صادقًـا، اضرب أنـت أيضًـا! أطلـق النـار! هـل لديـك مسـدس؟ دافـع عـن نفسـك أو اعتـدِ عـليّ!" لم يكـن يقصـد أن يتعرض للإصابـة أو المـوت بالطبع، لكنه كان يريـد التأكـد مـن أن الضابـط مسـلح بالرصاص في مسدسـه، أو أن المسـدس مجـرد زينـة عـلى حزامـه. إذا كان مليئًـا بالرصاص، كان يريـد إجبـاره على إطـلاق النار حتـى تنفد رصاص المسـدس، ومـن ثم تكون الفرصة سـانحة للتعامـل معه إما بالقـوة أو بإقناعه

بالـكلام. وأثنـاء ذلـك، كان يواصل رمـي الفاكهـة الذهبية واحدة تلـو الأخرى.

كان الضابـط مـن أهـل الفضيلة والفكـر النبيـل، ولم تنطلِ عليه خدعـة أو حيلـة، فقـال: "لن أطلـق النار عـلى مواطني".

لكـن القهوجـي اسـتمر في تحديـه قائـلاً: "أطلـق النـار، لمـاذا لا؟"واسـتمر في رمـي الفاكهـة الذهبيـة.

أجـاب الضابـط: "لـن أطلـق النـار. أنـا لا أطلـق النـار عـلى مواطنـي."وكان يعلـم أنـه يجـب أن يكـرر هـذا الشـعار، فتراجـع خطـوة إلى الـوراء حتـى اصطـدم قدمه بقبر وسـقط عـلى الأرض. القهوجـي مـا زال يرمـي. الضابـط زحـف عـلى الأرض وركـض خلـف القـبر ليختبـئ. في هـذه الأثنـاء، سـقطت قبعتـه.

القهوجـي، دون أن يُبـالي بهيبـة الضابط أو نواياه، قال بسـخرية تامـة: "ليس لديك مسـدس لتطلق النـار به"!

كانت هـذه إهانة صريحـة. أخرج الضابط مسدسـه مـن جرابه، رفعـه مـن وراء الحجر، وصـاح قائـلاً: "إذاً ما هذا؟"

القهوجـي الـذي كان مسـتمرًا في رمـي الفاكهـة، صـاح: "إنـه فارغ"!

رد الضابـط بفخـر، مؤكـدًا عـلى قيمة سـلاحه: "لا، إنـه مليء. سـأطلق النار"!

قهوجي رد قائلاً: "إذاً، أطلق النار"!

قال الضابط: "لن أطلق النار عليك. أنا لا أطلق النار على لص".

القهوجي تحداه مجددًا قائلاً: "إذن، أطلق النار على السقف"!

فأطلق الضابط النار، ولكن السقف كان في غار فارغ، بلا حياة ولا ضرر، فكان من السهل أن يُطلق عليه النار.

القهوجي، وهو يُظهر تعجبه وبسخرية، قال: "يبدو أن السلاح كان مليئًا، أليس كذلك؟ أحسنت، لا تتوقف! طالما لديك الرصاص، أطلق النار"!

في داخل الغار، كانت الطلقات تتردد، وكان السقف يهتز، والآثار تهتز أيضًا، وكان الهواء مشحونًا بضغوط عالية. ولكن في أسفل الحفرة، كان يشعر كبير القرية بالندم، وكان خائفًا ويريد العودة، لكنه لم يكن قادرًا على ذلك. وبينما كان خائفًا من الطلقات والصوت الحاد، شعر بأنه لا يستطيع التحمل أكثر، وبدأ في التبول. تدفق السائل على ساقه، وكان يتبع خطاه حتى وصل إلى نهاية الحفرة. وعندما كان السائل يتساقط، كان الضوء ينعكس من الأعلى عبر الحفرة.

القهوجي رأى ذلك، وكان يعلم أن الحفرة التي لا قاع لها لا تحتوي على ماء. ربما كان السائل ينزل من جدران الحفرة. على أي حال، أخذ ذلك كعلامة على أن كبير القرية سقط.

بينما كان الضابط مشغولاً بأصوات الطلقات القريبة من أذنه، لم يلاحظ سقوط كبير القرية رغم أنه وقع بقوة. الضابط، منذ دخوله الغار، كان دائماً يركز على ما أمامه، وكان ظهره إلى الحفرة وعينيه على القهوجي، وأذنه كانت تسمع الطلقات وهو منشغل في الحفاظ على النظام، فلم يكن لديه الفرصة لرؤية أو ملاحظة ما كان يحدث وراءه.

لكن القهوجي كان يرى كل شيء بوضوح. خاصة عندما لاحظ لمعان قطرات الماء المتساقطة، حيث بات ينتظر ظهور وضع جديد لم يكن يدرك تفاصيله، لكنه كان يأمل أن يكون أفضل مما هو عليه الآن. كان واضحاً أن الضابط غريب عن هذا المكان ولا يعرف شيئاً عنه، ومن تصرفاته بدا أنه لن يتفق مع أي أحد هنا. لذا، كان القهوجي يدرك أن أي شخص يدخل إلى الغار سيصطدم حتماً مع الضابط، وعندها يستطيع هو استغلال الموقف: إما أن يتعاون مع أحد الطرفين ضد الآخر، أو على الأقل، عندما ينشغل الضابط بالوافد الجديد، ينقضّ عليه بسرعة ويخطف مسدسه بضربة واحدة.

رسم القهوجي هذا السيناريو بنفس السهولة التي كان يقرر بها رفع أسعار الطعام والشراب في مقهاه إذا ما لاحظ أن أحد الزبائن يبدو من مظهره ثرياً. وعندما رأى كبير القرية يدخل، خرج بهدوء من وراء القبر، خلع قبعته، وجفف وجهه المتعرق

بهـا. ثـم، وبنـبرة ناعمـة ومليئـة بالتصالـح، قـال: "لمـاذا تتبادلون إطلاق النـار؟ لنجلـس ونتحـدث بهدوء".

لكـن الضابط، بنـبرة حازمة وثابتـة رغم تعبه وغضبـه، أجاب: "أنـا لا حديـث لي معـك. رجـل القانـون وظيفتـه واحـدة: تنفيـذ القانون"!

القهوجـي كان يراقـب كبـير القريـة الـذي نهـض وبـدأ ينظـر حولـه بينـما يحـاول تنظيـف البلـل عـن سروالـه. أراد القهوجي أن يلفـت انتباه كبـير القريـة سريعاً ليقوم بـأي تصرف. وبنـبرة مملوءة بالاحـترام المصطنـع والتواضـع الممـزوج بالخـداع، سـأل: "كـم رصاصـة يحمـل مسدسـك؟"

الضابـط، الـذي لم يكـن يحتمـل الأسـئلة السـاذجة إلا مـن رؤسـائه بسـبب انضباطـه المهنـي، ضغط على أسـنانه بغيـظ وقال:

"المسدس يحمل سبع رصاصات، أيها الأحمق الغبي"!

حـاول القهوجـي التظاهـر بالاحـترام، وقـال بنـبرة مشـكوكة لكـن وديّة:"ربـما تكـون رجـلاً ملتزمـاً بواجبـك، لكـن الأدب ينقصـك. لا ينبغـي للضابـط أن يكـون بذيئـاً، خاصـة في مـكان كهـذا. لـو كنا فـوق الأرض، لـكان الأمـر مختلفـاً قليـلاً. لكننا هنا تحـت الأرض"...

ردّ الضابط بغضب وهو يستند على القبر بساعديه، وقال بحزم: "هل تريد أن تقول إن السرقة والخيانة تصبحان مقبولتين إذا كانتا تحت الأرض وخفية؟"

كان القهوجي يراقب كبير القرية ليرى ما سيفعله، لكنه لاحظ أن إشاراته وحركات حاجبيه لم تكن واضحة بسبب الظلام. أدرك أن كبير القرية لم يفهم رسائله، لذا حاول القهوجي أن يخفف التوتر بينه وبين الضابط، وفي الوقت نفسه يلمّح لكبير القرية للتحرك، فقال: "سيدي الضابط، ما أقصده أننا جميعاً يجب أن نتكاتف، أن نكون سنداً لبعضنا البعض. نعمل معاً، نبني معاً. هذه الأرض مليئة بالذهب، قلبها ليس حجراً بل ذهباً، وجواهر. بدلاً من النزاعات والعداوات، يمكننا التعاون. نقسم الغنائم فيما بيننا، فكلما كان عددنا أقل، كان نصيب كل واحد منا أكبر. لنشكر الله على نعمه".

بدأ كبير القرية يفهم الموقف تدريجيًا، ثم بدأ يمشي ببطء. أما الضابط، فقد كان يتنهد في صمت ويفكر.

ظل القهوجي يردد: "لا أحد يعلم هنا ما الذي يحدث أو ماذا سيحدث الآن". وصل كبير القرية إلى قمة القبر قبل الضابط، حيث كان الوعاء الكبير المصنوع من الذهب موضوعاً بجانب الحجر. بجانب الحذاء، الكتف (المقصود هنا قد يكون إشارة إلى جزء من شيء موجود في المكان (مثل قطعة أثاث أو

زخرفة).، والمِرآة الذهبية، أشار بإيماءة إلى القهوجي وسأله: "هل يمكن استخدام التشت هنا؟" فهز القهوجي رأسه بتردد ثم رفع صوته فجأة قائلاً: "هيا، أضِف الحيلة"!

سقط التشت فجأة على الأرض بقوة. ومع الضغط، تدفق السائل الأحمر من الأنبوب. وضع الرسام الأنبوب على اللوح الخشبي وبدأ يمزج الألوان باستخدام فرشاته.

قال لشكوئي: "لماذا تخلط كل هذه الألوان معاً؟"

أجاب الرسام: "كل شخص فضول، يسأل الأسئلة، كما قلت".

قال لشكوئي: "لكنني جاد، لماذا تخلط كل هذه الألوان؟"

أجاب الرسام: "اللون يجب أن يُصنع بالطريقة الصحيحة. لا يمكن أن يكون جاهزاً كما هو. كل لون يتكون من مزيج من عدة ألوان، وهذا ما تحتاجه لرسم الشكل الذي تريده."

سقط التشت (الوعاء) بقوة على رأس الضابط، مما أدى إلى طيران مسدسه من يده، بينما أفلت التشت (الوعاء) من يد كبير القرية نفسه. فقد الضابط وعيه وسقط مترنحًا على الأرض. انطلق القهوجي بسرعة ليلتقط المسدس الذي انزلق على الرمال الذهبية، لكن التشت المتدحرج اعترض طريقه، مما اضطره إلى توقيف قدمه فجأة. كاد أن يسقط، لكنه استعاد توازنه في اللحظة

الأخيرة، ومع ذلك أبطأ ذلك حركته. وعندما استعاد توازنه، كان الوقت قد فات؛ فقد التقط كبير القرية المسدس قبله.

كان كبير القرية لا يزال يفكر في مسألة الفحم المهرب، فتمتم قائلاً: "لقد أصبحت مصدر إزعاج لنا!" ثم ركل الأرض بغضب. القهوجي، الذي بدا غاضبًا ومحبَطًا من فشله في الإمساك بالمسدس، مد يده نحو كبير القرية وقال بإصرار: "أعطني إياه! سأُنهي الأمر بنفسي"!

بدأ الضابط يستعيد وعيه، وهو يتأوه قائلاً: "آه"...

أبعد كبير القرية يده عن القهوجي، خشية أن ينتزع منه المسدس، ونظر إليه بغضب وقال بحدة: "كنت تقول إنك تريد فتح مقهى في القرية، فكيف وصلت إلى هذا الحال؟"

الضابط، الذي أدرك من صوت كبير القرية من ضربه، تأوه قائلاً: "أنت الذي ضربتني!" ورغم ألمه، حاول الاعتماد على القبر ليتمكن من النهوض.

عاد القهوجي بإصرار ليقول: "إنه يشكل خطرًا علينا نحن الاثنين! خلّصنا منه"!

نظر كبير القرية إلى القهوجي بشك أو عدم يقين وهز رأسه قائلاً: "لم تنسجموا معًا رغم شراكتكم".

كان الضابط لا يزال مذهولاً من الألم، غير مدرك أن الدم بدأ ينزف من بين خصلات شعره وصولاً إلى جبينه. ومع ذلك، كان غارقًا في تفكيره الخاص وقال: "تخيّل، لم يخطر ببالي أبدًا أن كبير القرية يمكن أن يكون شريكًا للصوص"!

ظن القهوجي أن هذا الإهانة فتحت المجال أكثر للهروب، فصرخ بنفاد صبر وإصرار موجهاً حديثه إلى كبير القرية: "أقول لك، خلّص عليه"!

كان كبير القرية ما زال يفكر في اتهام الضابط، فعبس وجهه وتحدث بحدة وبصوت غاضب، بينما انتفخت عروق عنقه: "لسنة كاملة، يدك بيد بعضكم البعض، والآن بعد أن تخاصمتما، تأتي وتسبني، يا عديم الشرف؟!" وبالكلمة الأخيرة، ركل الضابط بجسده المُنهك، مما جعله يسقط رأسه على حافة حجر القبر الأبيض. احمر الحجر من الدم.

لوّح كبير القرية بالمسدس مهدداً وهو يصرخ: "لسنة كاملة وأنت تتجسس علي"!

عاد القهوجي بإلحاح قائلاً: "خلّص عليه!" كان الغضب واليأس يملآن قلبه، لدرجة أنه كان يأمل بشدة أن يستعيد الضابط وعيه وينتقم من كبير القرية، بأي طريقة كانت. بالنسبة له، كان ذلك أفضل من أن يكون كبير القرية هو من يُطلق الرصاصة، لأن الضابط المصاب سيكون من السهل التخلص منه لاحقاً. وبصوت أعلى صرخ: "أقول لك، خلّص عليه"!

نظـر كبـير القرية إلى القهوجـي بـازدراء وكرهه يمـلأ عينيه، ثم هـز رأسـه وقـال: "تريد منـي أن أخلصك منـه؟ تريد أن تسـتغلني للتخلص من مشـكلتك؟"

واصـل القهوجـي تقدمـه رغـم أن كبير القريـة لوّح بالمسـدس ليوقفـه. قـال القهوجي بنبرة محاولـة للتقرب: "المهـم أن نعمل معاً نحـن الاثنين".

كان الضابـط يحـاول النهـوض، مسـتنداً عـلى مرفقـه وملامسـاً جبينـه بيده، يشـعر بحرارة الدماء وهي تسـيل. ضعفـه ازداد، لكنه تـأوه قائـلاً: "أنا لم أفعل لك شـيئاً. كنت آتي خلف هذا..."وأشـار بأصبعه نحـو القهوجي.

لكـن القهوجـي لم يهـدأ وقال مجـدداً بـإصرار: "أطلـق النار، لا تخـف! طالمـا أنه جـاء هنـا ورأى مـا رأى، لا يمكننـا تركه".

بـدأ كبير القرية يلتفت حوله بنظرات فاحصة وسـأل القهوجي: "مـا هـذا المكان؟"وهـو يشـير بالمسـدس نحـو التماثيـل المنتشرة.

أجـاب القهوجـي بغضـب وكأنـه يحتـج عـلى توقيت السـؤال: "كيـف لي أن أعـرف؟! أنـا هنـا منـذ نصـف سـاعة فقط".

غضـب كبـير القريـة وقال بصـوت غاضـب: "نصف سـاعة؟ لقـد كنـت تـأتي إلى هنـا منـذ عام!"لكنه حـين تحـدث إلى الضابط، خفـف لهجتـه وسـأله: "إذن، لم تكـن تتبعني؟"

رد الضابط بلهجة يائسة: "أقسم بشرفي، أبداً! لماذا أفعل ذلك؟ هل أنا فضولي؟"

رأى القهوجي تغير النبرة بينهما، فشعر بالخوف من الموقف وتداعياته. قال متوتراً: "إنه يكذب، هذا الرجل فضولي بطبعه. لو لم يكن كذلك، لماذا جاء هنا؟!" ثم نظر إلى الضابط بعينين غاضبتين، وأشار إليه بإصبعه المرتجف وقال: "لا تقلق، سأدفنك بنفسي!" ثم استدار وسار باتجاه عمق المغارة.

كبير القرية صاح: "إلى أين تذهب؟"

الضابط صرخ: "احذروا منه"!

ثم عاد كبير القرية ليأمر بصوت مرتفع: "ارجع! أقول لك ارجع فورًا"!

ولكن عندما شعر بالعجز، قال بصوت يأس: "فمي جف تمامًا، جفافًا تامًا".

كان القهوجي قد ركض حتى وصل إلى القبر الأخير، حيث رأى خنجرًا بمقبض ذهبي أثناء الرقص والتصفيق قبل لحظات من وصول الضابط. أمسك بالخنجر وأخفاه داخل قميصه وعاد. ارتاح كبير القرية لعودة القهوجي.

التقط القهوجي أنفاسه وأصرّ قائلاً: "إن كنت تخاف، أعطني إياه، أنا سأتصرف".

مـدّ يـده منتظـرًا أن يعطيـه كبـير القريـة السـلاح، وأضـاف: "اجلـس واشـعل سـيجارة".

لكن الضابط مد يده بحزم قائلاً: "لا تعطه إياه"!

ردّ كبير القرية: "أعطني السيجارة، أريد سيجارة".

فقال القهوجي، رغم أنه هو من اقترح الفكرة: "ليس لدي سجائر".

وبنـبرة تأنيـب، قال كبـير القرية: "ليـس لديك سـجائر، ولكن لديـك فأسـا تسـتخدمة للحفـر وراديـو، وأنـت هنـا منـذ نصـف سـاعة، أليـس كذلك؟"

عندما سـقط كبـير القريـة في البئر داخـل الكهـف، كان الراديو لا يـزال يعمـل. ولكـن عندمـا اصطـدم الوعـاء المعدني (التشـت) بالبئـر، أولاً أصـاب الوعاء أعمـىً كان يقف بجانبهـم، ثم تدحرج نحـو القهوجـي والتـف حـول قدمـه، وأخـيرًا وقـع فـوق القـبر وأسـقط الراديـو وأوقـف صوته.

كان الراديـو الآن مطفـأً، ملقـىً عـلى الـتراب أمـام الضابـط. مـد الضابـط يـده إلى جيب سـترته وأخـرج علبـة سـجائر، نفضها حتـى خرجت سـيجارة نصفهـا ظاهر. مدّ السـيجارة لكبـير القرية قائـلاً: "تفضل".

وحينـما مـدّ كبـير القرية يـده ليأخـذ السـيجارة، قفـز القهوجي مـن الجهـة الأخـرى، ومدّ يـده ليمنعه قائـلاً: "لا تقـترب منه! ربما يفاجئـك بضربـة كاراتيه".

كبير القرية تراجع مذهولًا إلى الخلف، بينما أطلق الضابط ابتسامة ساخرة.

سأل كبير القرية: "ما الكاراتيه؟"

أخرج الضابط سيجارة من علبته، وضعها بين شفتيه، أشعل عود كبريت وأوقده بينما كان يستمع إلى القهوجي يقول: "ما أدري! شيء زي استعراض... ياباني".

سأل كبير القرية: "هل هو شيء ترانزستوري؟" (في النص، كبير القرية يسأل إذا ما كان "الكاراتيه" شيئًا تقنيًا أو مرتبطًا بالراديو، مما يعكس جهله بالمفهوم الحقيقي للكاراتيه ويظهر سياقًا فكاهيًا وسخرية ضمن الحوار.)

ضاق القهوجي ذرعًا بجهله وقال متأففًا: "استغفر الله! إنه نوع من المصارعة... مصارعة يابانية"!

رد كبير القرية: "لا تتفوه بالهراء. أي مصارعة في هذا الوقت؟"

عندما أشعل الضابط السيجارة، رمى بها نحو كبير القرية معتذرًا: "آسف جدًا".

التقط كبير القرية السيجارة في الهواء، شكره قائلاً: "تسلم يدك".

أجاب الضابط بأدب: "لا شكر على واجب".

القهوجي، الذي شعر بالخطر من هذا الأدب الزائد، قال بغضب: "أيها الكذاب الماكر"!

أشار كبير القرية بمسدسه نحو القهوجي ليجلس، ثم قال: "أخبرني، أين نحن الآن؟"

جلس الثلاثة حول القبر على الأرض. الضابط كان متكئًا على ذراعه، كبير القرية جلس متربعًا، والقهوجي جلس القرفصاء مرتبكًا.

القهوجي لم يكن يعلم ما الذي يجب عليه فعله الآن. كبير القرية أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة، بينما الضابط كان يئن من الألم والدم ينزف من ذقنه.

راقب القهوجي كبير القرية بتركيز محاولًا فهم خطته دون جدوى، فقال: "لا أدري".

رد كبير القرية: "أنت لا تدري، لكنك هنا، أليس كذلك؟"

قال القهوجي: "وأنت أيضًا هنا، هل تدري أنت؟"

قال كبير القرية للضابط: "أنت ما تعرف؟"

أجاب الضابط: "أنا جئت لأبحث عن هذا".

قال كبير القرية: "أنا جئت لأبحث عنك، وأنت جئت تبحث عن هذا."ثم استدار إلى القهوجي وقال: "وأنت، كنت تبحث عن من؟"

حـاول القهوجـي الهروب مـن الإجابـة وقال بشـك: "عل من الممكـن تم وضـع مادة مخـدرة في هذه السـيجارة؟"

كبـير القرية، وكأن السـيجارة في يـده عقرب سـام، رماها بعيدًا وهـو يصرخ: "لا تضحكـوا عليّ، أيهـا الأوغاد"!

القهوجـي، وكأنـه طفـل في الشـارع يقـول لصديقـه "تعـال نلعـب"، قـال: "لنخـوض التحـدي".

كبـير القريـة، ما زال مرتبكًا مـن الغضب الـذي كان يكاد يختنق بـه، رد قائـلاً: "اصمـت! أنـت أيضًـا! دائـماً تقـول انهـي الأمـر، تحـدى، تحـدى. هل أنـا عزرائيـل أو جـزار؟ هـل أنا ناقـل جثث؟ أو مغسـل موتـى؟ أو حافـر قبـور؟ أنا كبـير القريـة، فهمت؟"!

قـال القهوجـي: "مـا الفـرق؟ في النهايـة، مـن سـيقوم بالأمر؟ عندمـا يمـوت الشـخص، من سـيتولى المسـؤولية؟"

نظـر القهوجـي إلى سـقف الكهـف، ورأى أنه على حـق، فقال: "مـا الفـرق؟ حتى لـو كانت الأرض، يجـب علينـا أن ندفنها. المهم هـو الحفرة. أنت دائمًا جالس هنا، قم لنذهب في جولة، وسـتفهم".

دفـع الضابـط بـكل قوتـه يـده للأمـام ليمنـع كبـير القريـة مـن الوقـوف وقـال: "لا تذهـب! أنـت لا تعـرف إلى أين سـيأخذك".

قـال القهوجي، محاولًا إخفـاء حقده بابتسـامة زائفة وهو يحاول التلاعـب: "هـل الكبـير طفـل؟ هـل هو أحمـق؟ هل سـتضربونه؟

هـو يذهـب بمفـرده، هـو يعلم أيـن هو. هـذا كبـير القرية، سـواء عـلى الأرض أو تحتهـا. لا شيء يوقفه!"

كان الضابـط يـدرك أنـه لا خيـار أمامـه سـوى الـرد عـلى كلام القهوجـي المنافـق بكلـمات صادقـة وعظيمـة، فقـال: "يـا لـو أن سـاطورًا يقطـع تلـك الألسـن! يـا كبـير القريـة، لا تـدع نفسـك تنخـدع بـه. كل هذا مجرد آثـار قديمة، إرث من أجـدادك. لقد جاء مـن هناك لينصـب كمينًا ويأخذهـا معه. لا تدعـه يأخذها. لا تكن شريـكًا لـه أو، مـا هـو أسـوأ... تابعًا لـه. مهمتك هـي الحفاظ على إرث أجـدادك، أن تحميـه وتفخـر به، وتسـلمه للأجيـال القادمة".

عـلى الرغـم مـن فقدانـه للدمـاء، ألقى الضابـط كلماته بحماسـة وإيـمان، وكأنهـا خطبـة مؤثـرة، لكنهـا اسـتنفدت كل مـا تبقـى من قوتـه. اشـتعل داخلـه شـوق للحفـاظ على الـتراث وحماسـه لأداء الواجـب الأخلاقـي، لكنـه سرعـان مـا خـارت قـواه. انحنـى جسـده، شـحب وجهـه، واختنـق نفسـه بالسـعال.

أمـا القهوجـي، فقـد كان أنفه يشـتعل مـن الغضب والدهشـة، إذ رأى في كلام الضابـط مجـرد هـراء وعبـث. فقـال: "مـا هـذا الـكلام الفارغ! تقـول: احفظها وسـلّمها! هل كبـير القرية يمتلك مسـتودعًا ليضـع فيهـا هـذه الأشـياء؟ أيهـا الرجـل، كل هـذا مجرد أعـذار لتـسرق لقمـة عيشـنا مـن أفواهنا"!

ثـم اسـتدار إلى كبـير القرية وقال: "إذا تركته وشـأنه، سـيتحول إلى خائـن! سـيذهب مـن هنـا ليجمـع مجموعـة مـن الأشرار والمتسـلطين، ويبيـع لهـم كل شيء، ويأخـذ منهـم رشـوة لنفسـه. ونحـن؟ سـنقف هنـا ونتفـرج بحسـرة"!

توقـف القهوجـي للحظـة، منتظـرًا أن تؤثـر كلماتـه في كبـير القريـة، وبـدا أنـه قد نجح. ثـم أكمـل، بصوت غاضب وحاسـم: "أجدادنـا؟ أجدادنا! هل أنـت حقًا مغرم بأجدادك؟ إذن سأرسـل لـك الفرصة لتلتقـي بهم"!

قفـز القهوجـي فجـأة مـن فـوق القـبر باتجـاه الضابـط، لكنه لم يتمكـن مـن اسـتخدام الخنجـر الـذي كان مخبـأً في ملابسـه، إذ أن كبـير القريـة أوقفـه بتهديد مسدسـه. ورغم ذلك، تمكـن القهوجي مـن إسـقاط الضابـط أرضًا. ثـم اقترب مـن كبير القريـة بخطوات مـترددة، وقـال متوسـلاً: "أنـا في خدمتـك! لا تضيّـع الوقـت! قد يظهـر أحد آخـر ويأخـذ كل شيء"!

ثـم اقـترب برأسـه مـن أذن كبـير القريـة، وبـدأ يهمـس لـه عن وجـود كنز وكتلة من الذهـب في عمق الكهف. ورغـم أن الضابط حـاول التركيز لسـماع مـا يقولـه، إلا أن آلامـه منعته مـن الفهم.

لمعـت عينـا كبـير القريـة مـن الطمـع. حتـى لـو كانـت تلـك الكلـمات كذبًـا، فإنها تسـتحق التجربـة. وفي النهاية، كان المسـدس في يـده. فنهـض بصعوبـة، معتمـدًا عـلى رأس القهوجـي الأصلع،

وقـال: "راقبـوا بعضكـم حتـى أعود."

قال لشكوئي ليكسر جمود الحديث: "لماذا لم يشنقوه؟"

كان الرسـام شـاردًا في أفكار أخرى، ووجد المزاح سـخيفًا، فردّ بجفاف: "في المرة القادمة." ثم فكر قليلاً، وأعاد السيجارة إلى شفتيه وسـحب منها نفسًـا عميقًا، ثم ابتعد عن اللوحة لينظـر إليها جيدًا.

وأخـيرًا قرر أن يـروي القصـة بالكامل، فقال: "ذهبـت لزيارته في المستشـفى. هل تعلم مـن كان هناك؟"

ضحـك لشـكوئي وقـال: "أغصـان الأشـجار... روح الطبيعة الخضراء". بهذا أشـار إلى شـخصية صديق قديم اسـمه أبو الفضل، الـذي كان عاشـقًا للطبيعـة، يـرى العالم دائـمًا من خلال الأشـجار والأزهـار، ويغطـي كل عيـب أو ألم أو قبـح خلـف سـتار مـن الأوراق الخـضراء.

قال الرسام: "كان الطبيب ذو الخط الجميل".

استغرب لشكوئي وسأل: "أي خط جميل؟"

"الطبيب الذي درس في فرنسا".

"هـل عـاد؟ لكنـه كان يقـول إنـه لـن يعـود أبـدًا. كان يقـول: علينـا أن نحـارب".

قال الرسام: "لا أعلم. كل ما أعرفه أنه كان يحكي عن امرأة حامل سقطت وكُسرت عظام حوضها، فأحضروها إليه".

وأضاف: "قال إنه لو أجرى العملية، قد يسبب مضاعفات خطيرة أثناء الولادة. ولو لم يفعل، فما العمل؟"

سأله لشكوئي: "وماذا فعل في النهاية؟ أسلوب جديد بالطبع، أليس كذلك؟"

"ليس أسلوبًا جديدًا جدًا. أرسلها إلى مستشفى آخر لتكون تحت رعاية طبيب آخر."وسكت.

غرق لشكوئي في التفكير وعقد حاجبيه بعمق، فخيم الصمت."ثم قال: "عجيب كيف يتغير الناس"!

كان الرسام يضع الألوان بحذر، وعندما انتهى، نظر إلى اللوحة وقال: "لم يتغير. لا يزال يقرأ الصحف اليسارية الأجنبية والمقالات الواعية".

كان القهوجي يراقب بحذر، وما إن رأى كبير القرية يبتعد إلى المغارة البعيدة حتى استدار ببطء، وبخطوات ثقيلة اقترب من الضابط فجأة وانقضّ عليه، أمسك عنقه بقوة وألقاه أرضًا على صدره وبطنه، ثم قفز فوق ظهره. همس في أذنه قائلاً: "كيف ستخرج من هنا؟"وتركه للحظات ليخيفه بصمته. ثم أردف قائلاً: "كم رصاصة كانت في مسدسك عندما أتيت؟"

كان الضابط يتلوى من الألم تحت ثقل جسد القهوجي وقال: "لا تسقط عليّ! أنا مصاب. أنت ثقيل جدًا".

ضربه القهوجي على مؤخرة رأسه كإشارة لخفض صوته، ثم همس مجددًا في أذنه: "أنا راقبت كل الطلقات التي أطلقتها. فقط قل لي، كم رصاصة كانت في مسدسك عندما أتيت؟"

رد الضابط معترضًا: "لماذا تفك حزامي؟"

قال القهوجي بصوت خافت: "اخفض صوتك"!

صاح الضابط: "آه! أنا مصاب".

كان القهوجي يفتش عن الطلقات وهو يمرر يده على الحزام ليجد مخبأها، وقال: "إما أن مسدسك قد نفدت ذخيرته، أو بقيت فيه رصاصة واحدة. عندما كنت أطلب منك أن تُفرغه، كنت أريد التأكد من أنه خالٍ. إذا كان خاليًا، فستكون نهايتك محتومة".

كان الضابط يتأوه تحت ثقله وقال بغضب: "هل تريد أن تجعلني شريكًا في سرقاتك، أيها الوغد؟"

كان القهوجي يتحدث وكأنه خبير في كشف الحقائق التاريخية عن الناس، فقال: "هذا الرجل عاش عمره يأكل من خيرات القرية، ولم يكن يدري ما الذي كان تحت قدميه. شخص فارغ مثل هذا لا ينبغي أن يكون مسدس في يده".

تحـرك الضابـط المتـألم محـاولاً تخفيـف ضغـط القهوجـي وقال: "أنـا أتـألم، لا تضغـط عليّ"!

لكـن القهوجـي، الـذي لم يكـن يهتـم بـألم مـن تحتـه، رد ببرود: "هنـا أنـا الـذي يتحتـم عليـه أن يأخـذ زمـام الأمـور! عليـك أن تكـون معي"!

كان يضغـط بحـدة، ليـس فقـط بجسـده عـلى ظهـر الضابـط، ولكـن أيضـاً بلهجتـه المتسـلطة.

قـال الضابـط بصـوت مختنق: "مـا هذا التطـور الـذي تتحدث عنـه؟ تريـد أن تلصـق بي وصمـة عار؟"

عـاد القهوجـي وضرب الضابط على مؤخرة رأسـه بقوة جعلت وجهـه يصطـدم بالحـصى، وقـال: "لا تفتح فمـك! الآن سـيأتي"!

لكـن الضابـط، رغـم إصابتـه الشـديدة والنزيـف الـذي لا يتوقـف، كان يحـاول المقاومـة والتحـرك ليوقـع القهوجـي عنـه. إلا أن القهوجـي كان راسـخاً (متمسـكافي مكانـه، وبـدلاً مـن أن يتراجـع، أمسـك بفـم الضابـط وأطبـق عليه بـكل قوتـه ليمنع أي صـوت مـن الخـروج.

وفي الوقـت نفسـه، أدخـل يـده في قميصـه وأخـرج خنجـراً منحنيـاً ذو مقبـض ذهبـي، دون أن يـترك مجـالاً للضابـط للصرخ. ضغـط الخنجـر بقـوة عـلى جنـب الضابـط وغـرزه فيـه دون تردد.

في تلك اللحظة، انبعث صراخ كبير القرية من أعماق المغارة. كان قد رأى بريق الذهب أمام عينيه، لكنه شعر بالخوف الشديد، فبدأ بالصراخ والهرب بعيداً.

الرجل كان يضحك بصوت عالٍ. من شدة أنه كان يرى على اللوحة صورة للمنزل الجديد المبني حديثًا، والجبال والسهول التي تظهر بكاملها، وهيكل وملابس العروس الجديدة، وحتى هو نفسه بدا بشكل جيد، لكن في الوجوه على الشاشة لم يكن هناك أي أثر للعيون أو الفم أو الحاجب أو الأنف. سأل الفنان قائلاً: "هل هذا أنا؟ أين عيوني؟ أين فمي؟"أجاب الفنان بتواضع: "بالتأكيد، سيدي، هذه هي صورتكم بكل تفاصيلها."لكن الرجل لم ينخدع بمجاملة الفنان ولم يخدع بزلة لسانه، ففكر في نفسه وقال: "ما هذا؟ هل جلبت هذا القلب هنا؟ الفنان ليس نادرًا، لكنه غبي جدًا. ماذا سيفعل بهذا الشكل العنيد؟"نظر الرجل مرة أخرى إلى اللوحة، ولم يرَ فيها شيئًا سوى الملابس، لكن الملابس كانت كافية لتحديد من هو. مع ذلك، كان الرجل مهتمًا برؤية عينيه وحاجبيه، فأشار إلى المكان الأبيض الفارغ بين معالم وجهه في اللوحة وقال: "أين ذهبت عيوني؟"أجاب الفنان بانخفاض رأسه قائلاً: "لم يأتوا بعد، سيأتون لاحقًا، ببطء."في البداية، لم يفهم الرجل جيدًا، فحدق في الفنان بعينيه الواسعتين. ثم أغمض جفنيه وقال:

"أنت تمزح؟" ظل الفنان محتفظًا بابتسامته الاصطناعية. الرجل وكأنه يشجع الفنان على الاستمرار في المزاح، قال من موقعه المرموق: "أيها المخادع!"، ولكن بعد تفكير بطيء، أدرك الأمر. انفجر قائلاً: "آه! فهمت الآن! تعني أولاً الجبال، ثم المباني، وبعدها الآخرين. ثم الله كريم!" أكمل الفنان ابتسامته المجمدة بحركة رأسه التي أظهرت إعجابه بفهم الرجل السريع. أشار الرجل بإصبعه إلى صورة العروس الجديدة غير المكتملة وقال: "هي لا تزال نائمة، ما زالت غافية." لم يشعر الفنان بأي نوع من الإثارة عند سماعه هذه الأخبار المباشرة عن الوضع في غرفة النوم، وأجاب مرة أخرى بتواضع قائلاً: "إنهم يستمتعون بوقتهم هناك".

كانت الدموع تملأ عيني كبير القرية، رغم أنها لم تنهمر. كان جالسًا متربعًا، ويده التي تمسك المسدس تلامس برفق شعر الضابط الملطخ بالدم. الضابط كان ممددًا في ظلام الكهف، شاحب الوجه يميل إلى الاصفرار والبياض، يئن من جراحه وفقدانه الدم. كبير القرية وضع رأسه على حجره، حزينًا، مدركًا أنه لا يستطيع فعل شيء، أو بالأدق لا ينبغي أن يفعل شيئًا.

ربما كان حزن كبير القرية، أو تأنيب الضمير، هو ما جعل علامات الإحباط والأسى تفيض على وجه صاحب المقهى. كانت قطرة عند طرف أنفه الكبير تزداد طولاً وكادت تسقط،

لكـن في ظـلام الكهف لم يكن بالإمـكان تمييز ما إذا كانـت دمعة أم بسـبب الزكام. عـلى أي حال، مسـحها بكم قميصه وعـاد إلى حالة تعاطفـه الصامت.

بصـوت مرتجـف مـن شـدة الحـزن، سـأل كبـير القريـة: "هـل أنـت متأكـد أنـك سـتموت؟"

رد الجريـح بصـوت متقطـع: "المـوت في سـبيل الواجـب ليس موتًـا... إنـه شرف... أن تُضحـى... لأجل المـاضي... الحمد لله... طُعنـت في جنبـي... بخنجـر... أثـري... مقبضـه مـن ذهـب... ذكـرى... أيـام... مضت".

كان يتحـدث كلمـة كلمـة، ليس لأنـه كان يفكـر أو يبحث عن كلـمات، أو لأنـه أراد التأكيـد، بـل لأن ألمـه ونزفـه جعـلا أنفاسـه تضعـف. ومـع ذلـك، كان مصممًـا عـلى إيصـال كلماتـه كاملـة وصحيحـة، فلـم يجـد بـدًا مـن نطقهـا كلمـة كلمة.

عندمـا صمـت الضابـط، ظـل كبير القريـة صامتًـا احترامًـا له، ظنًـا منـه أن الجملـة لم تكتمل وأن كلـمات أخرى سـتأتي. لقد اعتاد الانتظـار بسـبب البـطء في كلام الضابـط وتلفظه. ولكـن مع مرور الوقـت دون أن يـأتي أي كلام جديـد، ووسـط صمـت لم يُسـمع فيـه سـوى أنفـاس الضابـط الثقيلـة والصعبـة، توجـه ذهـن كبـير القريـة إلى القهوجـي، فقال لـه بنبرة فيهـا لوم: "قتـل الأخ بخنجر الأجداد؟" ثـم قـال بحـزم: "أعطنـي إياه".

لكـن القهوجـي لم يعطـه الخنجر، ويد كبـير القرية التـي امتدت لتأخـذ الخنجـر عـادت لتنضم إلى يـده الأخرى لتواصـل الملاطفة. قـال القهوجـي: "لا تقلـق، أعـدك... سـيتم تنظيـف المـكان... سيُمسـح... وسـيلمع."ثم حـرّك يـده بحركـة وكأنـه يلمـع حذاء ليؤكـد كلامه.

القهوجـي، الـذي كان يتطلـع تاريخيًا إلى المسـتقبل أكثر من كبير القريـة، اسـتلهم مـن كلمـة "يلمع"وقـال: "سـنُدخل الكهربـاء. سـنركب مصعـدًا (آسانسـور) حتـى يتمكـن السـياح مـن النزول بسهولة للاسـتمتاع بالمشـاهدة".

الضابـط، بغضب ممزوج بالإرهاق، قال: "سـياح؟ حقًا؟ هؤلاء القتلـة؟ السـياح الذيـن لا يفعلون سـوى تدخين المـواد المخدرة؟"

رد كبـير القريـة محـاولًا تهدئـة الأمـور: "سـنضع لافتـة: ممنوع المواد المخـدرة".

الضابـط، ليظهـر اعتراضـه، قـال: "وأنـت ضربتنـي على رأسي بالطشـت أو الوعـاء!"

خفـض كبير القرية رأسـه خجـلًا وقـال: "كان سـوء فهم."ثم سـأل القهوجـي: "ألا يوجـد لدينا مكان مناسـب؟"

كان القهوجـي بهـدوء يسـحب علبة سـجائر من جيـب قميص الضابـط، وأثنـاء ذلك قال: "الطشـت (الوعـاء) كان من الذهب،

وكان أثريًا".

الضابط، في لحظة تجلٍّ واستحضار لمآسي الماضي والأساطير المرتبطة به، رأى نفسه في موقف شبيه بمصير الأبطال الأسطوريين، وخاصة سياوش. سياوش هو شخصية من الشاهنامه، رمز للنقاء والتضحية. في القصة، تعرض للظلم والخيانة، ورغم براءته واجه مصيرًا مأساويًا انتهى بقتله وسفك دمه، الذي تقول الأسطورة إنه ظل يغلي كرمز للعدالة الغائبة.

الضابط قال: "حتى سياوش، سقط رأسه في طشت من الذهب. ولكن دم سياوش لا يزال يغلي." هنا، يشبّه الضابط نفسه بسياوش، موضحًا أن التضحية ليست جديدة، وأن الأبطال دائمًا ما يُضحّى بهم. ثم أضاف: "قرون طويلة ونحن نُضحى. كان دائمًا هناك جيل مثلنا، وسيأتي يوم وينتهي." في هذا المقطع، يعبر الضابط عن الشعور بالانتماء إلى سلسلة أجيال من الفدائيين الذين يقدمون حياتهم في سبيل القيم العليا. لكنه يدرك أن هذه السلسلة، رغم عظمتها، مصيرها الانتهاء يومًا ما.

ومع هذا الشعور بالفخر ببطولة الأجيال الفدائية، يخالطه شعور بالمرارة والعار، بسبب وجوده بجانب من يصفهم بـ"الأوغاد" أو "الخونة"، وهم الأشخاص الأنانيون الذين لا يفنون أبدًا. قال بأسى: "ولكن المؤسف... أن نسل الأوغاد... أمثالكم... لا ينتهي." هنا، يوجه الضابط نقدًا مباشرًا لكبير

القرية والقهوجي، معتبرًا أن الأبطال يضحون، بينما الأشرار يستمرون في العيش بلا نهاية.

ما إن أفصح عن هذه الحقيقة الحزينة عن قدره حتى استرخى عنقه، وأصابه الضعف الأخير. قال كلماته الأخيرة وأسلم الروح. ومعها، أُسدل الستار.

كان الرسام منشغلاً أمام لوحته، بينما يقف الرجل خلف الرسم في وضعية صارمة، رافعًا رأسه، يده مشدودة وقدمَيه متباعدتين. بدا وكأنه يحاول إظهار القوة والثقة، مع انحناءة خفيفة لحاجبه وذراع ممدودة وكأنها تستند على شيء مرتفع. تضخمت عضلات ذراعه وجانبه لدرجة أن يده بدت بعيدة عن جسده، لكن الرسام كان يرى شيئًا مختلفًا فيه، شيئًا أعمق وأبعد من مجرد مظهره الخارجي. ولأن الرسام رأى هذا الشيء المختلف، كان يحاول أن يعكسه في لوحته.

الرجل، رغم تعبه، بقي جامدًا في مكانه دون أن يتحرك، خائفًا أن يُفسد اللوحة أو يُتهم بأنه قروي بسيط غير مدرك لأهمية العمل. كان الرسام يعلم ذلك ويماطل عمدًا ليُبقيه ثابتًا أطول فترة ممكنة. التعب الذي كان يشعر به الرجل، من تصلب عضلاته وآلام الوقوف، كان أشبه بتضحية يقدمها دون أن يدرك، أو ربما كان الرسام يجبره على تقديمها بطريقة غير مباشرة.

بينما الرسام غارق في عمله، والرجل يتصاعد ألمه، سُمع فجأة صوت انفجار من الخارج، هذه المرة اهتزت الغرفة قليلاً. ارتعش الرجل للحظة بسبب الصوت والاهتزاز، لكنه عاد ليتمالك نفسه خوفًا من أن يتحرك ويُفسد الرسم.

وبصوت مفعم بالغرور ومحاولة للظهور بمظهر القائد، قال الرجل: "سمعت، يا سيد زينل بور؟ الطريق سيكتمل قريبًا. عليك أن تُسرع ببناء ذلك المبنى الكبير الذي قلت إنك ستشيّده".

رد لشكوئي قائلاً: "لقد انتهينا من إزالة التربة. التل أصبح مستويًا الآن".

فسأله الرجل بنبرة متعالية: "هل انتهيتم تمامًا؟"

أجاب لشكوئي: "إلا العمود الذي يشير إلى كمية التربة التي أزلناها".

ثم سأل الرجل: "الأخشاب الناتجة عن الأشجار التي قطعناها، هل أُعطيت كلها لكبير القرية؟"

رد لشكوئي بابتسامة خفيفة: "أحرقناها في زفافك".

الرجل سأل: "كانوا هنا، أليس كذلك؟" ثم توجه إلى الرسام وقال: "يؤسفني أنك لم تتمكن من الحضور في الوقت المناسب. لقد استمتعنا كثيرًا. كنت ستُسعد بوجودك معنا. كان المكان غابة".

ثم استدرك قائلاً: "لم تكن حفلة عادية، بل أشجار تفاح".

الرسام سأل وكأنه يعلم الجواب: "تلك الأشجار التي قطعتموها؟"

رد الرجل قائلاً: "نعم، تلك الأشجار التي قطعناها".

الرسام تابع مؤكدا: "أشجار التفاح؟"

الرجل أجاب: "نعم، أشجار التفاح".

ثم قال الرسام بلهجة ملؤها التساؤل: "ألم يكن من المؤسف أن تُقطع أشجار كانت تُثمر؟"

الرجل، متفاجئًا من هذا التعليق، قال بدهشة: "نحن نأكل الكومبوت!" ثم شعر بأنه بحاجة إلى تبرير إضافي فقال: "سنبني مكانها كازينو." ثم التفت إلى لشكوئي وكأنه يريد تأكيد كلامه: "كازينو، أليس كذلك؟"

لكن لشكوئي كان في جهة أخرى من المكان. فاضطر الرجل إلى الالتفات مجددًا، ولما رأى لشكوئي يبتسم، تأكد من تأييده. وأضاف الرجل قائلاً: "الناس بحاجة إلى الترفيه. سنجعل المكان مزدهرًا".

ثم وكأنه يريد إثارة إعجاب الرسام، سأله: "هل عقلك ممتلئ بالأفكار مثل عقل السيد زينل بور؟"

الرسام، بمحاولة تصنّع التواضع والاحترام، انحنى قليلاً وقال: "ليس بذلك الامتلاء." لكنه كان يلقي تعليقًا لاذعًا يخفي بداخله نوعًا من الانتقاد.

الرجل، وكأنه لم يفهم الإهانة، قال: "لقد وضع خطة رائعة! كم هو عبقري!" ثم التفت مرة أخرى إلى لشكوئي وسأله: "هل أخبرته عن خطتنا العظيمة؟"

لكن الرسام، بينما يواصل الرسم، أجاب بهدوء وبأسلوب مباشر: "لا، لكنني سمعت عن انتقاد لوجود ملهى ليلي." قال ذلك بسهولة، مع نبرة تحمل في طياتها كل النقد الذي يراه في هذه الفكرة.

عند سماع ذلك، اتسعت عينا الرجل وبدا عليه الفرح. تحرر من وقفته الصلبة التي كان يحافظ عليها منذ البداية، استدار وقال بحماس: "ملهى ليلي؟ بالطبع، يجب أن يكون هذا المكان أفضل من أي ملهى!" ثم فرك يديه بحماس وصفّق بشدة على كتفي لشكوئي، مما جعل الأخير يهتز من الضربات.

تابع الرجل قائلاً بسعادة غامرة: "سيكون هذا المكان الأفضل، وستبني لي هذا الكازينو، وتُجهز الملهى للسيدة!" ثم انفجر في نوبة من الضحك العالي، بينما اللوحة التي كان الرسام يعمل عليها بقيت معلقة، تنتظر استكمالها.

من فوق الجثة، انطلق القهوجي في ضحكة عالية. كان يحمل الخنجر الذي ما زال مبتلاً بالدماء. مسح عرق وجهه بكمّ قميصه، وهو يضحك. قال بضحكة: "كان لابد من ذلك، صحيح؟ لم يكن هناك خيار. رأيت أن مسدسك فارغ، ولا توجد به طلقات. قلت في نفسي ربما يسبب مشكلة. كان سيفعل ذلك بالتأكيد. أردت أن آخذ طلقات الرصاص منه، لكنه لم يرد إعطائي. فكرت أنه إذا لم تساعدني وأعطيت هذا الرجل فرصة، قد ينهض مجددًا، يستعيد قوته، ويضعنا في ورطة. لهذا تصرفت".

كبير القرية، الذي كان يحمل المسدس بيده، لفّ شاربه بيده الأخرى، وهو يضحك أيضًا. ومع ضحكته ولَفّ شاربه، اتكأ على يده التي تحمل المسدس ونهض من مكانه، وقال: "كان يمكن التفاهم معه. مع أمثال هؤلاء يجب التفاهم".

القهوجي، وهو يحرك يده والخنجر معها أثناء الكلام، ضم شفتيه وتوجه بنظره إلى المسدس. لكنه رأى أن الوقت ليس مناسبًا للحديث عن ذلك، فعاد إلى الكلام: "لكن بشرط أن يقولوا كلامًا تافهًا، دون اقتناع، عن قصد. أما هذا؟ كان لديه قناعة. كان من الطراز القديم. لم يعد نافعًا. لم يكن هناك خيار".

ثم عاد ليتفحص المسدس بنظره، وبعدها قال مجددًا بضحكة، وفي وسط ضحكته: "حسنًا، ضع مسدسك جانبًا

وتعـال لنسـاعد بعضنـا في دفـن هذيـن الاثنـين".

وأشـار إلى الجثـة بيـده الخاليـة دون أن يرفـع نظـره عـن كبـير القريـة.

كبـير القريـة انفجر في ضحكـة قوية، ومـن دون أن يرفـع عينيه عـن القهوجـي، أشـار بالمسـدس إلى الضابـط وسـأل بابتسـامة سـاخرة: "اثنـين؟ لمـاذا اثنـين؟"

بينـما كان القهوجـي يضحـك بصـوت عـالٍ، مندمجًـا مـع ضحـكات كبـير القريـة، أشـار بيـده الأخـرى إلى عمـق الكهـف، حيـث تراكمـت أكـوام الذهـب، ثـم قـال مشـيرًا بعينيـه نحـو الجثـة: "مـع ذاك الآخر..."وتـرك جملتـه معلقـة للحظة. ثـم تقدّم بيـده، وحـرك أصابعهـا بحركـة خفيفة وذكيـة وأضـاف: "مع ذاك يصـيرون اثنـين".

قهقـه القهوجي بحـرارة، لكن كبـير القرية، الـذي كان ضحكه يطغـى عـلى أصـوات الانفجـارات البعيـدة داخـل الكهـف، وجّه فوهـة مسدسـه نحـو القهوجـي نفسـه وقال وهـو يضحـك: "مع هذا... يصـيرون واحد".

ثم ضغط على الزناد.

فجـأة، توقفـت القهقهـات، وجحظـت عينا القهوجـي، وتجمد في مكانـه للحظـات. بعدهـا، وببـطء شـديد، بـدأ جسـده يفقـد

توازنه. طويت ركبتيه ببطء، وكأنه فانوس ينطفئ تدريجيًا، حتى سقط على ركبتيه دون أن يحرك وجهه أو يغير اتجاه نظراته الثابتة.

تحركت أطرافه بهدوء، كما لو أن كل حركة كانت محسوبة. عيناه ظلتا شاخصتين وثابتتين، كعيني عقاب محنط، فيما بدا جسده وكأنه يئن تحت وطأة الزمن.

حينما سقط، انخفض رأسه بهدوء كأنه يرسم قوسًا باتجاه الأرض، حتى ارتطمت جمجمته الكبيرة بالأرضية الصخرية، مصدرة صوتًا حادًا. مع ذلك، بقيت الجثة ثابتة بلا حراك، فيما خرج الهواء المحبوس في صدره بصوت طويل كأنه صافرة.

في تلك اللحظة، ارتجت الأرض قليلاً، مما جعل فرشاة الرسام تنزلق على اللوحة، تاركة خطًا عريضًا غير متناسق على الدائرة البيضاء التي كانت تمثل وجه الرجل، ليضيف الخط مزيدًا من الفوضى إلى ملامحه غير المكتملة.

ركل كبير القرية جثة القهوجي بقوة وقال يا مغرور بلا سبب ! أنتم تلعبون بالخدع حتى تصدقوها أنتم أنفسكم! تظنون أنكم أذكى من الناس وأن الجميع حمقى".

ثم قلد كبير القرية بأسلوب ساخر نبرة القهوجي عندما كان حيًا، قائلاً: "ما في مسدسكم ولا طلقة! ما في مسدسكم ولا طلقة"!

ثم غير كبير القرية نبرته مجددًا وقال بسخرية لاذعة: " أقسم على أرواح أسلافك! في مسدسي لم يبقَ حتى فأس! نعم، انتهى كل شيء، لكنه اخترق أحشائك، أعمق مما تخيلت، بل تجاوز حتى أجدادك السبعة"!

حك تحت خصلات شعره بمقدمة مسدسه، واستطرد قائلاً: "أنتم تظنون أنكم أذكى لأنكم من المدينة، ونحن من الريف! يا كلاب"!

ثم ركل الجثة مرة أخرى، ولكن هذه المرة بخفة. تحركت الجثة قليلًا، ثم تدحرجت بسبب ثقلها حتى استلقت على ظهرها. تمددت أطرافها ببطء وكأنها مستلقية بسلام، لكن عيناه ظلتا مفتوحتين وجامدتين، بينما يداه اليمنى ما زالت تقبض على الخنجر بإحكام. بدأ الدم يتدفق من صدره، مشكّلًا مسارًا أحمر على الأرض.

هزّ كبير القرية رأسه ونظر إلى الجثة وقال: "في هذه البلاد، عشنا جيلًا بعد جيل مع الحمقى، ولم نرفع صوتنا أبدًا. تعلمنا أن نصبر ونبقى صامتين. منذ الأزل، ونحن نعرف معنى الصبر".

لم يكن يقول هذا الكلام كخطبة عزاء في جنازة، بل كان خوفه هو الذي يدفعه للحديث. صحيح أن الصبر والصمت كانا التصرف الصحيح في هذا الموقف، لكن الخوف كان حاضرًا بقوة. كان يتحدث بدافع الخوف، خوفه من الأرواح والأموات

المجهولين الذين كانوا في هذا المكان. فإلى جانب القبور القديمة والمظلمة، كان هناك على الأقل ثلاثة قتلى آخرون حديثون في هذا الكهف. ومسددسه لم يكن يحتوي على أي رصاصة، وحتى لو كان كذلك، لم يكن قادرًا على التصدي للأشباح أو الأرواح.

كان يتحدث ليقنع نفسه بالشجاعة، لإعطاء قلبه شجاعة وهمية. كان يتظاهر بالقوة، لكن داخله كان مليئًا بالرعب. تفكيره كان يتجه نحو الهروب من الكهف والاستيلاء على الثروة التي كانت مخبأة هناك. كان يتظاهر بالقوة وهو يرتعد داخليًا. كان يفكر في الهروب من الكهف وفي الإمساك بالثروة المدفونة هناك، مما دفعه للكلام بلا توقف. مرر سبطانة مسدسه بين خصلات شعره، مسح أنفه بإصبعه، ثم هز رأسه قائلاً: والآن نحن مع هذا الوغد الذي استولى على كل شيء هنا ولم يخبر أحدًا. علينا أن نتخلص منه هنا، أن ندفنه في هذا المكان".

ثم اتكأ على تمثال ذهبي ضخم لرجل ذو قرون يعزف على الناي. فجأة، اهتزت الأرض بشدة. وكأن الجدران والسقف ، لولا قبة الكهف، كانت ستنهار بالكامل.

كان الرسام يحاول تغطية لطخة أفسدت لوحته التي احدثها قلمه، لكن اللوحة اهتزت فجأة. وبينما حاول الإمساك بها، انزلق حاملها. الرجل، الذي كان يتظاهر بالثبات والتبختر، خرج من هيبته وأخذ يدير رأسه يمينًا ويسارًا بفزع. لشكوئي

قفـز مـن مكانـه، ممسـكًا عصاه وهـو ينظـر إلى سـقف الكهف.

ثـم حدثـت هـزة أخـرى أقـوى. هـذه المـرة، انقلـب الحامـل، وسـقطت اللوحـة، وانقلبـت الطاولـة التـي كانـت عليهـا علـب الألـوان، فتناثرت محتوياتها. الجميع - الرسـام والرجل ولشـكوئي - هرعـوا للهـرب. لقـد غـادروا في الوقـت المناسـب، لأن الغرفـة بأكملهـا بـدأت تتحـرك. لم تسـقط الجـدران، بـل الغرفـة نفسـها انزلقـت من فـوق القاعدة التي كانـت عليها. وكأنهـا كرة ضخمة. ولأن الغرفـة كانـت مسـتديرة ككـرة، بـدأت الغرفـة تتدحرج على منحـدر الجبل.

سـمع كبـير القرية صـوت اهتزاز عميـق، كأن الأرض والسـماء تحتـكان ببعضهـما، وحين تحرك، انهالـت الصخور مـن كل جانب. بفعـل الزلزال العنيف، تشـققت جـدران البئر وانفجـرت، وبدأت الصخـور الضخمـة التي كانت عالقة لآلاف السـنين في رسـوبات قديمـة بالتحـرر والتسـاقط. الصخور الصغـيرة، الحطـام، والغبار انهالـوا جميعًا، ومعهم ذلك الشـاب المسـكين، الباحث عن الشـهرة في عـالم الفـن، الذي اسـتيقظ مذعـورًا وركـض باتجاه فتحـة البئر. لكنـه تعثـر وسـقط داخلها، مـع كل شيء آخـر. اسـتمرت البئر في الانهيار حتـى امتـلأت تمامًا بالتراب والأعشـاب.

في هـذه الأثنـاء، ومـع تدحرج الغرفـة الكروية بفعـل الاهتزاز، سـقطت علـب الألـوان، وانسـكب إحداهـا عـلى اللوحـة. اللون

بـدأ يسـيل تدريجيًـا عـلى القـماش، أولًا كبقعـة صغيرة عـلى الخلفية الداكنـة، ثـم بـدأ يتمـدد ويتحرك نحـو الوجه غـير المكتمـل. كان هـذا اللـون، وربـما هـذه الفـوضى، هـي اكتـمال الوجـه الـذي لـن يُرسـم بعـد ذلـك أبدًا.

خـلال ذلك، كان الرجل والرسـام ولشـكوئي يهربون عبر الممر الـذي يربـط الغرفـة الكرويـة بـبرج القصر، بينـما اسـتمرت الغرفة في الـدوران بعشـوائية وكأنهـا كرة ضخمة تلتهم كل مـا في طريقها.

في سـاحة الـبرج، تجمعـت النسـاء في حالـة مـن الفـزع بسـبب الهـزات العنيفـة. كانـت العـروس الجديـدة ترتـدي مجـددًا فسـتان زفافهـا مـن أجـل اللوحـة، ووالـدة عـلي تتابـع عاداتهـا في الغزل، وزوجـة الصائـغ خرجت بثوب نومها وشـعرها ملفـوف ببكرات، وهـي تضـع الطـلاء عـلى أظافرهـا. خرجـن جميعهـن مـن غرفهن بذهـول، ليريـن ما الـذي يحـدث، واصطدمـن ببعضهـن في البهو، متسـائلات عـن سـبب هـذه الكارثة.

الأرض مـا زالت تهتـز، والانفجـارات تدوي في الأفـق. عندما وصـل الرجـل ومن معـه، وهـم في حالة ذعـر، إلى حافة السـاحة، رأوا مـن خـلال الغبـار المتصاعد نتيجة سـقوط المبنـى الكروي أن الطـاووس ورسـتم والعقـاب والتنـين والأسـد والمـلاك سـقطوا جميعًـا، إمـا عـلى ظهورهـم أو عـلى جوانبهـم أو عـلى وجوههـم، بعـد أن انهـارت قواعدهـم. الوحيد الـذي بقي في مكانـه هو تمثال

الرجل الأسود بعمامته الحمراء وهو يعزف الناي، وكذلك تمثال الملاك الصغير الذي كان يتبول.

لكن الفراغ الذي تركه المبنى الكروي المختفي بجانب البرج كان أكثر ما لفت الأنظار. لقد اختفى تمامًا.

ركض الرجل بحيرة ودهشة نحو طرف الحافة ليعرف إلى أين ذهب المبنى. نظر من الأعلى فرأى المبنى قد تدحرج في منتصف المنحدر، واستقر بشكل مائل، وقد تهشم أحد جوانبه. لم يستطع تصديق ما يراه. لكن الواقع لا ينتظر التصديق؛ فهو موجود بكل قسوته.

الرجل، وقد أصابه الذهول، بدأ يتحرك مجددًا باتجاه المبنى، والآخرون يتبعونه. فجأة، صرخت العروس الجديدة وأشارت إلى البرج. الجميع، دون تفكير، هرعوا هاربين من المكان. الحافة كانت تهتز من جديد، والبرج كان على وشك السقوط.

بدأ البرج الشاهق ينحني ويتمايل. في البداية انحنى رأسه، وكأن سيفًا قطع عنقه بضربة قاسية، لكن حتى عندما انحنى رأسه ظل متماسكًا. ومع ذلك، لم يستطع الجسد تحمل الضغط أكثر، فانكسر البرج من منتصفه.

بين الاهتزازات التي تصعد من الأسفل وحركة الانحناء من الأعلى، انهار البرج تمامًا. وعندما سقط، أحدث ارتطامه بالأرض

هـزة عنيفـة أخـرى، مسـببًا تصاعـد الغبـار والحطـام في كل اتجـاه.

قطـع الطـوب والخشـب والنوافـذ الزجاجيـة والأثـاث والزينة الداخليـة كلهـا تحطمـت واندفعـت إلى أسـفل، حيـث سـقطت بالقـرب من بقايـا المبنى الكـروي الذي كان قد انقسـم إلى نصفين.

في قـاع الـوادي، اسـتقرت الأنقـاض عـلى هيئـة كومـة مدمرة، مثـل بطيخـة كبـيرة انقسـمت إلى جزئـين. ومـا كان بداخلهـا مـن محتويـات تشـابك بفعـل الانهيـار والتدويـر إلى درجـة أنـه لم يعـد يمكـن تمييـز أي شيء عـن حالتـه الأصليـة.

لفـت "لشكوئى" رأسـه ونظـر إلى حجـم الجبال الواسـعة، كان الطريـق خلفهـم. كان النفـق بـين الجبال، ولكـن لم يكـن بإمكانهم رؤيتهـما. كان الصـوت الوحيد الذي يُسـمع هو صـوت الانفجار، ولم يكـن بالإمـكان التمييـز إذا كان بعيـدًا أو قريبًـا، أو إذا كانـوا يبنـون أم يهدمـون. كان بإمكانهـم فقط أن يـروا أن الـبرج والمنازل الدائريـة قـد اختفيـا، تكسرت وسـقطت.

قبـل أن يرفـع عينيه عـن الجبال، أمسـك يد الرجل بعنقه بشـدة ودفعـه. صرخ الرجـل قائـلاً: "مـاذا بقـي؟! لعنة الله عليـك! هذا هو البيـت الـذي بنيته لي؟"!

حـاول "لشـكوئى" التخلص، لكنـه كان عاجـزًا عـن الحركـة، سـاقاه كانتـا تتعثـران. كان قـد اعتـاد عـلى العـرج بعـد أن ضرب

بعصاه مرارًا، فبات يمشي بصعوبة. والآن كان يحتاج إلى الدعم، لكنه لم يكن هناك من شيء يعتمد عليه. استمر الرجل في ضربه بعصاه، دون رحمة، على ساقيه وركبتيه. ضربه حتى سقط "زينل بور" المسكين أمام تمثال الأسود الذي يعزف الناي. وعندما اصطدمت العصا بقاعدة التمثال وانكسرت، حاول الرجل أن يهاجمه، لكن "زينل بور" تملص وركض مبتعدًا.

ركض الرجل وراءه، بينما كان "زينل بور" يعرج. كان الرجل يتنفس بصعوبة بغضب وحقد، بينما كان "زينل بور" يدخل بين أنقاض البرج. الرجل، ممسكًا بعصا مكسورة، كان يتبعه. ولكن وسط الأنقاض، شعر كلاهما بالتعب الشديد. لم يعد بإمكان أحدهما الاستمرار في الحركة، ولم يعد هناك عصا ليتابع الضرب بها. كان "زينل بور" ينظر إليه بعينين مليئتين بالرجاء، وكأنه يطلب منه التوقف، لكنه لم يكن يجد جدوى. كان الرجل أيضًا يعلم أن النتيجة لن تتغير، ولم يعد لديه القوة ليتابع. وفي النهاية، وقفوا أمام بعضهم البعض، ثم قام الرجل بإلقاء العصا المكسورة أمام "زينل بور".

منذ الصباح الباكر كانوا في انتظار. في الليلة الماضية، قاموا بحشر بقايا ملابسهم في عدة حقائب، وأرسلوا الرجل ليحضر الجمل ليبدأوا رحلتهم في الصباح الباكر. كانت الأعمال بيد زوجة الصائغ التي كانت ترغب في أن يصلوا إلى المقهى في وقت

لا يكـون متأخـراً، كـي يسـتطيعوا الحصـول عـلى مـكان في الحافلة (الاتوبيـس) أو أي وسـيلة أخـرى. مـن الظهـيرة حتـى سـاعة أو سـاعتين بعـد الظهر كان أفضل وقـت للوصول إلى المقهى والسـفر إلى المدينـة بالحافلـة. كان بإمكانهـم السـفر حتى سـاعة أو سـاعتين بعـد ذلـك، ربـما، ولكـن فقـط باسـتخدام الخيـول، ولكـن ليـس بشـكل جماعـي... بـل بشـكل منفصـل. لكـن مـن العـصر وحتى المسـاء كان الوضـع سـيئاً، لأنـه لم يكـن يـأتي سـوى النقـل الثقيل، وعندمـا يحـل الليـل، يجـب عليهـم البقـاء في المقهـى. وكان البقـاء في المقهـى أسـوأ مـن التواجـد وسـط رائحـة السـماد والحظـيرة في منـزل قديم متهـدم، حيث كانـت جدرانـه الطينية ما زالـت مغطاة بالبلاسـتوفوم، رغـم أن الثريـات والكـراسي الذهبيـة والأدوات الكهربائيـة قـد أُخـذت إلى المنزل الجديـد، ثم انزلقت وسـقطت في أسـفل الـوادي وتحطمت وتداخلـت مع بعضهـا. كان من الأفضل أن يسـافروا معـاً، بسرعـة، ويصلـوا إلى المدينـة في وقـت أقرب.

كان الوصـول إلى المدينـة بسرعـة أمـرًا مهـمًا للغايـة بالنسـبة للمـرأة، لأنهـا كانـت بحاجـة لمعرفـة أخبـار زوجهـا، وهـو صائغ الذهـب، وكذلـك أخبـار الشـاب. منـذ اليـوم الـذي انهـار فيـه الـبرج، لم تتلـَّق أي خـبر عن زوجهـا ولم تكن تعـرف إلى أين ذهب مـع الشـاب، رغـم أنها كانـت تدّعـي أمـام الآخرين أنها أرسـلتهما بنفسـها إلى المدينـة لإنجـاز بعـض الأمـور والعـودة سريعًـا. لكنها

كانت تشعر في داخلها أن زوجها، حين رأى المنزل ينهار عن بُعد، ربما اعتقد أنهم جميعًا قد ماتوا. فقرر العودة إلى عمله وحياته بسرعة، وربما للاستيلاء على ميراثها كذلك.

بل كانت تعتقد أن زوجها والشاب قد يكونان الآن في نزاع على ثروتها، أو ربما تحالفا معًا بما أنهما يعرفان أسرار زوجها. وربما كانا السبب في انهيار المنزل أصلًا، معتقدين أن الركام سيقضي على الجميع، ليأخذا كل شيء بعد ذلك. كانت هذه الفكرة تخيفها كثيرًا. فقد كان كل شيء ممكنًا.

ورغم تعدد الفرضيات، لم يتمكن أحد من تحديد مكان وجود الزوج أو الشاب. وعندما وصل الخبر بأن "كبير القرية" أيضًا ليس له أثر، لم يربط أحد بين غيابه وغيابهما. أما عن الضابط والقهوجي، فقد كان الوضع واضحًا؛ لا أحد يعرف شيئًا عنهما. كان "كبير القرية" يعتاد الذهاب إلى المدينة، ودائمًا ما كان يغادر دون إخبار أحد، لكنه كان دائمًا يستخدم قاطرًا للوصول إلى المقهى، أما هذه المرة فلم يصطحب جواده معه.

في مركز الشرطة، لم يُثر غياب الضابط أي قلق؛ لأنه كان معتادًا على القيام بدوريات تستمر عشرة أو خمسة عشر يومًا في القرى المحيطة. أما في المقهى، فإذا لم يظهر القهوجي، فإن مساعده يكون سعيدًا بذلك، ولو وصلهم خبر أنه لن يعود أبدًا، كانوا سيحمدون الله ألف مرة، يحتفلون، ولا يسألون عن شيء أبدًا.

لكـن زوجة الصائـغ كان لديها مئـات الأسـئلة، ولا إجابة لأي منهـا. بالنسـبة لهـا، لـن يكـون لأي شيء قيمـة حتـى تجـد زوجهـا في المدينـة. كل مـا تقـوم بـه كان يبـدو بـلا جـدوى. لذلـك كانـت متعجلـة للغايـة للوصـول إلى المدينـة في أسرع وقـت ممكـن.

كان الرجـل يريـد العـودة إلى المدينـة. بعدمـا طـرد زينـل بـور، لم يعـد لديـه أي رغبـة لرؤيـة زوجـة الصائـغ أو الصائـغ نفسـه أو حتـى الشـاب. أما الرسـام، فلم يكن سـوى شـخص كثـير الكلام بـلا فائـدة. لم يشـعر أن غياب الشـاب والصائغ يدل عـلى وقوع أي شيء خطـير. في أفضـل الأحـوال، كان يعتقـد أن السـبب قد يكون خدعـة صغـيرة أو سرقـة تافهـة فقط لأنهـما لم يخبرانـه مسـبقًا بأنهما ذاهبـان إلى المدينـة. لم يكـن يعـرف أي شيء آخـر، لكنـه كان واثقًا مـن أنه عـلى طريـق الوصـول إلى الكنز.

عندمـا رأى أن المنـزل ومحتوياتـه قـد اختفيـا تمامًـا ولم يبـقَ لـه شيء عـلى الأرض، شـعر وكأنـه شـخص ذهب إلى البنك لسـحب أموالـه مـن حسـابه، ليكتشـف أن كل شيء قـد ضـاع. في اليـوم التـالي للكارثـة، ذهـب يبحـث عـن بئـره العزيـز، لكنـه وجـد أنه قـد اختفـى أيضًـا. الفتحـة التـي كانـت مليئـة بالبركة قـد امتلأت بالـتراب والأنقاض. وكأن الحـوادث، بعبثية أو بقسـوة، قد دفعت ببرجـه إلى داخـل تلـك الحفرة.

كان يفكر في كيفية إزالة التراب عن البئر، ربما بجهوده الشخصية أو بمساعدة حفاري الآبار، لكنه كان يعلم أنه يجب أن يتم ذلك بسرية تامة. لم يكن يريد أن يعرف أحد ما هو موجود في الأسفل. على الرغم الأقل، هؤلاء الأشخاص من حوله لا ينبغي أن يعلموا. كانوا مصدر شؤم بالنسبة له، ولا قيمة لهم. فما الذي سيجنيه من الصائغ وزوجته أو ذلك الشاب المحتال؟ وما الذي يريده من زينل بور الحقير؟ لقد قرر أن يبتعد عنهم جميعًا. كان الوصول إلى المدينة بسرعة أمرًا مهمًا للغاية بالنسبة للمرأة، لأنها كانت بحاجة لمعرفة أخبار زوجها، وهو صائغ الذهب، وكذلك أخبار الشاب. منذ اليوم الذي انهار فيه البرج، لم تتلقَّ أي خبر عن زوجها ولم تكن تعرف إلى أين ذهب مع الشاب، رغم أنها كانت تدّعي أمام الآخرين أنها أرسلتهما بنفسها إلى المدينة لإنجاز بعض الأمور والعودة سريعًا. لكنها كانت تشعر في داخلها أن زوجها، حين رأى المنزل ينهار عن بُعد، ربما اعتقد أنهم جميعًا قد ماتوا. فقرر العودة إلى عمله وحياته بسرعة، وربما للاستيلاء على ميراثها كذلك.

بل كانت تعتقد أن زوجها والشاب قد يكونان الآن في نزاع على ثروتها، أو ربما تحالفا معًا بما أنهما يعرفان أسرار زوجها. وربما كانا السبب في انهيار المنزل أصلًا، معتقدين أن الركام سيقضي على الجميع، ليأخذا كل شيء بعد ذلك. كانت هذه الفكرة تخيفها كثيرًا. فقد كان كل شيء ممكنًا.

ورغم تعدد الفرضيات، لم يتمكن أحد من تحديد مكان وجود الزوج أو الشاب. وعندما وصل الخبر بأن "كبير القرية" أيضًا ليس له أثر، لم يربط أحد بين غيابه وغيابهما. أما عن الضابط والقهوجي، فقد كان الوضع واضحًا؛ لا أحد يعرف شيئًا عنهما. كان "كبير القرية" يعتاد الذهاب إلى المدينة، ودائمًا ما كان يغادر دون إخبار أحد، لكنه كان دائمًا يستخدم قاطرًا للوصول إلى المقهى، أما هذه المرة فلم يصطحب جواده معه.

في مركز الشرطة، لم يُثر غياب الضابط أي قلق؛ لأنه كان معتادًا على القيام بدوريات تستمر عشرة أو خمسة عشر يومًا في القرى المحيطة. أما في المقهى، فإذا لم يظهر القهوجي، فإن مساعده يكون سعيدًا بذلك، ولو وصلهم خبر أنه لن يعود أبدًا، كانوا سيحمدون الله ألف مرة، يحتفلون، ولا يسألون عن شيء أبدًا.

لكن زوجة الصائغ كان لديها مئات الأسئلة، ولا إجابة لأي منها. بالنسبة لها، لن يكون لأي شيء قيمة حتى تجد زوجها في المدينة. كل ما تقوم به كان يبدو بلا جدوى. لذلك كانت متعجلة للغاية للوصول إلى المدينة في أسرع وقت ممكن.

كان الرجل يريد العودة إلى المدينة. بعدما طرد زينل بور، لم يعد لديه أي رغبة لرؤية زوجة الصائغ أو الصائغ نفسه أو حتى الشاب. أما الرسام، فلم يكن سوى شخص كثير الكلام بلا فائدة. لم يشعر أن غياب الشاب والصائغ يدل على وقوع أي شيء خطير. في أفضل الأحوال، كان يعتقد أن السبب قد يكون

خدعة صغيرة أو سرقة تافهة فقط لأنهما لم يخبرانه مسبقًا بأنهما ذاهبان إلى المدينة. لم يكن يعرف أي شيء آخر، لكنه كان واثقًا من أنه على طريق الوصول إلى الكنز.

عندما رأى أن المنزل ومحتوياته قد اختفيا تمامًا ولم يبقَ له شيء على الأرض، شعر وكأنه شخص ذهب إلى البنك لسحب أمواله من حسابه، ليكتشف أن كل شيء قد ضاع. في اليوم التالي للكارثة، ذهب يبحث عن بئره العزيز، لكنه وجد أنه قد اختفى أيضًا. الفتحة التي كانت مليئة بالبركة قد امتلأت بالتراب والأنقاض. وكأن الحوادث، بعبثية أو بقسوة، قد دفعت ببرجه إلى داخل تلك الحفرة.

كان يفكر في كيفية إزالة التراب عن البئر، ربما بجهوده الشخصية أو بمساعدة حفاري الآبار، لكنه كان يعلم أنه يجب أن يتم ذلك بسرية تامة. لم يكن يريد أن يعرف أحد ما هو موجود في الأسفل. على الرغم الأقل، هؤلاء الأشخاص من حوله لا ينبغي أن يعلموا. كانوا مصدر شؤم بالنسبة له، ولا قيمة لهم. فما الذي سيجنيه من الصائغ وزوجته أو ذلك الشاب المحتال؟ وما الذي يريده من زينل بور الحقير؟ لقد قرر أن يبتعد عنهم جميعًا.

رغم أنه كان يدّعي أن البيت قد خرب وأن الأمور قد ساءت للغاية، أصر على ضرورة العودة إلى المدينة. لكنه ما إن بدأ الحديث عن الرحيل حتى أدرك أنهم يظنون حقًا أن حاله سيئ تمامًا

وأنـه لم يعـد يملك شـيئًا. ورأى أن زوجتـه، تلك التـي أنفق عليها الكثـير، تفكـر الآن في تركـه وكأن لا علاقة تجمعهما من الأسـاس.

في البدايـة، شـعر بالحـزن والانكسـار، لكـن مـع الوقـت بـدأ يحـدث نفسـه قائلاً: "ما دام الأمـر هكذا، وما دامت هـي بلا وفاء، فـما جـدوى كل تلـك النفقـات والهدايـا؟ الأفضل أن تعـود." كان الغضـب يشـتعل في داخلـه شـيئًا فشـيئًا حتـى طغـى عليـه تمامًـا. بـات يراهـا وكأنها كانـت تخدعه طـوال الوقـت، وأن كل مـا قالته لـه لم يكـن إلا طمعًـا في ماله. كان يشـعر وكأنه فقـد احترامها تمامًا، وكأنهـم رأوا فيـه مجرد مصـدر رزق انتهـى الآن.

فكّـر قائـلًا: "إذا كانت هذه هـي حقيقتهم، فليذهبـوا وليفتحوا الطريـق بأنفسـهم إن أرادوا. أمـا أنـا فسـأنتظر، وعندمـا يعودون، لـن ألتفـت إليهـم حتى كـما لا يلتفـت الكلـب إلى صاحبـه بعد أن يهجـره." كان يخاطـب نفسـه بهـذه الأفـكار، لكنـه لم يكـن يـدرك أنـه يتحـدث عـن المـاضي، عـن "المـرّة السـابقة"، دون أن يعلم ما إذا كانـت هنـاك مـرة أخـرى بالفعـل. كان يظـن أن هنـاك فرصـة أخـرى، ربـما تكـون موجـودة، لكنـه لم يكـن قـادرًا عـلى رؤيـة المسـتقبل بوضـوح، بـل كان يتمسـك بالأمـل فقـط.

أمـا زوجتـه الجديـدة، فـكان أملهـا مختلفًـا. بالنسـبة لهـا، كانت الأبراج لا تزال قائمة، والطريق نحو كنزها مفتوحًا. كانت تعلم أن المدينـة تحمل الكثير لها، وكانت تـدرك تمامًا معنى العودة إلى المدينة.

الذهاب إلى المدينة أصبح الآن شـغلهم الشـاغل وكل مساعيهم كانـت منصبّـة عـلى ذلك. الرجـل وافـق أن يذهب بنفسـه في الليل

ليساعدهم في جمع الحمير والبغال المستأجرة، كي يتمكّنوا من الرحيل بأسرع وقت ممكن. لو كان كبير القرية موجودًا، كان سيكلفه بهذه المهمة، رغم أنه لم يكن متأكدًا إن كان تصرف كبير القرية سيختلف عما يفعلونه الآن. لكن على كل حال، لم يكن هناك أي خبر عن كبير القرية، وقيل إنه ربما ذهب إلى المدينة، رغم أنه لم يأخذ بغله معه.

الرجل امتطى جواده وانطلق ليبحث عن الحمير والبغال المستأجرة.

الآن وقد أشرقت الشمس، وقفوا على تلّة حيث كانت هناك علامة تشير إلى كمية الحفر التي أنجزت، وكان الهواء يهبّ من خلالها. كانوا ينتظرون عودة الحمير والبغال. الجبال ما زالت زرقاء في الأفق، وزينل بور كان يحدّق عميقًا في المشهد البعيد محاولًا أن يرى أيهما سيظهر أولًا: الحمير والبغال أم الشمس.

كان الرسّام يدخّن سيجارة بينما يستمع إلى زقزقة العصافير التائهة، وزينل بور كان يمشي أحيانًا ويركل الحصى برجله. كان ينظر أبعد قليلًا، حيث كانت امرأة الصائغ جالسةً منكمشةً على حقيبة ملابسها، والعروس جديدة بجانبها تبدو وكأنها تشعر بالبرد، تعانق نفسها. المرأة كانت تدخن سيجارة.

كان الرسام يرى الأنقاض المبعثرة على التلّ القريب، حيث بقايا البيت المهدّم والتماثيل المحطّمة ملقاة. وفي الأسفل، على السهل، كان الضباب ينتشر مثل طبقة خفيفة من الريش الأبيض المعلّق بلا وزن.

قام من مكانه، وزينل بور، بينما كان يركل الرمال بقدمه، اقترب منه. لكن بدا وكأنه لا يتحدث معه مباشرة، بل مع نفسه، وقال:

"هذا بقي نصفه... وهذاك انهدم كمان. يا خسارة!" وأشار إلى العلامة التي تشير إلى الحفر، ثم إلى الأطلال البعيدة على التلّ القريب.

ظلّ الرسام صامتًا.

زينل بور قال مجددًا: "يا خسارة، والله يا خسارة. تشتغل وتتعب سنوات طويلة، بحذر وأمل، تبني شيئًا، ثم فجأة... لأنهم كانوا يبنون طريقًا على الجانب الآخر... فجأة كل شيء ينهار. ينتهي تمامًا".

الرسام كان يعلم أنه لا فائدة من الكلام أو حتى رفع صوته، ولم يكن ينوي توبيخه، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من القول:

"الأساس كان ضعيفًا... كان مغشوشًا".

زينل بور رفع ذقنه وهز رأسه، وقال: "الأرض اهتزّت".

لكن الرسام تابع فكرته وقال: "هم من زعزعوها... لم تهتزّ وحدها".

زينل بور، بينما كان يدير ظهره ويبدأ بالسير، قال: "الهزة هي الهزة... ما الفرق؟"

الرسام كان يرى الشمس تشرق، والجبل يستمد من ضوء الشمس بُعدًا جديدًا قال:

"هناك فرق. إن اهتزت من نفسها، فهي قضاء وقدر. لكن إن زعزعوها، فهذا من فعل البشر".

ردّ زينل بور بسخرية: "هه! وما الفرق؟ النتيجة في الحالتين واحدة... الخراب".

كان الرسام يعلم أن الجدال قد لا يجدي، لكنه شعر أن الفائدة ليست هي المسألة هنا. كان الأمر يتعلق بمبادلة الأفكار، ورأى أنه إذا لم يعبر عن فكره أمام فكرة يعرفها، فذلك نوع من التقصير، بل نقص في إنسانية الإنسان أمام أخيه الإنسان. شعر أن كتمان الفكرة بخل، بل أسوأ، إنه شكل من أشكال العدم. فقال: "هناك فرق. الخراب الأول مأساة، مصيبة. أما الثاني، فهو ليس مأساة، وأحيانًا يكون مهزلة".

توقف زينل بور أمامه ونظر إليه مباشرة، وكأنه يحاول بنظراته أن يجعله يشعر بالخجل أو بالألم، لأن كلماته كانت تزعجه. لكن الرسام أومأ برأسه تأكيدًا لما قال، وأضاف: "المأساة؟ هي البداية فقط. أما النتائج، فليست مأساة. الأشخاص الصغار عندما يجدون أنفسهم عالقين في المهزلة، يظنون أنهم في مأساة".

زينل بور شعر بالضعف. تحرك من جديد وقال: "من هو الصغير؟ ومن هو الكبير؟"

من مكانها، ألقت زوجة الصائغ نظرة نحوهم، ثم عادت وأخذت نفسًا من سيجارتها التي بالكاد تحترق، وأطلقت الدخان بهدوء. كان الدخان يتحرك بلطف في الهواء الصافي، وأشعة الشمس الأولى تنيره. العروس الجديدة التي كانت تشعر بالبرد، رأت ظلها الطويل يتشكل على الحصى والتراب. احتضنت نفسها وقالت:

"واه! ما هذه الحماسة؟ يتجادلون في هذا الوقت من الصباح!" ثم جلست بجانب المرأة وقالت: "ضاق صدري... لماذا لا نرحل؟"

ردت زوجة الصائغ دون أن تلتفت: "فلنمشي على أقدامنا".

قالت العروس بلهفة: "علينا أن نذهب. ربما لن يجدوا حميرًا".

قالت المرأة بهدوء: "سيجدون. لا تتعجلي. الحمير دائمًا موجودة".

في تلك اللحظة، كان الرجل يقود قافلة البغال نزولًا من التلّ، ومعه أصحاب البغال. زينل بور قال: "في النهاية، السخرية سهلة. لكن نيتي منذ البداية كانت الخير والخدمة".

ابتسم الرسام لنفسه، وهز رأسه قليلاً. كان بإمكانه أن يقول: "أوه، مرة أخرى... شخص آخر." كان بإمكانه أن يقول: "هذه هي القصة دائمًا، نفس الشيء يتكرر." وفكر ربما هذا صحيح. يبدأ الأمر بنية حسنة، لكنهم بعد ذلك يغرقون في تفاصيل العادة وتكرار الأحداث، حتى يجدوا أنفسهم غرباء عن الخير والخدمة، رغم اعتقادهم أنهم ما زالوا كما كانوا.

هذا، بالطبع، هو مسار أولئك الذين لا ينوون الشر. يبدأون بنوايا طيبة، لكن البداية ليست هي الجوهر. الأدوات والتفاصيل هي ما يحدد الاتجاه في الحياة. ومع ذلك، فكر أنه لا جدوى الآن من قول هذا. من يجب أن يقولها، قد قالها. وما عاد هناك حاجة لتكرارها. فقط ابتسم لنفسه بهدوء.

ثم قال: "حسنًا... الآن في النهاية، ما الذي ستفعله، مجيد؟"

قال زينل بور: "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ الآن وأنا ذاهب مع هذا؟"

صمت الرسام.

شعر زينل بور وكأن اعتراضًا في صمت الرسام، فقال: "نعم، لماذا لا؟ هل أذهب وأصبح مجرد عامل لرفع التراب؟"

ردّ الرسام قائلاً: "لا، لماذا التراب؟ هناك أشياء أخرى. هنا لا، في أماكن أخرى. أو مكان آخر، آخر. المكان نفسه، آخر. لا تعقيد".

في تلك اللحظة، كان الرجل قد أوصل قوافل الحمير إلى منتصف الطريق في التلة الصاعدة. كانت الشمس ترتفع من خلف تلة أخرى، وظهرت أم علي حاملة شيئًا في يدها. عندما وصلوا، رآها الزوج، فابتسم وجهه وأزال نظارته السوداء ليضعها على عينيه، بينما كان يتأمل قوامها الرشيق.

أم علي عندما رأت المرأة، توقفت، وأزاحت حجابها عن رأسها وانتظرت نظرها. كانت المرأة تبحث عن إشارة إيجابية منها، فأومأت برأسها في تأكيد، رغم وجود المرأة الشابة وحملها في يدها الذي كان يحمل الإجابة الإيجابية. أم علي بقيت للحظة تحدق، ثم أغلقت جفونها بهدوء وهزت رأسها علامة الموافقة. بعد ذلك، أعادت الحجاب إلى شعرها وربطته تحت ذقنها، ثم تقدمت خطوة نحو المرأة، فبقيت هناك.

من بعيد، كان صوت طيور الوادي يملأ الوادي. بدأ الضباب ينسحب ببطء عن السهول. كانت الأيام تبدأ ببطء. في السماء، كان هناك عقاب يدور ببطء. وكان صوت أجراس قوافل الحمير قادمًا من أسفل التلة. زينل بور رأى أم علي قادمة، ففهم أنها ستنضم إليهم. لكن رغم ذلك، كانت كلمات صديقه الرسام ما زالت تثير غضبه، أو ربما مرارتها منعته من الشعور بقدوم المرأة، بل شعر فقط بأن المرأة تجسد الإهانة وكلمات الرسام الأخيرة.

جمع نفسه مرة أخرى وقال: "أنت لا تختلف كثيرًا عنا." الرسام، وهو يرى أن قوافل الحمير تقترب من أسفل التلة، قال: "ها؟"

اعتبر زينل بور هذا الرد إشارة لعدم الاهتمام عن قصد، فأضاف قائلاً: "أنت أيضًا مثلي، جئت لتلوّن. "أجاب الرسام: "أنت قلت لي أن آتي، وأنا جئت".

رأى زينل بور أنه قد حصل على الفرصة، فقال بنبرة ساخرة: "لا يجب على الإنسان أن يذهب إلى أي مكان يُقال له أن يذهب".

أجاب الرسام: "أنا رسام. قلت لي أن آتي لأرسم، وجئت. هذا عملي. أو كما قلت أنت، كنت معروفًا. كانت مصادفة. حتى هذه اللحظة كانت مصادفة. مصادفة مهنية. أو إن أردت أن تقول بشكل أفضل، قل مخاطرات مهنية. من الآن فصاعدًا، الأمر يعتمد على الاختيار. من الآن فصاعدًا، عندما أتيت،

جئت لأرسم ما أراه، كما أراه".

قال زينل بور: "لكن لم يحدث، انهدم المبنى، ولم تكتمل رسمتك."ردّ الرسام: "من قال إنه لم يحدث؟ هل هذا أفضل من ذلك؟ أكمل من فكرتي الأولى! فرشاة الرسم سحبت على الوجوه، الحامل سقط وتحطم، ألواني ذهبت مع الغبار، السقف انهار، وكل شيء اختفى في الدمار! هل يوجد شيء أفضل من هذا؟ أكثر حياةً؟ هذا كان حدثًا! ها"!

قال زينل بور: "إذاً، لو لم ينهدم المبنى، لما اكتملت رسمتك".

قال الرسام: "إذاً ماذا؟ ألم ينهدم؟"

قال زينل بور: "إذا لم يحدث، لكانت نبوءتك خاطئة".

قال الرسام: "هل كان من القهوة؟ لم أكن متأكدًا، كنت أفكر في الاحتمالات. الآن رأيت الواقع، ورسمت ما رأيت".

قال زينل بور: "للتذكار؟"وضحك ضحكة ساخرة.

أجاب الرسام: "للتنفس. تنفس الآن. التنفس"

ظل زينل بور صامتًا يحدق فيه، ثم قال بهدوء: "ماذا كان؟ انهدم، فقط."

ثم ابتعدت المرأة مرة أخرى، لأن الرجل كان يقترب منها، فقال: "مئة ألف شخص! لم يرهم أحد. أكلوا الطعام، وذهبوا. لا يوجد أحد هنا. ذهبوا جميعًا!"أشار الرجل بيده نحو القرية وقال: "أين أهل القرية؟"

حينها أدرّت المرأة زوجة الصائغ رأسها نحوه، نظرت إليه بابتسامة ساخرة وتعجب، وبلهجة مشوشة كانت تعبر عن

تململها (حركات متوترة) في جسدها بأكمله، قالت: "خلف تلك الأسلاك؟"تشير إلى الحواجز المادية أو الرمزية، التي ربما تمثل الحدود بين الأشخاص أو بين الأماكن، مثل الأسوار أو الأسلاك الشائكة التي تفصل الناس عن بعضهم البعض. وكانت الأسلاك لا تزال موجودة، وكانت قطع الورق الملونة تهتز بفعل الرياح الخفيفة. لم يكن الدمار قد وصل إلى الأرض بشكل كامل، والسد الذي كان يزين المكان لا يزال قائماً في مكانه .

ومن وراء نظاراتها الشمسية الكبيرة كانت المرأة تراقب، كانت متوترة. أرادت أن يتحركوا بسرعة دون ضوضاء. قالت: "هيا، انه هذا الأمر".

أما الرجل، الذي كان يعاني من مشاعر مختلطة، والذي حاول كبت دموعه، ولكنه لم يظهرها في عينيه، فقال: "لقد تزوجتك، أليس كذلك؟"

الفتاة، التي كانت تتمتع بحقوق قانونية أكبر في هذا المجال مقارنةً مع مدة زواجها، أجابت بسرعة وباطمئنان: "أنت مطلق."ثم قالت: "لدي حق الطلاق، كما أشرت".

كانت التوترات تزداد في زوجة الصائغ فقالت: "يا مجيد، بسرعة. انتهِ من الأمر".على الرغم من أن مجيد زينل بور كان يسمع، إلا أنه كان مشغولاً بتثبيت الأمتعة على الحمير، وشد الحبال بإحكام. لم يقل شيئًا. كان الرسام يراقب. ولم يكن هناك سوى صوت رنين الأجراس على أعناق الحمير. ثم ضحك

الرسام، واقترب من زوجة الصائغ وقال: "هل تعتقدين أنه بسبب الشرف أو حق العيش أنه لا يجيب؟" ثم نظر إلى زينل بور، ابتسم بسخرية، وقال: "أنا أعرف زينل بور جيدًا، كلهم، لا شيء جديد، كلهم كذلك".

يبدو أن الرجل استجمع قوته، ترك المرأة وذهب نحو معمارته. كان يريد أن يفعل شيئًا، لكنه لم يتمكن من فعل شيء. في حالة من اليأس، قال: "أنتِ دمرتِ أبي وأمي".

صرخ سائق الحمير: "هل أنتم جاهزون؟"

كانت الأجراس تدق. عندها رأى الرجل أن زوجته كانت هناك، وفهم فجأة أنها تنوي الرحيل أيضًا، وأنها تحمل حقيبة معها. أصبح مضطربًا. لم تكن زوجته من المدينة، وكانت معه لسنوات طويلة. وهو في حالة غضب، استخدم كل ما لديه من قوة وصرخ في وجهها: "إلى أين تذهبين؟" وكانت نظراته مشدودة نحوها.

المرأة لم تجب، فقط نظرت في عينيه بصمت

حاولت المرأة أن تبتعد، لكن الرجل أمسك بها فجأة، وقال بلهجة غاضبة: "تظنين أنكِ ستفعلين ما تشائين؟ سأقتلكِ"!

دفعته المرأة بهدوء جانبًا، ومرت من أمامه.

أدار الرجل رأسه، وكان يسمع فقط صوت المرأة وهي تبتعد. ثم سمع صوت "يا علي" من عمال القوافل الذين كانوا يشدون أحمالهم على الحمير، يطلقون نداءات "يا علي"، بينما كان صوت الأجراس يملأ المكان."

وعندما رفع رأسه، اكتشف أن كل شيء أصبح بعيدًا عنه، وأنه لا يرى أمامه سوى بقايا الخراب التي كانت منتشرة على التلة التالية في ضوء الشمس قبل الظهر. كانت الظلال الطويلة تشير إلى الفوضى التي حلّت، بعيدًا عن كل ما كان يعتقده أو يتخيله.

كان الجميع على ظهور حيواناتهم كما لو أنهم في انتظار شيء ما، لكن الرجل كان فقط يشعر بنظرة الرسام الذي كان يراقب الموقف.

في تلك اللحظة، قال قائد القافلة: "الصلاة علي النبي وأهله"!

فقط رجال القواطر (سائقي الحمالة) رددو الصلاة علي النبي، ثم تحركوا في طريقهم، وكان الرسام هو آخرهم.

نظَر الرجل مرة أخرى ورأى الرسام وهو ينظر إليه. بينما كانت القواطر تنزل عن المنحدر، كان الصوت الوحيد الذي يسمعه هو صوت الأجراس، ثم اختفى الصوت تدريجيًا. بعد فترة، بدأ صوت آخر يتردد في الأفق. استمر الرجل في النظر إليهم لفترة، ثم عندما رآهم يختفون خلف التل، قرر العودة.

كانت القافلة تسير عبر المنحدر ثم تصل إلى الحافة. في البداية، كان الصوت الوحيد الذي يسمعونه هو صوت الآلات الثقيلة التي كانت تزيل الصخور والتراب. من بعيد، كانوا يرون الجرافات وهي تعمل على الأرض، وكانت تتحرك ببطء، تصدر أصواتًا قاسية مع كل حركة، ثم تعود لتكمل عملها. كان الرسام يلاحظ، من بعيد، أن الأسطح المعدنية للجرافات كانت تتلألأ تحت الشمس، لكنه كان يعلم أنها مغطاة بالغبار والأوساخ نتيجة الاستخدام المستمر.